

جولکان غرین



لویاٹان

جیب

ترجمہ:
عسود کا سوختہ

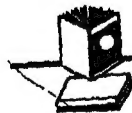


الاستاذ الفاضل
زهير الجمو

جوليان غرين

لويثان

ترجمت:
عبدوكا سوحه



منشورات وزارة الثقافة
في الجمهورية العربية السورية
دمشق ١٩٩٧

العنوان الاصلي للكتاب :

LEVIATHAN
JULIEN GREEN

روايات عالمية
« ٥٨ »

لويثان = Leviathan / جوليان غرين ؛ ترجمة عبود كاسوحة . -
دمشق : وزارة الثقافة ، ١٩٩٧ . - ٣٣٤ ص ؛ ٢٤ سم . -
(روايات عالمية ؛ ٥٨) .

١. - ٨٤٣ غ ري ل ٢. - العنوان ٣. - غرين
٤. - كاسوحة ٥. - السلسلة

مكتبة الاسد

الايداع القانوني : ع - ١٥٢ / ٢ / ١٩٩٧.

لويثان(١)

● « انت ... شذخت رؤوس التنانين على المياه . انت رضضت رؤوس لويثان ... » مزمو (٧٣ - ١٤) .

● « في ذلك اليوم يفقد الرب بسيفه القاسي العظيم الشديد لويثان الحية المقومة ولويثان الحية المتلوية ويقتل التنين الذي في البحر . » اشعيا ، (٢٧ - ١)

● « اما لويثان افتمسكه بشص^١ ام تربط لسانه بحبل ؟ اتجعل في انفه اسلة وثقب فكه بحلقة ؟ ... ليس لاحد جراءة ان يشبه ... من يكشف طرف لباسه ومن يدخل بين صفي اضراسه ؟ من يفتح مصراعي وجهه ؟ إن دائرة اسنانه هائلة . جسمه كصفائح المجان^٢ . كانه تختم تحت حراشف ملززة ، تنصام^٣ بعضها الى بعض فلا تسلك بينها الرياح . كل^٤ منها ملتصقة بالآخرى فهي متماسكة لا تنفصل . عطاسه يقدح النور وعيناه كاجفان الفجر . تخرج من فيه مشاعل ويتطاير منه شرر النار ، ومن منخريه ينبعث دخان كانه من قدر تغلي او مرجل من نفسه يصرم الجمر ومن فيه يخرج اهيب ... قلبه صلت كالحجر وقاس كالرحى السفلى ... ليس له في الغبراء نظير وقد طبع على عدم الخوف ... » ايوب (٤١) .

(١) لويثان : حيوان مائي هائل ذكر في الاسفار الشعرية فقط من الكتاب المقدس . (هذه الشواهد من الاختيار المترجم .)

القسم الأول

١

حين وصل إلى عبارة الخط الحديدي توقف و فكر . قال في نفسه :
ما الداعي للاستعجال ؟ سأصل مبكرا على كل حال . لن تكون الساعة
إلا الخامسة والنصف . ومن بعد ؟ سأقصد المقهى وانتظر نصف ساعة .
وبعدئذ ؟

رفع صوته وهو ينطق بتلك الكلمات الأخيرة وهز رأسه نفيا وكان
جواب السؤال الذي طرحه على نفسه لم يكن مما يرغب في سماعه .
وظلّ بعض الوقت ساكنا مقوس الظهر ، ويده على العارضة الحديدية ،
ثم صعد دونما استعجال واستند بمرفقيه إلى الحاجز . كان بوسعه من
مكانه أن يرى المحطة على بعد ثلاثمائة متر من هناك . وهي عبارة عن بناء
صغير من الآجر ليس له طابع مميز ، ومن ورائها جادة طويلة متشجرة
الجانبين بالحدود تؤدي من المحطة إلى المدينة . وتتوزع هنا وهناك دارات
أثرياء مشرعة سطوحاً من الأردواز ومتربعة في أعماق حديقة تزينها
المساحات الممرجة وأشجار الزينة . ويرتفع رتلان مديدان من أشجار
الزيزفون عن يمين الخط الحديدي وعن يساره كأنهما ساهران على
حمايته .

نقل بصره فوق مختلف زوايا ذلك المشهد وأخرج ساعته فأطال
النظر إليها مثل من يستغرق في عمل وهو يتفكر في آخر . صحيح أنه
ما زال في سن الشباب ، لكنه شباب فيه ذلك الشيء الذي لا يدرك أحد

كنهه . مشوب بشيء من الذبول والمرارة على نحو ما يتبدى لدى أولئك الذين نهشت الهموم أوائل سني حياتهم واقتربتها . وهو ذو وجه ممتلئ من غير لون ، وبشرة رخوة تنبئ للمستقبل عن خدين أجوفين وتجاويف عميقة ترسم حول الفم ما يشبه الضحك الصامت حين يبلغ المرء الأربعين . وكانت عيناه بلونهما الرمادي الكاشف تتعلقان على نحو قوي بما تحدثان فيه . أما أنفه العريض الممتلئ وشفتاه السميكتان فتتم على رجل ضعيف الإرادة ، لكنه مأخوذ براحته الشخصية وما اكتسبه من عادات وهو قادر على أن يدافع عنها بحزم إذا ما دعت الضرورة . ويبدو أنه خلق ذقنه بكثير من العناية قبل أن يرتدي بزة رمادية غامقة ذات شكل ملائم جداً وقد عقد ربطة عنق سوداء ووضع باناقة ساذجة منديلا من الحرير بنفسجي اللون في الجيب العلوي من سترته ليظهر نصفه فوق صدره .

انقضت بضعة دقائق دون أن يأتي بحركة حرصا منه كما يبدو على الصمت العميق السائد من حوله . أما فترة الاصيل الخريفية القصيرة فشارفت على نهايتها وبدأت السماء تصطبغ بلون وردي .

وانتصب بقامته أخيراً. ف ضرب الحاجز بقبضة يده مثل من يضع حداً لتأملاته ثم تابع دربه فدأب الدرج المؤدي الى الطريق من الجانب الآخر للخط الحديدي . إنه طويل القامة شديد البأس حتى لكان شعوراً بالخجل يساوره من فرط طول وقوته فيخفض رأسه ويقوس ظهره قليلاً . وبحركة متواصلة كان يفرك كفا بكف وهو يمشي بخطى منتظمة وسريعة تنمّ على مجرى أفكار مسيطرة ، وكان شيئاً من هموم الروح يتسرب الى الجسد فيطبعه بإيقامه . وقاده ذلك التمرين الرياضي الى سور أرض واسعة محاطة بأشجار مهيبة ، وانبسطت باحة واسعة ممرجة ذات شكل بيضوي تحدها الماشي المتعرجة أمام ما يمكن أن يسمى بقصر صغير ، مصمم على النمط الذي كان سائداً قبل أربعين عاماً . أما نوافير المياه والكهوف المزخرفة بالحصى واحواض الأزهار فأسبغت

انطباعاً عن ثراء فاحش يستغل للدعاء والغرور . وثبتت على الحاجز المعدني لوحة صغيرة كتبت عليها بخط أنيق عبارة « خلوتي » .

استحوذت تلك الدارة على انتباه المتجول برهة من الزمن فانتزعت منه تنهيده . ولم يبتعد عنها إلا مرغماً . فرجع أدراجه نحو المعبر ثانية . ونظر الى ساعته مرة أخرى فانتابه بفتة فزع من أن يكون قد تأخر بعد أن كان لا يدري كيف يصرف وقته فأخذ يركض .

بدأت المصابيح تضاء واحداً فواحداً وهو يسلك شارع المدينة الرئيسي . كان يلهث قليلاً بسبب الركض ويمسك قبعته بيده رغم الريح الباردة . وحين صار بمحاذاة الكنيسة انعطف ليسلك شارعاً صغيراً على اليمين ودخل مقهى يصدر عنه ضوء أصفر بلون حجارة الشارع . أجل ناظره في القاعة فتأكد وهو راض من أنه وحده . فالتادل نفسه كان غائباً . وتوجه دونما تردد ليجلس الى مائدة تشغل نصف احدى النوافذ . ولما كان دخوله على درجة من التكتّم لم تثر انتباه أحد ، اضطر الى النقر باصبعه على رخام المائدة كي يأتي أحد لتلبية طلبه .

— ها هو ذا الآن جالس وأمامه فنجان من القهوة التي يختلط طعمها ورائحتها ، مع كثير من الأشياء الأخرى الصغيرة بالمغامرة الكثيبة التافهة التي مازال يمارسها من أسبوع الى أسبوع ، يقرب وجهه من الزجاج بقلق لم تخفف العادة من حدّته . فيرى على ذلك النحو دكانين تواجهان المقهى من الجانب الآخر للشارع . وبدأت له إحلاهما ذات أهمية ضئيلة فكان لا يوليهما إلا نظرة عابرة : ذلك أنها مخبز صغير لا يحتل واجهته إلا رغيقان مستطيلان زنتهما أربع أوقيات ، مسندان الى عارضة نحاسية على نحو يجعلهما يجتذبان بسهولة أنظار القادمين من الزبائن . لكن يبدو أن أصحاب المخبز ما عادوا يتوقعون قدوم أحد حتى إن شعلة مصباح الغاز المتدلي من السقف خبت فلم تعد تنشر غير ضياء باهت ضارب الى الزرقة . أما الدكان الثانية المطلية بدهان أخضر لوزي فيشع منها في عتمة الليل نور شديد باهر يبدو مسيطراً على

الشارع . امتدت على زجاج الباب كتابة بخط عريض تعلم المارة أن السيدة أرملة « إرنست برود » صاحبة المكان غسالة كؤاءة للملابس (السميكة والرقيقة) . كما وضعت في الواجهة خمسة أو ستة قمصان رجالية تجتذب الأنظار بنظافتها الناصعة ونضارة طياتها . وتنسدل ستارة سميكة ذات ثنيات بيضاء متدلّية من قضيبها المحيط بالواجهة فتحجب داخل الدكان عن الخارج ، لكن دمدمة متواصلة تتولى الإفصاح عن النشاط الدائر داخل المكان . وبين وقت وآخر يبرز فجأة رأس من فوق الستارة ليلقي على الشارع نظرة عجل . فيجفل عندها الرجل كأن أحدا ناداه . ثم فتتح باب المصبغة على نحو مفاجيء ، وسَمِع صوتا حادا يصيح بشيء ، ثم ضحكات ترد عليه . فاثارت اضطرابه تلك الضجة التي جاءت على نحو مباغت . وبعثت دفقة من الحرارة بالدم الى وجنتيه فالصق جبهته بالزجاج ، إنما بنوع من التعطش لرؤية ما بداخل الدكان حتى تشوّس كل شيء أمام ناظره . فلم يبصر إلا بشرشف معلق على حبل صدمه ببياضه ، ثم رأى ذراع امرأة ، عاريا من المرفق حتى المعصم وقد امتد فأغلق الباب من فوره .

كفّ عن مراقبة الدكان وأطرق براسه . وزال عن وجهه كل شكل من أشكال التشنج لتحل محله مسحة من مرارة عميقة جعلته يبدو مسنا . وأطلق تنهيدة تعب وخبط بيده على الطاولة ثم وضع بضع قطع من النقود قرب كأس نصف فارغة ونهض . دقت الساعة الجدارية السوداء تعلن السادسة . وظهر النادل عند تلك اللحظة . شاب ناحل ذو عينيّن زائفتين . نظر الى الساعة ثم بدت على وجهه ابتسامة ذات مغزى وهو يرى الزبون يتحرك في المقهى جيئة وذهابا .

قال : لن تطول المسألة . ودسّ القطع النقدية في جيبه . إذ ليس من سبيل لإبقائهن الى ما بعد السادسة أو السادسة وعشر دقائق .

فاستدار الرجل نحوه واستند الى المائدة .

قال : أعتقد ذلك ؟

ثم أضاف بصوت متهدج شبه أجش :

ـ لعلك تعرفهن ؟

أجاب النادل بابتسامة وهو يرفع كتفيه : بشكل عابر . لكن من الواضح يا سيدي أنك في هذه المنطقة منذ مدة غير طويلة .

فسأله الرجل بشيء من الاستياء : ولم تقول ذلك ؟

ـ لأننا نعتقد هنا بأن الفضلى من بينهن لا تستحق عناء القائها في الماء .

وضحك ضحكة صغيرة ساخرة . ثم كفّ وهو يلاحظ عدم جدوى طرفته ليقول بلهجة بوح جاد وهو يمسح المائدة بخرقه في يده :

ـ لولا أنك في عجلة من أمرك يا سيدي ، لقلت لك كلمتين بهذا الشأن .

ـ لا بأس . ماذا بوسعك أن تقول لي ؟

قعد النادل مستنداً الى حافة المائدة وقال بلهجة استخفاف :

ـ إن كانت الكبرى تستأثر باهتمامك ، أقصد السمرات التي تحمل الفسيل الى المدينة فإني أنصحك بالحدار : إنها الأكثر شراً والأكثر اختلاسا .

تلفظ بتلك الكلمات ونظر بطرف عينه عبر النافذة فطالع محدثه بوجهه الجانبي الطويل الماكر والفضولي في آن معاً .

قال الرجل بصبر نافد : والآخرى ؟

– الأخريات ؟ ولكن ليس غير واحدة ، اذا ما تركنا ربة العمل جانباً
والصغيرة التي تساعد في حمل الفسيل .

ثم سأل وهو يوشك أن يغرق في الضحك : ليست الصغيرة على أية
حال ؟

– الصغيرة ؟ وهل من يسألك عن الصغيرة ؟ أم أن بوسي أن أعرف
كم يبلغ عددهن هناك ؟

لابد أن اللهجة التي قيلت بها تلك الكلمات قد باغتت النادل فلزم
الصمت برهة لا يجيب وقد جحظت عيناه . ثم استأنف قائلاً :

– إن كانت الأخرى فتلك أنجيل . لقد ماتت أمها في العام الفائت .
ثم قوطع هنا بحركة بدرت عن الرجل وهو يلمح أحداً قد خرج من
المصيفة .

* * *

- ٢ -

شاهد من جديد يسلك الدرب المؤدي الى المعبر . لم يكن القمر قد طلع بعد فبدت الظلمة داكنة . لكن نظره كان يميز في العتمة بقعة باهتة مصدرها قميص الفتاة الابيض . فحث الخطى حتى صار بمحاذاتها وبات يرى ذراعيها العاريتين وعنقها . لاحظت وجوده فتوقفت .

قالت بصوت ينمّ على الضيق : انت تمشي بسرعة كبيرة . لو مرّ احد على الدرب لعرف الكل غداً أنك تبعثني . دعني أقدم عليك قليلاً .

وبقيت ساكنة برهة تنتظر جواباً لكنه لزم الصمت وقد تنازعت الرغبة في الإقبال عليها والفرع من ازعاجها . حينئذ سمعها تستأنف سيرها ولم يلحق بها تواء تاركا المسافة التي تفصل بينهما تزداد بين ثانية وأخرى .

شق عليه تقديم دليل الطاعة ذاك . فقال في نفسه إنه سيعد حتى الثلاثين قبل أن يواصل سيره . إلا أن وقع الخطى تضاعل فجأة على نحو سريع حتى انتابه القلق فتساءل : ترى هل ستهرب منه أو تختبئ حتى تستهزئ به . ومع ذلك لم يأت بحركة ، بل أحس فجأة وهو يعاني من مرارة الانتظار ، تلك المتعة الغريبة التي يشعر بها المرء حين يكبح جماح اندفاعه .

راودته فكرة غريبة . هل من يمنعه من الرجوع نحو المدينة والعودة الى بيته ؟ ورأى نفسه يقوم ، مدفوعاً بنزوة فكرية كذلك التي تنتاب

ذوي الطبيعة السوداوية ، بما هو معاكس لرغبته تماماً ، فيدير ظهره لتلك الفتاة التي تلاشت خطاها الآن وسط الصمت . وتخيل نفسه عائداً الى غرفته التي أبعدته عنها الكتابة والرغبة منذ الصباح . وأحس في توالي تلك الصور بشيء قاهر سبب له اضطراباً . أياكون قادراً حقاً على التخلي عن تلك المغامرة إذا ما أراد ؟ وما الدافع وراء تلك الفكرة الحمقاء حتى برزت في ذهنه ؟ كل المقصود حقاً توالي طرح الاسئلة بينما تكون الدهشة قد استولت على تلك الفتاة لعدم سماعه قادمًا ! وتراءى له أن عقله انتزع منه بعض الوقت ثم أعيد اليه فجأة ، فشرع يركض وقلبه منقبض فرعاً من أن يكون قد أطل الانتظار ، فلا يجد على الدرب من أحد .

واخذ وقع اقدامه على الأرض يدوي في رأسه دوي صدمة تصيب صدغيه . وركض بسرعة أكبر حتى أدرك الفتاة بعد بضع ثوان . بدت مفتاظة ...

قالت : كنت تستحق أن اتركك وأنصرف . قلت لك فوق المعبر .

كان يلثت ووجهه قريب جداً من وجهها . وميز نظره المتعطش خديها الأبيضين وعينيها في عتمة الليل . فضحك بشيء من الارتياح .

ثم أوضح قائلاً بصوت لاهث : حسبت أنك هربت ، فجريت .

ورفعت كتفيها :

— كنت متمسكاً جداً بهذا الموعد ؟

فقال وهو يمسك بأصابعها : أما كنت إذن تعرفين ذلك ؟ الا تصدقيني اذن على الاطلاق ؟

سحبت يدها منه بحركة مفاجئة ومشت بضع خطى الى الامام .

قالت : لا ينبغي لنا البقاء هنا . قلت لك إن ذلك خطر .

تبعها من فوره وسارا معا في صمت . وحين أصبحت على مقربة من المعبر أمسك بيدها بقوة وقال لها :

— ماذا عليّ أن أفعل كي أروق لك ولكي تكوني لطيفة بي ؟

فبدت لهجتها رقيقة وهي تجيبه قائلة :

— لست أدري . عليك أن تجد تلك الأشياء بنفسك .

ظل الرجل صامتا . ثم شد فجأة على معصمها بقوة أكبر :

— قولي لي ، لم تخشين اللقاء بأحد ما على قارعة الطريق ؟

فأجابت دونما تردد : لأنني لا أرغب أن يعرف أحد أنني أضرب المواعيد .

فقال بغضب : مواعيد معي ؟

— أجل ، معك .

— أما مع الآخرين فليس الأمر بذي بال ، ليس كذلك ؟ أما معي ، فالخجل ينتابك بلا أدنى شك .

فرفعت الفتاة نحوه عينيّين ملؤهما الدهشة والغضب . وكانا قد وصلا الى جانب مصباح فتوقفا فجأة وكان البقعة الكبيرة المضيئة قد أمسكت بهما .

وسألته : مع آخرين ؟ وماذا تقصد بقولك ؟

أما النظرة التي رمقته بها فجعلته يفقد ثقته بنفسه ، فاحمر وجهه .

— أقصد أنك لا تريدين أن يعرف أحد أنك تقابليني .

لماذا ؟

— ليس لي أن أجيب . فانت تعرفين خيراً مني .

— وهل اعرف ما الذي يجول داخل رأسك ؟ قل لي لم تطرح علي كل هذه الاسئلة والا انصرفت من فوري . فانا لم آتٍ لادخل في نزاع معك .

فتنهذ وقد أميته رعونته :

— لا تنصربي . فانا اخطات .

فقالته بلهجة ازدراء : إذا كنت قد جئت بي الى هنا من أجل أن تعنفني فإني أؤكد لك أنك لن تراني هنا من بعد أبداً .

فاطرق برأسه وقال بلهجة عذبة :

— لا ينبغي لنا البقاء هنا ، مادمت لا تريدين لأحد أن يرانا . هيا بجهاز المعبر .

فسألته من غير أن تتحرك : إلى أين نذهب بعدئذ !

نظر إليها الرجل من قبل أن يجيب ، محاولاً أن يتبين سلفاً وقع كلماته . وارتسمت ابتسامة وجلى على شففيه وهو يقول :

— كنت سأعرض عليك العشاء بصحبتني .

وضحكت .

— العشاء بصحبتك ؟ وأين ؟

فاشار بيده نحو الريف الى الجانب الآخر من الخط الحديدي .

— في لورج .

— هذا مستحيل . فالمكان بعيد جداً .

— بوسعنا أن نركب القطار . سوف يمر بعد خمس دقائق .

لكنها هزت رأسها .

قلت لك اني لن أتعشى معك .

— لماذا ؟

— الامر يتعلق بي .

— هل أنت مستعجلة للعودة الى المدينة ؟ هل ستخرجين هذا المساء ؟

قالت متبرمة : لن أجيبك . قبل قليل كان لديك كلام ستقوله لي . قل لي ما تريد ودعني أعود . فقال متوسلاً :

— لا يسعني التحدث اليك هنا تحت هذا النور . لنذهب الى الناحية الاخرى من المعبر . هل توافقين ؟

ورضيت أن يمسك بيدها وهي تدلل بتنهيدة منها أن ذلك المعروف ينبغي أن يحسب حسابه . ولم ينس أي واحد منهما ببنت شفة الى حين اجتيازهما المعبر .

قال بلهجة تنم على مرح كاذب : الست خائفة مني على الأقل ؟

— كلا . لكنك تطرح علي أسئلة مضحكة !

— أما ان تكوني غير خائفة مني ، فلا يعني أنك تستمتعين بصحبي اليس كذلك ؟

وأدرك في ومضة اشراق أنه يتحدث على ذلك النحو لأنه لا يدري
ماذا يقول ، وأن كلماته الحمقاء تقلل من قيمته في نظر الفتاة . ولم يدفع
بها إلى أن تقول له : « كلا ، اني لا أستمتع بصحبتك ؟ » فأضاف بسرعة
يقول :

— والامر على كل حال ليس بذي بال . كل ما أريده أن تكونني
مسرورة وسعيدة . هل تسمعين ؟

ولم تجب .

فقال وهو يبحث في إحدى جيوب صدارته : هاك ، لقد جئتك
بهدية . كنت أنوي إعطائك إياها فيما بعد ، لكن ما دمت في مجلة من
أمرك .. انها خاتم . انظري .

فكررت بفضول : خاتم . آه ، ما أجمله !

وودت أن تأخذه ، لكنه توقع تلك الحركة فاحتفظ به بين ابهامه
والسبابة .

كان خاتما فضيا مزينا بقطعة صغيرة من الياقوت .

قال : دعيني على الاقل أضعه في أصبعك .

ومطت شفيتها بنفاد صبر .

— كما تشاء .

عندئذ اقترب منها وأمسك بيدها ، لكنه كان يرتجف بشدة حتى
انه لم ينجح في الباسها الخاتم .

قال في نفسه وقد أفرغه ارتباكاه : « علي أن اقبض على ذراعها
وأضمها الي . قد تدعن الآن . أما فيما بعد فلن توافق » .

وفجأة داخله اليأس فقال على نحو مباغت :

— اليك هذا الخاتم ضعيه بنفسك .

ودهشت من لهجته فرفعت نظرها اليه ، وانتابتها الشفقة لرأى
الاسى على وجه لم تعد الرغبة تشع فيه فأمسى لا ينم الا على التعب
والضنى .

ثم رفع كتفيه وهو مخدول وقال :

— ارى بوضوح أنك لن تحبيني أبدا .

ولم تجب بشيء . فداخله الامتنان لصمتها القاسي من غير شك . لكنه
دون قسوة كلامها . ثم اجتازا المعبر ثانية وبلغا مدخل المدينة من دون
أن يتبادلا كلمة ما . وحينما كان يوشك أن يتركها توجه نحوها بابتسامة
قائلا : « إلى اللقاء غدا » .

واجتاحه انفعال عنيف امتزج فيه الفرح بالحزن فمنعه من أن
يشكرها ، لكنه تابعها بنظراته الى أن توارت عن ناظره .

* * *

- ٣ -

بينما كان ذلك الحوار دائراً ، وعلى ما يقرب من ستمئة متر هناك ، كانت مدام جورج لوند تفكر ملياً وهي أمام مرآتها ، بانتظار نحين الساعة لتدخل قاعة الطعام . ذلك شكل من أشكال الطقوس الاحتفالية ، ولا يمكن أن يجري من غير استعدادات معينة . ومام لم تعد فتية ، لكنها تحافظ على اناعتها نفسها منذ ان كانت في الخامسة والعشرين . فلا يسعها الظهور أمام زبائننا قبل أن تفقد على جما الداوي كل أشكال الدم من حمرة ومساحيق .

كانت جالسة في حجرة صغيرة قائمة بين بابين فتصلح كحجرة خد وغرفة زينة في آن معاً . والواقع أن المرء يشاهد فيها طبقة (١) من الخشب الابيض ملاصقة للجدار ، كما يرى منضدة زينة مطلية بدهر وردي صارخ تحت المصباح الفازي المتدلي من السقف . وتردان تلك المنضدة بمرآة بيضوية الشكل كانت تعكس منذ ثلاث أو أربع دقائق و سائناً ذا عينين فطنتين .

أبة أفكار تدور في خلد تلك المرأة ، فهي لا تبدو سعيدة أو تعيس وبدت في انحناءتها القليلة الى أمام وكفاها تستقران برخاوة فوق فخف مثل من يشاهد مسرحية . أما نظراتها الشابة فتنتقل من جبينها الضيق المحاط بصفائر كستنائية الى الفم الحازم بزوايته الهابطتين . (١) ابتسامة مدروسة بعناية تتولى اصلاح ذلك العيب أمام الناس) . بعد انتهاء الجولة حول الوجه فان العبنين تعودان لتستقرا على

(١) قطعة دياش توضع عليها الاطباق وادوات الطعام .

العينين . او رأيتهما لقلت إنهما تسعيان لاختراق هذين البؤبؤين
الأسودين ، حيث رسم 'لتور نقطتين صفراوين ، لشدة ما في نظرتهما
المتفحصة من الحاح يقارب سوء النيات . وتطبق الأجفان بين لحظة
وأخرى ، وهي أجفان سمر داكنة بفعل 'السهر' ، ثم تنفتح على النظرة
'النافذة ذاتها' .

كانت ثيابها من الحرير الأسود . فجذعها متدود بصدار يضيق
عليه الخناق حتى العنق ، لكنه يترك للمعصمين البضين الممثلين كامل
حريتهما عند طرفي كمين مخرمين فضفاضين . وينم الحجر الكريم الذي
يزين خاتما في الاصبع والمُسبك الالماشي المنبت عند أعلى الصدر على
حرص على الاناقة ، لكن رتوقاً في الثوب عند الخصر شكلها قبيح وعددها
أربعة أو خمسة تشي بأوقات عصيبة وضائفة يصعب أخفاؤها . فلون
المنضدة الوردي يشكل مفارقة حادة مع المظهر لبائس والكئيب لتلك
الامتعة المهترئة وذلك الوجه القاسي . فقد بدا وكأنه لطخة مضيئة داخل
لوحة معتمة ، ووضعت فيها بدافع السخرية أو لتبرز حدة التناقض
وعنف الطاقة الكامنة في الرسم .

دقت الساعة لتنتزع مدام لوند من تأملاتها . فانتصبت وانتظرت
انتهاء تجارب الدقات السبع داخل صمت الحجر قبل أن تنهض . عندئذ
لمعت ابتسامة فاضاءت قسما وجهها وبشت في عينيها حيوية مباغتة .
وبدت تلك المرأة كأنها صحت بعد أن كانت مخلوبة اللب وأنها استيقظت
من نوم سحري فعادت لاستئناف حياتها . ومسحت بحركة سريعة من
يدها على شعرها الملتف في مؤخره رأسها ثم ألقت نظرة أخيرة على
صورتها في المرآة وتوجهت نحو باب قاعة الطعام .

لكنها لم تدخل القاعة من قبل أن تنحني عند حاجز واق وضع
لدى الباب ، لتلصق عينها بشق في القטיפه الحمراء التي تغلف الحاجز .
وكان بوسمها على ذلك النحو أن تشاهد كل من في المطعم ، كما يفعل
القيم على مسرح حين ينظر من ثقب في الستارة فيتحص وضع المشاهدين .

ومكنت وقتاً ما وهى على تلك الحال مقوسة الظهر مع انثناء خفيفة في الساقين ساكنة مثل وحش ينحفر للوبوب . وتشيح بوجهها أحيانا وهي تخفق تنهيدة تم يعود وهي غير قانعة بما رأتها عينها اليسرى فتوكل لليمنى مهمة بحث اضافية فتطبقها على فتحة السق بعد أن تكون قد وسعته برأس بناتها .

وأخيرا تفادر مرصدها وتدخل القاعة فتخطو ثلاث خطوات لترتقى منصة فوقها شبه مكتب تستقر في جلستها وراء كل مساء . وتشرف من مكانها ذاك على قاعة كبيرة طويلة ضيقة يمتد فيها رتلان من ست موائد صغيرة دفعت للملاصقة الجدار . وقامت في وسط المشى مائدة بيضوية كبيرة يمكنها أن تستوعب اثني عشر شخصا جلوسا . وإذا ما سرت مدام لوند النظر بعيدا ، الى ماوراء باقة كبيرة من النباتات الشتوية المترتبة في وسط المائدة الرئيسية ، رأت الشارع عبر باب زجاجى مكتوب عليه اسمها بحروف مقلوبة .

نسابت أصابع يديها فوق رخام المكتب . ماتزال القاعة الان فارغة . فالساعة هي السابعة ومدام لوند لا تجلس هناك الا لتكون قدوة لربائنها في دقة تقيدها بالمواعيد . وهي تعرف في الواقع حق المعرفة أن شرائح اللحم تسمي بعد السابعة والربع أكثر جفافا وتصير الخضار المطهوه هشة جدا . وإذا كان الاعلان المعلق على الجدار يحدد ساعات الوجبات فان ذلك لا يحول بين الناس وبين وصولهم متأخرين . وصدرت عنها زفرة عميقة حملتها نفاد صبرها وتمتت :

« ليمَ لا يابون ؟ » قالتها بلهجة ذلك المشاهد الذي ينظر الى الستارة مسدلة فيتساءل : « ليمَ لا يبدؤون ؟ » لكنها لا تجهل أن ذلك يحصل كل مساء . كان حلول الساعة السابعة وبضع دقائق يياغتها كل مساء وهي في مرصدها وراء الحاجز . لقد اكتسبت عادة التطير تلك حين جاء زبونان ذات يوم على غير علم منها ، ومن قبل أن ندخل الى القاعة . وعليها بعدئذ أن تعاني اليأس والملل ربع ساعة ، بل طوال

ربع ساعة بحالها ، تكون يداها العاطلتان قد قامتا أثناءها بازاحة باقة الازهار الصفرة ، التي تزين مكتبها ، عشرات المرات ، تارة الى اليمين وطورا الى اليسار . وبتحريك دفترها السميك الاسود الذي كانت تفتحه بم تطبقه بحركات مباغتة اكثر فاكتر . فهي لا تجيد الانتظار ولم تحاول يوما ان تعرف كيف يتدربون على الصبر . لكن لم لاتعمد الى تبديل موعد العشاء مادام الكل يصلون متأخرين ربع ساعة بصورة دائمة ؟

أتكون قد أجابت في نفسها على مثل هذا التساؤل وهي تصفق دفتي دفتر حساباتها فوق رخام المكتب ؟ هل نمة ما يستوجب اضافة خمس عنرة دقيقة الى بهار طويل طويل أمضته بالبكاء ؟ كلا . لكنها أعلنت ان المطعم يفتح بابه في الثانية عنرة ظهرا والسابعة مساء . وكلما كانت الساعة الثانية عنرة ظهرا والسابعة مساء ، تكون هي هناك وراء مكتبها .

أخيرا مالت برأسها ، وقد عيل صبرها ، ناحية الحجرة التي انجزت فيها العناية بهندامها قبل قليل وصاحت : « يا غريغوار ! » فرد عليها صوت من بعيد : « هالاندا » وسمع صرير باب يفتح .

فقال مدام لوند « هات الحساء » ، من قبل أن تنتظر دخول الشخص الذي نادته الى القاعة .

كان الايعاز يجلب الحساء ملاذها الاخير والوسيلة التي تستخدمها حين يتغلب عليها اليأس . اذ ينراى لها أن ذلك « يجتذب الزبون » على حد تعبيرها . ذلك انها لاحظت مرارا وتكرارا أن قدوم النادل وهو يحمل الحساء يتوافق وقدوم تاجر الحبوب المسيو غونسولان الذي كان يتناول وجباته عندها والذي كان على نحو عام أول من يدخل الى المطعم . لكنها كانت ترتعد خشية أن يأتي يوم تثبت فيه العملية السحرية عدم جدواها ، ويصل صاحبها تاجر الحبوب متأخرا مثل الآخرين

وان تفقد النقطة . لذا لم تكن تلجأ الى هذه الوسيلة الا حينما يوشك صبرها أن ينفد .

اسندت وجهها الى كفيها ، ومرفقاها معتمدان على المكتسب وأخذت تصغي وهي في وضعها ذلك الى وقع الخطى تروح وتغدو داخل المطبخ . فبدت كأنها ترفع الى السماء امامة (١) تلك الدقيقة الاخيرة من الانتظار . وليس من طائل وراء الطلب الى النادل أن يسرع . لان جل ما يتمناه هو الانتهاء من عمله بأقصى ما يستطيع من السرعة ليمضي فيتسكع في المدينة . وهكذا مادامت مدام لوند لا تملك أن تجعل المسيو غونسولان يصل في الوقت المحدد او يتأخر عنه ، فلامناس من تركه 'الامور تسر على هواها .

وبفتة ازاح يدبها ونظرت امامها . لقد فتح الباب ودخل احدهم . لكنه لبس باجر الحبوب ، بل رجل لم تقع عليه عينها من قبل البتة . وهاموذا يرفع مبعته ويجلس . ولم تصدق ما راته عينها ليقينها الراسخ بأن المسيو غونسولان سيكون اول الداخلين الى مطعمها . واخذت وهي في غمرة انفعالها من المفاجأة ، تتفحص الغريب بنوع من التمعن حتى رفع نظره بدوره وتأمل مدام لوند وكأنه توقع أن تبادره بالكلام . وحينما رآها تلوذ بالصمت ويحمر وجهها فجأة ، غص الطرف وسط فوطة الطعام .

شعرت مدام لوند بنبيء من الارتباك والدهشة التي بدت على محياها وفالت في نفسها ان ذلك الرجل قد وجدها حمقاء حقاً . لكن اضطرابها لم يكن كبيراً ليحول دون ملاحظتها عشرات الملامات الفارقة والتفاصيل في قسَمات الغريب وشكله وتسريحة شعره . بل ان عينها الخبيرة رأت فيه مادة تكفيها لتفسيرات وتأويلات شتى . وحاولت أن تنلافى بصرها الاخرق ، فتصنعت مظهراً من اللامبالاة وبدلت موضع

١ - الامامة ، التي بعض المذاهب ، تعذيب الجسد تقرباً الى الله ولتبع الشهوات سم .

دفترها الاسود تم موضع اناء الازهار . كان الرجل حسن الهندام . من أين جاء يا ترى ؟ اذ لا يمكن ان يكون مسافرا بقصد التجارة : فهي تعرف أبناء هذه المهنة حق المعرفة وهيئات أن تخطيء . وهو فوق ذلك لا يرتدي معطفا ولا يحمل حقيبة ، لكنه ليس أحد أبناء البلدة . قد يكون أحد القادمين حديثا الى لورج أو سانتيليا . وجعلت هذه الفكرة قلبها يثب من موضعه . فلاربعة اعوام خلت ، قدم رجلان على هذا النحو للاقامة في سانتيليا . وهي تذكر أن ما انتابها يوم رأتها أول مرة في المطعم كان مماثلا لانفعال هذا المساء . فقد شاعت غرائب المصادفات الا يبلغها نبأ وصولهما ، وهي التي تعلم في العادة كل شاردة وواردة قبل الجميع . فالاحداث المباشرة تلحق بالنساء ، اللواتي يسيطر عليهن الفضول مثل مدام لوند ، اهانة بل خزبا لا يقل عما ينتاب المراقب في برج منارة من مهانة اذا ما عبر مركب من غير أن يلحظه .

وبعد دقائق سادها مزاج متعكر ، تجلى في تحريك متواتر لانياء الازهار الصغير يمنة ويسرة ، راح يفارقها الاحساس بما ينسبه شيئا من النقمة على نفسها ، فتسابكت اصابع يديها فوق رخام المكتب ورفعت راسها مجددا لتلقي على الغريب نظرة طويلة . كان يرتدى بزة رمادية . ويتدلى منديل بنفسجي اللون من جيب سترته العلوي . انه يحني راسه من وقت لآخر ليرفع الى فمه ، وهو في حالة من شرود الدهن ، قطع الخبز الصغيرة . لكن هذا الرجل لم يكن في تصور مدام لوند مثل أي مسافر عادي جاء ليجلس نصف ساعة امام مائدة أحد المطاعم . بل كان رجلا تجهل عنه كل شيء . لذا بات في نظرها ذا أهمية استثنائية . ولم يبق امامها الا القليل حتى نعهده عدوا لها ، وما ذلك الا لانه يعرف أشياء وأشياء لا تخطر منها على بال . فاسمه وعمله وحياته تهمل مجموعة من الاسرار بودها لو تنتزعها منه ليست الكتابة البادية عليه ، وصمته المتعالي تحديدا سافرا لتطفلها ؟

لا جرم أنها رأت فيما مضى زبائن كثيرا يجلسون الى تلك المائدة وكلهم ، أجل كلهم تقريبا ، بادروها بالتحبة وهم داخلون ، وطالعوها

بابتسامة أو بكلمة رقيقة . وفيهم الذين لم يعرفوها من قبل . ومن شأن ذلك أن يفسح المجال أمامها لتسريب أسئلتها ضمن مجرى الحديث الذي يمكن أن يدور بينها وبين الزبون حين يتقدم الى الصندوق لتسديد حسابه .

تلك هي الطريقة المتبعة في مطعم لوند . وإذا كان النادل يتولى توزيع قوالب الحساب عند انتهاء الوجبة ، على نحو ما هو متبع بشكل عام ، فإن الزبون لا يسدد حسابه في النهاية الا للمعلمة نفسها . أما فوائد هذه الطريقة فعديدة ومتنوعة . لأن مدام لوند الجالسة في عليائها فوق ما يشبه كرسي العرش ، تتمتع بكامل راحتها كي تبتسم بحرية ، ونسفسر ، بل وتبدى فتنتها حين تجد الفرصة مواتية . أما الطرائق التي تعتمدها فتجمع المراوغة والانفة في آن معا ، فتفقد على السامع كلاما غير ذي معنى على نحو ما يسمع من أفواه الملكات وترد اليه بقية نفوده بمظاهر من السخاء . لكن تلك المظاهر الكاذبة ذات جدوى على الدوام تقريبا . فالفريزة تقود هذه المرأة على نحو مدهش فتستنفد قواها لتروق في أعين من حولها قصد أن تعرف .

وإذا لم تكن تتمتع بكل ما ينسب الى بنات جنسها من حس مرهف، فهي تجيد ما ينبغي قوله وما يلزم عمله لتنال حظوة لدى الزبون وتقتنص منه الوعد بالرجوع ثانية . وتتضافر جهودها كلها يوم يظهر أمامها قادم جديد . فتلجأ الى سلاح السعر المعتدل وبعض التسهيلات المخادعة في طريقة التسديد لانجاز المهمة . ونمة في الواقع فارق إضافي بين هذا المطعم وأمثاله في باريس . فبوسع المرء على سبيل المثال أن يفتح فيه حسابا على نحو ما يفعل لدى البقال أو الصيدلاني . وأضحت مدام لوند تعرف ، بعد خبرة عمرها اثنا عشر عاماً ، أن من يصبح مدينا لها بعشر وجبات أو بخمس أو بثلاث فقط يمسى وقد وقع في الفخ . أي يصير من زبائن المطعم بشكل حاسم ونهائي .

لكن كيف السبيل الى اجتذاب انتباه امرئ لا ينظر اليك بل لعله لا يحس حقاً بوجودك ؟ وما الذي حدا بذلك الاحمق ليأكل الخبز على هذا النحو من غير أن ينتظر وصول الحساء ؟ وبم عساه يفكر ؟ ألا تحس جبهته وكنفاه بوقع النظرة القاسية التي لا تحيد عنه ؟

هاهي ذي قد استعادت الان صفاء فكرها فسعت إلى أن ترسم على قسماتها وتضع في عينيها كل السلطة التي تقدر عليها . لكن أبة فائدة تجتني من ذلك ؟ من الواضح ان هذا الرجل بعيد عن مطعم لوند كل البعد وأنه يفكر في شيء مغاير تماماً . وشدت بقبضتها على دفترها . هل سيتكلم في نهاية المطاف ؟ ألن يطلب شطيرة أخرى من الخبز بعد أن يأتي على تلك التي في يده ؟

لكن لم يكن ليخطر ببال الغريب على ما يبدو شيء من نفاد الصبر الذي كان قلب المعلمة يروح تحت عبئه . وأوشكت مدام لوند بسبب مرارة الخذلان ان لا تلاحظ وصول تاجر الحبوب الذي أدى لها التحية بتلويحة عريضة من قبعته وعلى مرحلتين حسب الطريقة التي لم تعد متبعة إلا في المناطق الريفية . فأحنت رأسها وقالت بصوت جعله الغم يرتعش قليلاً :

— طاب مساؤك يا مسيو غونسولان .

وقالت بجفاء للنادل الذي دخل حاملاً إناء الحساء :

— هيا اسكب للسبد الجالس في الأخير !

الا كم كانت تودّ لو تعرف اسمه من أجل أن تقول :

— هيا احمل الحساء للسيد فلان ، فقطاره سيتحرك في الساعة

كدا !

لكنها ، بدلاً من ذلك ، أضافت غاضبة وقد استبد بها الغيظ بسبب ما تعمله من جهة ، وبسبب إمارات الدهشة التي بدت على النادل :

— قلت لك هيا ! الا ترى أنه اتى على شطيرة الخبز كلها !

. بدا الزبائن الآن يتوافدون من غير انقطاع فالباب لا ينغلق الا لينفتح
توآ . وكل هؤلاء الناس يسلمون على المعلمة ببشاشة يمازجها احترام .
وتقوم هى بإغداق التحيات يمنة ويسرة ، مثل ملكة جالسة في عربتها ،
وقد أطربها كل هذا الاهتمام الذي أحيطت به فبدأت تطيب نفسها
وتتعزى شيئاً فتيئناً .

. أحدث دخول الأشخاص العشرة أو الاثني عشر وجلسهم الى المائدة
ضجة وصخباً بسبب تحريك الكراسي من مواضعها . أما سرعتهم في
اتخاذ أماكنهم فتدل على أنهم جميعاً من رواد المطعم . فلقد ملأ لفظ
أحاديثهم القاعة بالدمدمة العميقة المتواصلة الصادرة عن خلية نحل .
كان يدور حول المائدة الكبرى نادلان لتوزيع الحساء وعلى صدر كل
منهما مريلة بيضاء .

وتألفت مدام لوند منشحة الصدر وسط جلبة يختلط فيه اللفظ
بضوضاء الملاعق والصحون . فحياتها تتخذ معناها في هذه الدقيقة .
لأنها تعيش من أجل أن ترى تلك الظهور المقوَّسة والرؤوس المطرقة
أمامها ، بل تحت قدميها الى حد ما . ويمكن القول إنها تجد في تلك
الهيئات صورة من صور الخضوع . وعدت الزبائن بصوت خافت :
عشرة حول المائدة الكبرى وواحد جالس وحده عند المائدة الصغيرة
قرب الباب . الا كم تضاءلت أهمية هذا الأخير في اللحظة الراهنة !
فقبل قليل كان يهبطها لأن وجوده في القاعة الفارغة بدا على شيء من
الاستفزاز ، لكن مادام العدد قد اكتمل حول المائدة الكبرى ، فقد بات
متوارياً في ركنه .

وأغمضت عينيها نصف إغماضة كأنها تريد أن تستمتع على نحو
أفضل بذلك الطنين المتصاعد من حولها . وميزت وسط ما يسود
المشاة من هرج ومرج ، صوت السيد غونسوالان بنبرته الشخينة وهو
يسرد بتبجح قصة صفقة رابحة عقدها ، والصوت الأبح للسيد باريرييه

القصر القائمة وهو يتحدث في السياسة والسيد ليون وهو يرد عليه
مغمغماً ، والسيد موريسيتيل وهو يجادل ابن بلوندو والسيد تربيت
ذي الحديث العذب وهو يروي قصة طويلة حول صاحبة منزله الأنسة
كلارافون . عندئذ هزت رأسها تعبيراً عن الرضى والتسامح : فهي
تعرف هؤلاء الناس حق المعرفة ، نعرف مساعدهم ومغامراتهم الصغيرة
وهمومهم وديونهم وما يملكون . ولا يبدو أن في حياتهم هنيهة واحدة
فد أفلتت منها ، إذ كانت تدورهم فتطرح عليهم أسئلتها حين يأتونها
لتسديد التزاماتهم . فبزودها البعض بمعلومات عن البعض الآخر .
والواقع أن جزءاً كبيراً من مهافتها كان يتعلق بطريقة إحاطتها بالمعلومات .
فليس من يتذكر مثلها كل أشكال الفضائح أو يعرف كل خفايا البؤس .
وأما ذاكرتها فلا يفوتها شيء ، بما في ذلك آلاف التفاصيل الصغيرة التي
نحرص عليها كشيء ممين فتتلفها ذات اليمين وذات الشمال في عملية
تجميع يومية ، لأنها كلها يمكن أن تكون ذات فائدة .

وبعد برهة من الزمن فتحت عينها مجدداً ورفعت رأسها . لقد
خطرت ببالها فكرة . إذ تذكرت أنها أحيطت علماً في الصباح بسفر أحد
زبائننا إلى مدينة مجاورة . ومن أجل أن تظهر أنها تحيط بكل شيء
علماً ، ومن أجل أن تبين أنها « تعرف » ، قالت على نحو مباغت
وبصوت جهوري طغى على جلبة المائدة كلها :

— أراهن على أن المسيو تربيت قد ذهب صباح أمس إلى شامبريكور
لشراء قبعة جديدة .

فران صمت قصير واستدارت نحوها كل الرؤوس ، وهتف السيد
تربيت السمين بعد أن خفت دهنته الأولى قليلاً :

— هذا صحيح حقاً يا مدام لويد . وإذا ما رغب المرء في أن يخفي
عنه شيئاً فسوف يلقى أشد العناء .

وقهقه أولئك الرجال ضاحكين وحولوا انظارهم صوب المنسجب
حيث بدت بين القبعات الرنة الباهتة واحدة غامقة كأنها تخجل من
وجودها في صف زميلاتها . وغمرت قلب مدام لوند بعض الوقت سعادة
لا مثيل لها . وتألفت وسط ضوضاء الاطناب مثل نبتة غمرها النور .
ففححت دفترها الأسود وتظاهرت بالقراءة متصنعة اللامبالاة بينما
يخفق قلبها مفعما بالفرح . أما ذلك المستقر في ركنه البعيد فقد رآها
هذه المرة وسمعها . ولم تفتها ومضة حيرة برقت في عينيه . لعله يعرف
الآن حقيقة المعلمة وانها امرأة ذات تأثير وسطوة ، تجيد محاوره
الرجال . وأن عينها تحيطان بكل شاردة وواردة . ومدت يدها وقد
امتلات نفسها بالرضى ، فازاحت إناء الازهار الى اليمين قليلا ، بحركة
الفوز التي يقوم بها لاعب الشطرنج حين يزيح قطعة تربك تفوق الخصم
وتحول نصره الى هزيمه .

الحق انها لا تستطيع التباهي منذ الآن بفوزها في الجولة ، لكن
بات واضحاً أن كلمتها قد فعلت فعلها . فبدأ الرجل كمن آب الى نفسه
واستعاد حواسه بفتة فاخذ يوجه صوب مدام لوند نظرات حائرة لرجل
مشدوه يقظوه من نومه على نحو مباغت . وتهللت فرحاً لمراى امارات
الدهول التي جاءت لتثار لها مما كانت عليه قبل قليل من انكماش
وارتباك . فقد آن أوان شن الهجوم . إذ لا ينبغي أن تدع للعدو وقتاً
لاسترداد أنفاسه . وحين مر أحد النادلين على مقربة منها مالت صوبه
قليلاً وقالت بسرعة :

— دع عنك وعاء الحساء واذهب الى السيد الجالس في الأخير ،
واسأله إن كان راغباً في أن نحجز له مكانه وفوطته . تصرف بكياسة .
ليس كذلك ؟

لكن ما كاد النادل يدير ظهره حتى انتابها شعور بأنها ارتكبت
خطيئة فأوشكت أن تستدميه . كيف سيقوم غريغوار السميع هذا
بانجاز المهمة الموكلة اليه ؟ قد يكون من الافضل انتظار قدوم الغريب

ليسدّد حسابيه . فثقتها بالنادل ضئيلة جداً . إلا أن شيئاً ما ظل يمنعها من التدخل : فهي تريد أن ترى ماذا سيحصل وتريد على الفور أن تعرف . فالتطفل الجنوني المتعاطف كان يدفع بها دفعاً نحو ذلك الرجل . وأمسست منذ لحظة لا تشاهد أحداً سواه ، جالسا بمعزل عن الآخرين كأنما هو راغب في التفرد عن باقي الزبائن واجتذاب انتباهها . هل اختار الجلوس في مكان ناء عن الآخرين لو لم يكن راغباً في إثارة غيظها ؟

وبدا لها إن النادل تعتمد التثاقل في مسيئته وأنه دار حول المائدة الكبرى ببطء شديد . فمدت رأسها إلى أمام لتتابع هذه الرحلة التي بدت بلا نهاية وانتصبت قليلاً وهي عاجزة عن احتواء صبرها النافذ . أما حين بلغ غريغوار المائدة القريبة من الباب فقد أصاحت السمع عليها تلتقط ما يقال ، لكن بلا طائل . وتطيرت مع ذلك من هيئة الدهول التي بدت على قسماط الغريب فتمتعت عدة مرات بلهجة غاضبة : « يا للابله ! يا للابله ! » من غير أن توضح أكثر بأي الرجلين ينبغي الصاق هذا اللفظ . وأدركت أن الغريب استنفهم ثائية ورائته من ثم ينهز بكتفينه أعراباً عن جهله .

أغمضت عينيها خجلاً ولم تفتحهما إلا حين أصبح غريغوار أمامها .

— أجل ، ماذا قال لك ؟

— قال إنه سينتظر نهاية العشاء حتى يجيبني فجهرت له مدام لوند بالقول لتجعل كلامها مسموعاً :

— بكل تأكيد . فهذا السيد على حق لأنه لا يريد أن يكون رابياً عن الطعام قبل أن يتذوقه . فهل كلفتك بأن تذهب لتطرح عليه أسئلتك الآن ؟

وغضت من صوتها لتضيف بلهجة متوعدة :

— اياك أن تتفوه بكلمة . هيا انصرف . عد الى المطبخ . يا اك
من غبي !

لم يتابع الحضور من ذلك المشهد الا نهايته فكفوا عن الكلام وهم
يرمقون المعلمة بدهشة . فحدجتهم بنظرة صاعقة تم قالت بعده :

— هل للسادة الكرام من حاجة في شيء ؟ شيء من لخبز أو الماء ؟

وا اتخذت من أحدهم ، على غير تحديد ، هدفاً تصب عليه جام
غضبها . مثلما تنتفض معلمة على تلميذ كسول :

— ماذا ينقصك يا مسيو بانسو ؟ أياكون الحساء غير لذيذ ؟ أم أنك
تعرف أماكن أخرى طعامها أطيب ؟

وتشابكت أصابع يديها وتصنعت الهدوء لكن بعد أن خرجت عن
طورها وارتجف صوتها . فمضت تقول :

— أماكن ، أماكن أسعارها أكثر اعتدالا من أسعارنا وتسهيلات
الدفع فيها أكبر ، أليس كذلك ؟ ها أنت مدين لي بست وجبات يا
مسيو بانسو . فهل طلبت اليك مرة واحدة أن تسدد لي حسابك ؟

مسح السيد بانسو ، وهو شاب منزوف رث الثياب ، بأصابعه
زجاج نظارته الذي غشاه بخار الحساء الساخن ، وبدأ كأنه راغب في
النهوض ثم عدل عن رأيه فبقي جالسا . ثم همس قائلا :

— كلا . فكررت مدام لوند من بعده .

— كلا . أنت على حق يا مسيو بانسو . فانا لم أزعج زبونا في
حياتي قط .

كان لتلك الكلمات وقعها وسط صمت كنائسي . فلم تند عن المائدة الكبرى ، وقد حوّم نظر المعلمة المهيمن من فوقها ، همسة واحدة . أي سحر ذلك الذي مكنها من السيطرة على أولئك الطاعمين الاحد عشر وايقافهم عند حدهم حتى غضوا الطرف أمامهم كأنهم تلامذة مدنون ؟ وأية لعبة من تصفية الحسابات لعبتها معهم حتى لم يجرؤا على الاحتجاج على تعنيفها ؟ ان الحسابات الكثيرة المؤجلة هي تمن الخنوع الذي أرغمتهم عليه وليس في ذلك من شك .

واستمتعت هنيهة بما تسببت به من وجوم فتفتح منخراها . عندئذ رأت الغريب ينظر اليها وادركت أنه يتفكر فيما سمعه من كلام فاغمضت اجفانها كيما تسترجع لذاتها مشهد النصر الذي حففته ، وتتأمله في فكرها .

ومضت بضع ثوان من التردد ، تبادل الطاعمون النظر بعدها خلسة ، واطرقوا برؤوسهم على نحو من الإشتراك في الدنب . واعقبت ذلك فترة طويلة ، لم يسمع أنشاءها الا صوت تناولهم آخر ملاعق الحساء .

انتهى العشاء في جو من الكآبة . فحال القلق دون استئناف أولئك الرجال الحديث على وتيرته نفسها فأمسى الكلام المتداول فيما بينهم بصوت خافت ذا طابع من الوجل والقهر . وباتت تلك الامسية بالنسبة لهم من دون طائل . وصار بوسع المرء أن يتبين اتفاقا صامتاً فيما بينهم يحثهم على الاسراع في عشاء لم يعد يحمل لهم أية متعة .

وظلّت المعلمة وهي في عليائها تنقل النظر بين تلك السحنات الخائبة وتدون عدد الاطباق التي تحمل في صمت . كانت بوجهها المتجه أشبه بطاغية يمعن النظر بعد البطش فيما جنته يده . الا أن نظرتها اظلمت أكثر . فهي ستكسب الجولة من غير شك وغريزتها أحسنت إرشادها . ورات بحدسها في الغريب الذي يتعشى عند طرف القاعة كأنها ضعيفاً وتعيساً . وأنه فار من وجه شخص ما أو هارب من شيء ما . وهي عازمة على أن ترغمه بقوة سلطتها فقط على اللجوء اليها . قد لا يكون من ناحيته على دراية بالامر بعد . أما هي فواثقة من ذلك كل

الثقة . وعليه فهي حاليًا غير مبالية . وهذا الواقع بحد ذاته ينبئها بنصرها . ذلك أن من أغرب نزوات طبيعتها فور معرفتها بالسيطرة على فريستها ، احساسها لبعض الوقت بأن تلك الفريسة أضحت غير مرغوب فيها . ولتجديد استمتاعها ينبغي بروز عائق جديد في فترة راحتها كيما تتذوق مجددا طعم الفوز وسط غمرة الكفاح . أي ينبغي باختصار قيام الفريسة بمحاولة للتمرد والتحرر وهذا هو مصدر الازدراء الذي يعمتل في نفس مدام لوند تجاه زبائنها . فهي تمقت خضوعهم ولا تفهم طاعتهم الا بمقدار ما تناضل للحصول عليها والاحتفاظ بها .

مرت سنون وهؤلاء الرجال يأتون لتناول الطعام أمامها خاضعين فتضبطهم كالاولاد وتوبخهم دونما انقطاع . لكن اذا كانت لا تستغنى عن رؤيتهم وهم على تلك الحال من العبودية المعنوية فان روحها المتعطشة لا تلقى داخل فوزها نفسه غير العدم . وهي تتمتع في الواقع بما يقوم مقام الذكاء لدى الاشخاص الموهوبين : انه حدس عميق بالناس والاشياء يسمم سعادتها من غير أن يهبها القوة للتخلي عنه فتغشى نفسها نوبات من الكتابة تتمحق فيها حياتها بكل تمهل .

ايستحق ذلك الغريب الذي يتباطأ الآن في تقشير ثفاحته ، كل ما بدلته من عناء بغية استعباده ؟ أليكون قوام حياتها كله مراقبة الرجال الذين يفشون مطعمها ومنعمهم من الذهاب الى مكان آخر ؟ ويأتيها من داخلها صوت ودت لو تستطيع إسكاته فيقول : « أجل ، تلك هي الإمرة ، إنها التنطع لقيادة رجال أضعف من أن يقووا على مقاومتك ، والتوجه إليهم زجرا مثل قائد لجنوده . وسوف يسلبك الموت ومصادفات الحياة واحدا أو اثنين منهم بين وقت وآخر الى أن يأتي يوم يأخذك الأجل فيه أنت أيضا . بعدئذ يفلقون مطعمك ويبعثرون أموالك ، ويتكلمون بعض الشيء على مدام لوند ، تلك التي كانت تعتمد أسعارا رخيصة جدا ، ثم تمحي ذكراك من كل الحافظات ، وكأنك لم تمر في هذه الحياة » .

وعلا صدرها . ما الذي يجعلها تسعر أنها حزينة جدا على هذا النحو المبالغ ؟ أليست موضع تقدير في المنطقة كلها ، بل مكرمة وذات نفوذ أيضا ؟ فبماذا ترغب علاوة على ذلك ؟ وانتزعها الطاعمون من تأملاتها حين شرعوا ينهضون متوجهين نحو مكتبها واحدا فواحدا ، لتسديد ثمن الوجبة أو لطلب مهلة . وهكذا عادت الى نفسها ، فقست ملامحها ، واسترجعتها مهنتها على نحو تام . الا يريد المسيو غونسولان أن يدفع أيضا ؟ الا يزال متمسكا بمراكمة الديون الصغيرة ؟ لا بد من مقد الحاجبين قليلا على نحو يناسب وخطورة هذا الوضع . يلزم الانتظار هنيئة لتدوين اسم السيد غونسولان في دفترها الكبير . والسيد بلونديو كذلك لا يدفع ؟ لا بأس يا مسيو بلونديو ، لكن حذار ! هنيئة أيضا من أجل السيد بلونديو . ثم أقبل السيد ليون ودفع . وهذه ابتسامة للسيد ليون . والسيد غورش كذلك ؟ نعم ما فعل ! إنها الوجبة الرابعة من غير نبيذ ، أليس كذلك ؟ (بلا نبيذ بسبب العجز المعروف الذي يعاني منه السيد غورش . ومدام لوند على علم بالأمر) . وهذه ابتسامة للسيد غورش .

نعم يا سيد ؟ ذلك هو الزبون الجديد . وناولها قائمة حسابيه . فأخذت الورقة بحركة رشيقة من يدها وهزت رأسها من غير أن ترفع عينيه . وسألته بهدوء :

- هل أوضح النادل الأمر لك ؟
- أجل ، يا سيدتي وأنا أود أن أدفع .
- ما دمت عازما على العودة ، فسوف أبقى حسابك جانبا .
- لكنني لا أعرف هل أعود أم لا .

نفدت تلك الكلمات كنصل خنجر الى قلب المعلمة . فرفعت ناظرها وتفحصت الغريب دون أن تقوى على التفوه بكلمة . أيمن أن تكون قد أخطأت التقدير ؟ وهل سيفلت هذا الرجل من بين يديها رغم كل شيء ؟

فمظهره ينم على شدة وجله ، وكانت قبل هنيهة واثقة من أمره كل الثقة ! ما من شك في أن زلّة لسان غريغوار ، ذلك الاحمق الذي لم يعرف كيف يتصرف بكياسة ، تسببت في هذا كله . كان الواجب يقتضي أن تتولى بنفسها شرح عادات المطعم لهذا السيد (عادت تعتبره سيّداً نتيجة ما أبداه من مقاومة .) أما الخجل خوفاً من تلقي الصدم أمام الزبائن أجمعين فقد تبدت آثاره على وجه مدام لوند . فلو كان يحمل حقيبة على أقل تقدير ، لأدرك الجميع أنه مسافر ، وإن وجوده في لورج مؤقت ، على سبيل العبور . ولكن ما دام لا يرتدي معطفاً ، فدلّيل واضح على أنه يقيم في مكان قريب .

تسببت الإصابة التي استهدفت زهو تلك المرأة بألم شديد لها ، حتى حسبت أنها على وشك أن تنفجر غمماً ، لكن نوعاً من الإلهام جاء فجأة ينشد من أزرها . فنقلّت نظرها واستعرضت بتمهل وجوه الزبائن وقد أصاحوا السمع للمشهد ، فاستعادت الثقة ، لما قرأته على وجوههم من خوف غريزي ، فأخذت الفاتورة التي ناولها إياها الغريب فمزقتها أربع قطع . ثم أعلنت بصوت عال وقوي :

— القاعدة العامة هنا أن الوجبة الأولى لمن يألف المطعم لا يدفع ثمنها أبداً .

وأجالت نظرها مجدداً على وجوه الزبائن وكأنها تتحداهم أن يردوا فلم تبدر عنهم حركة ما . إلا أنهم كانوا جميعاً واثقين من أنهم قد سدّدوا قيمة وجبتهم الأولى عند مدام لوند . بيد أن ذهولهم وفرعهم من إغاطة تلك المرأة أبقيا شفاههم مطبقة . وبحركة غريزية ازداد اقتراب بعضهم من بعض فأحاطوا أكثر بالغريب الذي ظل صامتا . فوجهت المعلمة نحوه كل انتباهها وأضافت تقول بلهجة حازمة :

— أحسب أن السيد لن يبخل عليّ بمتعة تقديم هذا العشاء الأول إليه بصورة مجانية .

ثم استغلت دهشة الغريب والقبول الضمني الذي قرأته في أعماق عينيه ، فتغلبت على انفعالها (ماذا بوسعها أن تفعل بعد كل شيء لو أنه رفض هبتها ؟) وفتحت دفترها بسكل مفاجيء ، وقدمته إليه مشيرة بإصبعها الى صفحة بيضاء . ولن تكون مضطرة على ذلك النحو لأن تسأله عن اسمه فتعترف أمام الجميع بجهل عانت منه الكثير .

وقالت من غير أن تقوى على تمويه رعشة خفيفة في صوتها :

— أرجو أن يتفضل السيد بالتوقيع هنا .

أحست بجفاف في حلقها . لقد أمسك بالقلم . لماذا لا يقوم بتدوين اسمه ؟ هل يوجّه إليها اهانة بحضور زبائن المطعم كافة ؟ لقد ضاق صدرها أخيرا من هذا الرجل الذي يقاومها وطفح بها الكيل . إن لم يوقع فستصفعه .

وقال بعد لحظة من التردد :

— ذلك أني لا أدري متى يمكن أن أعود .

ثم رفع نظريه إليها وبدأ أنه يبحث عن حل لتلك المعضلة في عيني المعلمة . ودقق كل منهما النظر في الآخر بضع نوان . كان الرجل ذا وجه يفيض حزنا ونصبا . ماذا يريد منه كل هؤلاء الناس المحيطين به وتلك المرأة التي بدت كأنها تتملى بالنظر إليه ؟ وشعر كأنه متهم في محكمة أبلغ عنه أمام القاضي حشد من الشهود .

اجابت مدام لوند وهي مطبقة أسنانها :

— حسبي ان أعرف أن السيد سيعود ذات يوم .

قد يكون ارتاع من اللهجة التي قيلت بها تلك الكلمات حتى أطرق
برأسه ووقع . فأدارت المعلمة الدفتر على الفور فألقت نظرة نهمة على
التوقيع وقالت وهي تومئ برأسها :

— الى اللقاء قريباً ، يا مسيو غيرهه .

واستعادت من بم كل قوتها ووقاحتها لتقول بصوت جاف ، كي
تستمتع بالقسوة على جمهورها من جهة ، ولتقدم لزبونها الجديد فكرة
عن سلطانها :

— هيا أيها السادة ، لا تتباطؤوا ! ينبغي إخلاء القاعة في خمس
دقائق . فليس لدي من وقت أبدهه هنا . هيا فليتقدم التالي !

واستراحت في قعدتها وأزاحت بحركة انتصار إناء الأزهار الصغير
ناحية اليسار . فلقد كسبت الجولة .



- ٤ -

حين أغلق غرييه وراءه باب المطعم خطرت فكرة على باله . وهي فكرة مألوفة ، تعتاده منذ سنين في لحظات الاضطراب العنيف : « إنه القدر ! إنه قدري . » وتطمئن نفسه لهذا التوكيد ، مثلما تطيب نفس كل كائن ضعيف حين يجد مصيره بين يدي قوة عليا ، ولو كان سيعاني العذاب ، بل ولو كان سيعلم حياته . ولا يعود له من بعد أن يقرر أي شيء من ذاته . فالاحداث الصالحة أو الطالحة سوف تقع تلقائيا . وما دام تلك المرأة تلح عليه أن يعود إليها فسوف يعود اذن . وهو يرى في ذلك مؤشرا يوحى بأن ارادة غامضة تتحكم بوجوده .

ففي الصباح ذاته استبد به على نحو مباغت فرح بلبد حينما تحسس في جيبه الخاتم المخصص لأنجيل . ماذا لو نجح في مسعاه أخيرا ؟ فالاعتقاد لم يساوره حتى ذلك الحين بأن الأمر ممكن . لانه عندما يرغب في شيء رغبة عنيفة يكون وانقا من أنه لن يحصل عليه أبدا . فالحياة علمته ذلك ، لكنه اعتقد هنيهة قصيرة ودونما سبب بأنه سينجح . فقال في نفسه : « سوف تفهم ولو لم تكن تحبني أنني أعاني أقسى العذاب . » وبدت ساعات القلق الطويلة في نظره ذات نمن بخس إذا ما قورنت بلحظة السعادة وقد لاح له اقترابها .

تذكر الآن ، وقد حل الليل وسعر بوحدته وخذلانه ، ذلك الوهم الذي ساوره في الصباح ، فhez رأسه . وانتابه الاحساس وهو في نهاية يوم على تلك الشاكلة ، بأن أعواما كاملة قد مرت في بحر بصع ساعات ، وأنه أمسى بفتة عجوزا . عندها اغرورقت عيناه بالدموع على نحو مباغت

وهو يتفكر في مرحلة شباب يسرقها منه الزمن . واتخذت كل المغامرات الدنيئة التي خاضها حتى الآن نفس المظهر من الكآبة والرتابة . فاستعاد بحركة طبيعية لديه نفس الصورة التي كان عليها قبل عشر أو اثني عشرة سنة ، وقلبه مثقل بالرغبات ومفعم ذاتيا بوعود عالم يتكشف شيئا فشيئا . فما هو كنه ذلك العالم الذي لمح في حلم عذب ؟ وإلام آل سحر المراهقة ذاك ؟ ها هو لا يجد في الذكريات التي تعتاده الآن إلا مرارة الخيبات الأولى وبؤس واقع شحيح ، وهول الكلمات والحركات ومالاً يعطى ويؤخذ دون كلمة واحدة . ومن ثم الزواج وجروحه وضغائنه ، وما ينبغي التحلي به من صبر للعيش كل يوم بصحبة مخلوق مل صحبته منذ سنين ، والتسميم المتصاعد لحياته كلها .

توقف واستند الى جدار احد المنازل . اذا كان الماضي يمنحه كل تلك الضمانات لتأكيد لاحق فأي خير يأمله في المستقبل ؟ ولم يقول في نفسه إن الحياة قد تحلو بعد عام أو بعد عامين ؟ اليس غيبا مثل غبائه السابق وهو ينتظر ضربة كريمة من حظ تغمره بفرح فائض ؟ وبعد عشر أو خمس عشرة سنة ، حين يمسي عجوزا خائبا ، ألن يقعد يئن ويندب سداخته الماضية كما يفعل اليوم ؟

هبّت الريح بأسى في السوارع المنزوي ذي النوافذ المعتمة ، فأحدثت دمدمة شبيهة بصوت أنساني ، ثم توقفت على حين غرة مثل شخص لم يعد يعرف أين بلغ به السرد من حكايته . لا يمكن أن تكون الساعة قد تجاوزت التاسعة لكن الليل في المدن الصغيرة المنعزلة مثل مدينة لورج ، لا يتعرض لنفس عمليات انتهاك الحرمات التي تصيبه في العواصم فتبهره بأنوارها الساطعة . وعليه فقد بلغ بول غبريه ، وسط الظلمة ، الطريق الرئيسية المؤدية الى شانتيليا .

ولم يفور وهو يجتاز عبّاره الخط الحديدي ان يحبس زفرة . لم يمض غير شهر واحد مذ أن استقر في المنطقة وهذه نفسه تعاف كل ما يراه . وما انقضت عليه إلا أيام قلائل وسط هذا المنظر الجديد الذي

ظن أنه سينسى فيه كل سأمه ، حتى عاد يجد نفسه على مثل ما كان . وضع يده على عارضة الحاجز في نفس المكان الذي رأى أنجيل تضع يدها عليه . ويا لحياته المنفردة في أن يلقي الضنى من أجل مخلوق سينساه يوما مثلما نسي آخرين كثيرين . وأن يتحول عن هذا الكائن ليحمل رغباته الى موقع آخر ، والرغبات هي نفسها على الدوام ! حاول أن يتذكر وجهها بالضبط . ففي المساء نفسه رافبه بفضول محموم كأنما قد سعي ليعوض بجرأة النظر عن الارتباك الذي أصاب لسانه ويديه . إلا أنه عجز عن رؤيته . حاول عبثا وهو يغمض عينيه ، لكن القسمات أفلتت منه . وإذا لم تكن القسمات كلها ، فقد أفلت منه على الأقل شيء ما في طريقة تكوينها ، أي ذلك العنصر الذي يتيح لك تمييز شخص ما من النظرة الأولى . ذلك أنه تذكر ، وهو يعمل التفكير ، شكل أنفها وشفثيها وحتى تعبير عينيها ، لكن الصورة التي رسمتها ذاكرته ظلت تنقصها الحياة وظل الوجه يفرّ منه مع بقائه على مقربة منه ، مثلما يلوح للبال اسم ما دون أن يتوصل الفكر الى ايجاد حروفه .

واعتترف في دخيلة نفسه : « معرفتي بها اذا رديئة جداً . فكيف لي ان أقول إنني أحبها ذلك الحب الجم ؟ » لو رآها غداً للقي عناء في التعرف إليها من الوهلة الأولى ، وشيئا فشيئا ستستعيد في نظره شكلها الحقيقي . ومن تلك التقلبات في التذكر وتبدلات وجه يظهر ثم يختفي تارة إثر أخرى ، كان يقرر ، بحكم عادة قديمة تعودها قلبه ، مسدى عمق رغبته .

حين وصل الى شارع رفع رأسه وعبس للرؤية نور في نافذة غرفته . كان يأمل ان يستطيع النوم من فوره ، وإلا فإن زوجته التي لا يحبها ستطرح عليه اسئلة مقيته ، اسئلة تعتقد أن من حقها أن تطرحها عليه لأنها زوجته . وخطرت بباله فكرة البقاء خارجاً والتجوال في البرية الى أن ينطفئ ذلك النور الذي يرقبه مثل عين مفتوحة . لكن حاجته الى النوم ونسيان عنائه حولته عن فكرته بسرعة . فدخل بيته وصعد الدرج .

كانت زوجته ساعة دخوله منهمكة بإعادة ترتيب الغرفة ودفع الكراسي لمحاذاة الجدار . إنها امرأة طويلة القامة مائززال شابة ، لكنها على درجة واضحة من الدمامة رغم أنها قد نروق للعيون لما هي عليه من صلابة وصحة . إنها تذكرك بفلاحة علمتها المدينة ان تزدري راسيتها(١) وخمارها وتنورتها المخملية ، فأرادت أن تلبس مثل سيدة مدنية من غير أن تقوى على التحرر من ميلها الى الثياب السوداء . كانت قبعتها التي لم تنزعها بعد تلفي بظلمها على وجهها . اما اشكال جلعها القوي فتتجلى تحت قماش صدارها اللماع . وتحزم تنورة من الصرچ(٢) أعلى السقيين ولا تتراخي إلا عند الركبتين .

فالت وهي تستدير : « ها انت قد عدت » .

علق قبعته على المشجب وجلس قرب منضدة مستديرة تحتل وسط الحجرة .

قال : « أجل » من غير أن ينظر اليها وفتح جريدة وجدها في متناول يده ، لكن عينيه كانتا تنتقلان من مقطع الى اخر من غير أن تتوقفا عند أي واحد من أنباء الساعة الأخيرة . الا ما أثقل هذه الدقيقة عليه ! وما أشد ما تثير نفوره ! هناك شيء ما يلزمه على رصد حركات زوجته فيسعى رغما عنه ليخمن ما ستقوله . وراها تتردد برهة ، وتهم بطرح سؤال عليه ، ويدها مستقرة دون شك فوق مسند الكرسي . أخيراً نزع قبعتها وقالت وهي تجلس قبالة زوجها :

— الا تسألني ماذا فعلت وإلى أين ذهبت ؟

فتظاهر بأن قراءته انقطعت وقال : وماذا بعد ؟

(١) راسية : غطاء نسائي للرأس شائع في الريف الفرنسي . (م) .

(٢) صرچ : نسيج صوفي متين .

— هل يروق لك ان تعرف اني ذهبت الى المخزن ؟

فسالها : وهل دفعوا لك ؟

اومات براسها إيجاباً . وجعلته قسماتها الضخمة القريبة منه
جدا يبدو كالأحمق ، لولا مسحة خفيفة من الحزن تطفو على صفحة
وجهه . ولم يتهرب من القيام بمقارنة فكرية بين هذه السحنة ومحيا
انجيل . وتسأل عن نوع القوة ، بل عن نص الاتفاق الذي يمنعه من القيام
فجأة ليقول الحقيقة لهذه المرأة ، ويوضح لها أنه أثناء حديثه معها لا يفكر
إلا في واحدة أخرى ، وأن قلبه وعقله تحولاً عنها ويتهربان منها .

قال بلهجة آلية :

— اليس الموعد مبكراً ؟

فهزت راسها مجدداً وسالت قائلة : وأنت ؟

استقرت عليه عينها الزرقاوان بإلحاح ضايقه . وبدأ له أن تلك
وسيلة تستخدمها لإرغامه على الرد . كان فيما مضى يهوى هاتين
العينين ويتأمل لونهما الدافئ بعض الشيء وشكلهما اللوزي ونوعاً من
لهيب مرح كان يراه متألقاً فيهما على الدوام . أما الآن فهذه النظرة
الفتية التي ظلت كامنة في وجه هرم ، تبدو له شكلاً من أشكال الهزء .
فقال في نفسه : كل ما فيها من فضل يزيد ما فيها من سوء حدة .

اجتاب بصوت عالٍ :

— اثنا استلمت أجري كالعادة .

— ومتى ستطلب علاوة ؟

فكرر قائلاً وهو يخفض جريدته :

— علاوة ؟ أليس لديك من شاغل غير هذا ؟ وهل تحسبين أن
المرء يطلب بعلاوة بعد ثلاثة أسابيع فقط ؟

— مضت أكثر من ثلاثة أسابيع ، يا بول . فنحن وصلنا الى هنا
في شهر آب .

وبهز بكتفيه :

— لست إلا طفلة . ولن أطلب شيئاً قبل نيسان أو ايار .
فأجابت بهدوء :

— لن تكون في رغد من العيس هذا الشتاء . هل فكرت بكل النفقات
التي تكبدناها بسبب الانتقال ؟

فحدق فيها ملياً وقال :

— إلامَ ترمين بقولك ، يا ماري ؟ أنا المسؤول إن كنا لسنا أغنياء ؟
أم أنك ترين اني لا اعمل ما فيه الكفاية ؟

— أراك تعمل ما فيه الكفاية ، لكن هؤلاء الناس الاغنياء لا يدفعون
لك الأجر المناسب .

— هل فهمت قصدي حين قلت لك إن المرء لا يطلب علاوة
في غضون بضعة أسابيع ؟ العلاوة ليست هدية . ولا مناص من الانتظار
سنة أشهر على الأقل .

— كان عليك أن تطلب أكثر منذ البداية .

لنسلم بآتي أخطأت . هل أنت راضية ؟ على كل حال فات أو ان
طلب المزيد . فات أو ان الطلب . وأوان المطالبة لما يحسن .

— كما تشاء .

ثم حملت قبعتها وهاجت فخرجت من الحجرة . انقضت بضعة دقائق . وبارك لحظة العزلة تلك إذ اتاحت له أن يسترجع منحنى أحلامه وأن يتخيل مئات الأشياء المستحيلة ، وحياة مغايرة ، وكل السعادة التي حرم منها . لقد أعوزته العريضة وهو يواجه أنجيل . وكان عليه أن يقدم لها مالا على الفور بدلا من أن يتساق على درب العواطف ليلبلغ مرحلة لم يعد يجرؤ فيها على أن يتحدث إليها أو حتى أن يلمسها . وهناك احتمال في أن ترفض لكنه عندئذ سيعرف أي سبيل يسلك . فحالة الشك التي يعبشها الآن تثير سخطه . وهل هناك ما هو أكثر مدعاة للسخرية من مغازلة فتاة ، مغازلة غرامية ، وهي ربما لا تطمح إلا للحصول على ماله ؟ ربما ؟ بل بالتأكيد ! اقتنع بفته بأنها كانت ستقبل المال . وهل من فتاة فقيرة لا تفعل ذلك ؟ وهذا يفسر قولها بلقائه في الطريق من غير أن تمنحه شيئا آخر . كانت تتوقع أن يقدم لها ذلك المال ، أن يشتريها . وأعطائها هو خاتما هزيلا سرقة من زوجته وهو لا يصلح إلا لبنت صغيرة . وكان ذلك كل ما استطاع أن يعثر عليه كهديّة . ويا له من غبي ! وقد ساورته الشكوك بشأن التصرف اللائق ، فيما كان الواجب يدعو له أن يفتح محفظته ويعدّ الأوراق النقدية . أما هي فأخذت ذلك الخاتم دون كبير مسرة ، وغادرت على الفور تقريبا ، وقلبها بطفح ازدراء دون شك . ولقد أحسنت بتصرفها على ذلك النحو .

قالت ماري وهي تدخل الغرفة :

— لا أريد أن ينتغل بالك بذلك التبان . فنحن سوف نتدبر أمرنا في نهاية المطاف ولو اضطررنا إلى الاستدانة .

واستدار بفته لدى سماعه نفمة ذلك الصوت ونظر إلى زوجته بوجه مكفهر . فبساطة هدد المرأة فاجأته . فمنذ سنين وهي تعيش

بجواره من غير أن تساورها شكوك بشأن أفكاره . فهي لم تر شيئاً ولم تحزر شيئاً ولم يخبروها بشيء . فالخياطة تشغلها من الصباح حتى المساء . وهي تنزل الى باريس مرة في الاسبوع . فتقصد أحد المخازن الكبرى حيث يؤدونها أجر عملها . تلك هي حدود حياتها ، وهو يعرفها . أما نفس هذه المرأة المطمئنة ، فلم تبرز فيها من رغبة قط ، ولا ظهر لديها البتة من قلق لتعكير صفو ساعاتها النشيطة . وإذا كان الهم يعترئها من وقت لآخر ، بشأن بعض المضلات المالية وكيفية حلها ، فإن سكينتها الطبيعية ما تلبث أن تتجاوزه . وهي مدينة بسعادتها للفقر الذي نشأت في ظله ، لكنها سعادة رتيبة من غير حماسة يمكن أن يفيظ مظهرها زوجها لأنه يعرف أن السداجة منبعها . ويتراءى له في بعض الأحيان أنه كان يفضل فظافة امرأة غيورة على لين طبع (ماري) الأبدى ، فيمقت الخضوع الذي تقابل به تعنيفه إياها ويمقت طرائق استكانتها ، وطيبتها ، حتى طيبتها التي يراها تتجلى في كل حركانها .

قال متعباً : « بالي غير منشغل . أنت ستخيلين أشياء وأشياء .
هل أغلقت المصاريع الخشبية ؟ »

تأملته برهة ويدأها تستندان الى الطاولة كأنها تجهد لتدرك ما لم يشأ أن يقوله لها . ولم يقوَ على احتمال تلك النظرة . فقال بحركة تنم على تعب :

— دعيني ، أرجوك . عملت اليوم كثيراً وأرغب في ان ارتاح .
لا تسأليني عن شيء . هيا أغلقي المصاريع .

انتصبت دون أن تتفوه بكلمة وقصدت النافذة ففتحتها على مداها الأقصى . فبدأ كأن الفلك دخل الحجرة بغتة ليملاها بليله ونجومه . فحول الرجل رأسه رغم حزنه ونظر . وأحس بغتة بشيء جعل قلبه

يخفق ، بانطلاق غامض نحو ذلك الكون الشاسع الصامت الذي بدا
كأنه يدعوهُ إليه . يا للسكينة الكامنة في تلك السماء السوداء بعد سكون
جلبة كلام البشر !

« إيه ، عيشة السعادة ! »

قال ذلك في نفسه حتى كأنه لم يشعر قط حتى الساعة بقوة تلك
الكلمات .

وانفلقت المصاريع واحداً في إثر واحد .



- ٥ -

كان يتراعى له أنه يعرف تلك الفاعمة الفخمة ، ذات الستائر المخملية والمفروشة بالسجاد ، منذ طفولته . ذلك أن بعض ساعات السأم تبذو طويلة طول حياة كاملة . وهناك على وجه التحديد كان يعاني من أشد حالات السأم . وإذا ما تجاوز الوضع حدود الاحتمال ، زاغ نظره عن كتاب القراءة ليسير في مناهات الجدران المغطاة كلها باللوحات ، فيتفحصها بعناية ، متنبهاً لكل التفاصيل التي يعرفها عن ظهر قلب ، لكنه يبقى جاهداً في أن يكتشف فيها شيئاً جديداً . عندها لا يبلغ صوت الولد مسمعه إلا منسوشاً وبعيداً كأنه في حلم . وبسرب النعاس ويبدأ إلى عينيه فيغمضهما ، وإلى رأسه فيميل إلى صدره ، ثم يعيده الفزع إلى نفسه ، وخوفه من أن يسمع التلميذ يصيح بفتة : « لكنه نائم ! إن المسيو غرييه قد نام . » أما الذي سيقع بعدئذ ، لو أن مثل هذا حصل ، فيتمثل في دخول مدام غروج ، التي لا تبتعد أبداً ، والتي تجلس له دوماً بالمرصاد ، وهو واثق من ذلك ، حسب طريقتها المباغطة المألوفة لتطرده .

أنهال المطر مدرارا في ذلك الصباح . وكانت الزخات العنيفة تنتزع أوراق الأشجار من حديقة آل غروجوج بنوع من الفرع المسعور فتهاز السياجات وتحصد الأزهار ، ساحقة أزهار (البفونية) التعيسة التي رُسِم بواسطتها على نحو متشابه في زاوية من الباحة المرجة اسم أصحاب الدارة . أما أشجار الزيزفون فتلوح فوق ذلك الدمار بأذرعها العاجزة . كانت تلك السورة من غضب الطبيعة تنسل تناقضا فظاً مع كل ما تحويه القاعة التي احتجز فيها من ضحالة وسماجة ! فلا يفصله

- ٤٦ -

عن الهواء البارد النقي وصيحات الريح بين الأشجار غير لوح زجاجي رقيق . إنه لوح زجاجي فحسب جعله يشعر بأنه سجين . لكن ماذا عساه يفعل بحريته لو أنها ردت اليه بفتة ؟ لن تتأخر إجابته على هذا السؤال . سيهرع الى شارع المصابغ حيث لاتزال أنجيل تعمل في هذه الساعة . أجل ، هذا واضح ، لكن ماذا سيفعل من أجل أن يراها وأن يكلمها؟ فكر بعض الوقت فلم يعثر على حل . إذ يستحيل عليه وهو في المقهى المواجه للمصيبة، حيث يجلس أحيانا ، أن يرى الفتاة إلا ساعة خروجها . فينتابه التذله في تلك اللحظة عينها ويفقد صوابه . فيؤدي به خوفه من أن لا يرى أنجيل ، الى عدم تمييزها من لداتها . كان يرى على نحو متوش ثلاث فتيات يمرن أمام المقهى ضاحكات ثم يتوارى المشهد في ظرف ثانيتين . أي تناسق شرس هذا الذي يسود العالم ! فهذه الارض تحتوى بكل تأكيد مروجاً خضراء ، وغابات يسع المرء أن يختبئ داخلها ويتيه وفيها نساء صغيرات وحسنات يمكن أن يعشقن ، لكن ضرورة حاكمة تعتمد الى عزل الكائنات ، وإغلاق الابواب ، وتمبث وهي تدفع الى هذا الشارع بأولئك الذين كانوا سيجدون السعادة في الشارع المجاور ، وتلهو بجعل البعض بولدون من قبل ، وألبعض الآخر بضع ستين من بعد . اما الفكرة القائلة إن السعادة ، بل سعادته هو ، موجودة في مكان ما وأنه لا يعرف أين ، فجعلته يستشيط غضبا . وحين كان يلاحق الفتيات انما كان يسعى وراء تلك السعادة . وهو في الواقع أشبه ما يكون بغبي مصبت عيناه من أجل لعبة (اللب الاعمى) ، وبدأ يسمع الصيحات تتوالى في أذنيه : هنا ! هناك ! ويروح يدور وهو في مكانه ، فيتوجه ذات اليمين وذات الشمال ، بشكله المضحك التائه ، ويوما بعد يوم يزداد عجزاً ويزداد شعوراً بالخيبة . وآخرون ينعمون بثروات طائلة تأتيهم على ما يبدو من تلقاء ذاتها لأنهم فقط لا يسعون وراءها . وقد يصير هذا الولد ، الذي يتمتع وهو يقرأ صفحة في كتاب التاريخ ، واحداً من أولئك في يوم من الايام ، فهو غني قبل كل شيء .

ملأت تلك الفكرة نفسه بكره مفاجئ فانحنى نحو الرأس الاشقر حتى استشم رائحة شعره المقصوص قصيراً مثل المرج . وساورته رغبة

جنونية في أن يصفع ذلك الصبي الصغير ليستمتع من بعد بانذهاله
وهلهه . فالولد غني وهو فقير . وعليه بسبب فقره ، أن يصفى الى
ذلك الصوت المتلتم ، وأن يقوم اعوجاجه بلطف متناه كلما اخطأ ،
وذلك بدلا من أن يمضي مسرعا الى أنجيل ، فيقدم لها المال ويلطف
من سعيه العاطفة المتوقدة التي تلهب قلبه . فأى اله شرس ذاك الذي
وضع الذهب في جانب والسهوات في الجانب الآخر ؟ أكان ذلك معاينة
أم هو مزاح ثقيل ؟

انفتح الباب بفتة ، وهو عند تلك المرحلة من أفكاره لتدخل منه
مدام غروجورج . ومشت بخطى سريعة وصامتة فتوجهت نحو طاولة الولد
الدراسية . كان وجه تلك المرأة البارد يحول دون تقدير عمرها . فنبأه
من التجاعيد تير في المرء العجب لعدم ظهور الغضون عليه . كما يتوقف
ذلك على قسوة نظرها الحارقة . فعيناها السودوان المتحرزتان ، بلمعانها
المعدني ، كانتا في الواقع عيني امرأة عجوز . لكن أنفها دقيق ومستقيم وفمها
صغير وجيل ، رغم امتلاء ما في الشفتين . أما الوجنتان فعاليتان ، وتأتي
من ثم بشرة بيضاء جدا تغلف تلك القسمات الرقيقة ، وتحافظ على
نعومة مخملية يمكن أن تضلل النظرة المترسة لعدوة لدودة . ولا يصعب
على المرء أن يتبين لدى مدام غروجورج قوة شكيمة ، لا تتجلى في أقوالها
وحركاتها وإنما في هيئتها ، بل حتى في طريقة تمالكها لأنفاسها . وقد يظن
المرء أنها تحقد على رئيها لانهما ترغمانها على التنفس ارغاما . وهي
طويلة القامة ، متينة البنية . كانت ترتدي صداراً أصفر مخزماً وتثورة
من جوخ بني . ويشوب شعرها الاسود شيب خفيف عند الصدغين فلا
تكلف نفسها عناء تخضيبه . لكنه مصفف بعناية فائقة .

قالت بصوت خافت قليلا :

— لم تنقض الساعة تماما ، يا مسيو غريه . وأريد أن تستغل ما
تبقى منها لاعطائي فكرة عن الطريقة التي تعتمد عليها لتعليم ابني . ومن
الطبعي أن تتصرفا معا كأنني لست هنا .

وقصدت الركن القصي من الصالة فجلست على كرسي متخذة
وضعية الانتظار ، فلفت ساقا على ساق ووضعت يديها على ذراع
الكرسي . القى الولد نظرة فزع على أستاذه . ونقل هذا نظره بين تلميذه
ومدام غروجورج ثم قعد مجددا .

همس الولد قائلا : « ما الذي يجب عمله ؟ » فهو يعرف أمه
معرفة جعلته يدرك أن هذه الزيارة ليست بشير خير .

قال غريه بصوت حاول أن يجمع فيه الهيبة باللطف معا : طيب
يا ولدي ، اكمل قراءة صفحة التاريخ هذه .

— لم يبق الا ثلاثة أسطر ، يا استاذ .

— قلت لك اكمل .

انحنى الولد منكبا على كتابه حتى كأنه سيلفقه وتلجج في قراءة
عبارة لم تسمع منها كلمة واحدة ذات فائدة .

حين انتهى من أداء امتحانه ذاك قال له غريه :

— اطلق كتابك ، وهات قل لي ، ما الذي فهمته مما قرأته . فكرر
الولد :

— ... فهمته مما قرأته .

كان أشفر هزيلا ، ذا وجه زاده الرعب من صفة محتملة شحوبا ،
وأنف ضئيل مرصع بعدد كبير من نقاط الشمس . لبث برهة فاعرا
فاه ، وانتقل ارتباكاه الى استاذه الذي احمر وجهه وتجلت عليه امارات
الصبر والضيق التي يخشاها الاولاد كثيرا .

— أسألك عما تتذكره من قراءتك ، وعن الانطباع الذي تركته
فيك ، في ذهنك ، في ...

وران الصمت . استرق غيـره النظر الى مدام غروج فبدت
كمن قدت من صخر . وبدأ له جمود تلك المرأة أكثر هولا من غضبها .
فبدت قطرات العرق تسيل على جبينه ببطء .

فاستأنف يقول بصوت متهدج بدت رنته مقبلة على سمعه :

— قل لي ، يا بني ، عن تحدثت تلك الحكاية ؟

— ماذا ؟ عن الملك .

— جيد ! جيد جدا ! عن أى ملك ؟ عن لويس الحادي عشر ، عن
لويس الثاني عشر ؟

— لويس الحادي عشر .

ومن غير أن يحول عينيه عن غيـره مد يده من تحت الطاولة
وحك ريلة ساقه .

— ولكن هذا جيد جدا ! — ثم سال الاستاذ بـشـرود : « و ... ماذا
فعلوا به ؟ »

— وضعوه في قفص .

سادت لحظة من الوجوم لم يعرف غيـره ماذا يقول في انائها .
لا شك في أنه أساء طرح سؤاله . لكن لماذا ظهور مدام غروج كان
وحده كافيا لتسوء الامور الى هذا الحد ؟ اذ لم تبدر عنها منذ بداية
هذا المشهد اية حركة ، بل كانت تصغي بشوع من الضراوة المهذبة وتنتظر
المشهد التالي .

قال غريه بمباغطة نجمت عن الخوف :

— ففكر فيما تقوله . أنت تعرف حق المعرفة أنهم لم يضعوا لويس
الحادي عشر في قفص . بل هو الذي ، على العكس من ذلك . . . تابع .
بل لويس الحادي هو الذي . . .

فصرخ الولد مدعورا :

— لا أعرف !

وأخذ ينتحب وهو ينظر صوب أمه من فوق مسند الكرسي .
فاعترت مدام غروجورج رجفة . وبدرن عن غريه حركة مترددة باتجاه
الولد . ثم وقف . وتدخلت ساعة الحائط فأضافت الى البلبلة السائدة
دوي دقاتها الاحدى عشرة .

فقالت مدام غروجورج :

— يا أندريه ، أندرك بأن ما تحدثه من صخب يستحق صفعه .
ومصلحتك تقتضي أن تكف على الفور . والا فسوف ترى مدى جديتي
فيما أقول .

رفع الولد قبضتيه نحو فمه محاولا أن يخنق صراخا عجز عن
ضبطه . وتوسل بنظره مستنجدا باستاذة ، لكن غريه ظل صامتا ،
لا يدري ماذا يقول ، للتخفيف من الموقف الحرج الذي تحول المشهد
اليه . وقف وظهره نحو النافذة . منذ بضع ثوان وراحة كفه مستقرة
فوق صدره مثل رجل عازم على تبرير موقفه ، وما لبث أن بدا له على
نحو مفاجيء المغزى المضحك لتلك الحركة فأنزل يده وقد احمر وجهه .

وتمتم قائلا :

— مدام ، اني شديد الاسف .

فقلت مدام غرو جورج من غير أن يبدو عليها أنها سمعت كلامه:

— يا مسيو غريه ، إنني عازمة على إرسال ابني الى المدرسة الثانوية في العام القادم ، فهل تعتقد أنه مؤهل لامتحان القبول في الصف السادس؟ فكر . ولا ترد عليّ بالإيجاب لتدخل السرور على قلبي . فكر مليا .

كان في صوتها عدوية غريبة ، تستشمن منها رائحة تهديد . واضطر غريه الى أن يصيح السمع كي يتلقف تلك الكلمات . لان شفتي مدام غرو جورج كانتا تتحركان حركات ضئيلة جداً وهما تنطقان بها . وكان مستحبلاً استشفاف شيء من قسماتها التي بدت عاجزة عن التعبير عن أي انفعال انساني . ومع ذلك فإن عينيها تشبثتان بالأشخاص والأشياء على نحو من القوة وشدة التركيز مما يسبغ على نظرتي شكلاً متوقفاً . حدثت في الاستاذ دون أن تحول نظرها عن وجهه الذي احتقن ارباكاً وخجلاً . وكأنما هي تسعى لتكتشف الطريقة المشوشة التي تصاغ بها الإجابة على سؤالها داخل رأس هذا الرجل الممتن ، ووراء تلك الجبهة التي رأتها تلتصع من المرق . تلذذت بعض الوقت بمتعة ذلك المشهد ، حابسة أنفاسها في أنفها ، مثل وحش شهواني ، ثم انتصبت بجذعها قليلاً وفركت كفاً بكف من غير صوت .

عندئذ قال غريه وقد اعتقد أن تلك الحركة تعبر عن نفاد الصبر :

— سيدتي ، يتراءى لي أن بضعة أشهر من الجهود المتواصلة كفيلة بجعل ابنك قادراً على أن يتقدم في نهايتها الى امتحانات السادس .

فأجابت وهي تدير رأسها بخفة فيها ظل من الدلال :

— نحن من رأي واحد يا مسيو غريه . وتدور في خلدك دون أدنى شك فترة أربعة أشهر أو خمسة من العمل والمثابرة ..

— بدون شك ، يا سيدتي ، أربعة أشهر أو خمسة . ذاك
ما أرمي إليه .

فأستأنفت تقول بالنبرة المهذبة الخاصة بسيدات المجتمع :

— أربعة أشهر أو خمسة من العمل الجاد المتواصل تحت إشراف
أستاذ نشيط وماهر ... نحن لا نزال من رأي واحد ،
يا مسيو غريه . .

— بكل تأكيد ... ياسيدتي .

— أستاذ يهتم بتلميذه فيعرف كيف يجعله يستوعب ما يقرأ ...
'الا نزال ضمن نفس الرأي ؟

— بلى ، ياسيدتي .

— إذن ، أستاذ لا يشوش أفكار تلميذه وهو يلقي عليه أسئلة حقاء ،
بل يقوم وهو في بيته بتحضير الدرس الذي سيلقيه في الغد
تحضيراً كاملاً . أي باختصار ، يا مسيو غريه ، رجل يمكن أن
يوصف بأنه نزيه ، يعرف واجبه ويحترمه . فهل لديك من
شيء تقوله لي ؟

فهز رأسه نفيًا . ولو أنه رغب في الكلام لحال ارتبائه دون ذلك .

قالت : طيب . ينبغي أن تتوقع زيارات متكررة من حانبي ،
يا مسيو غريه .

ثم نادى : يا أندريه !

فالتفت الولد صوب أمه ، فواصلت مدام غرو جورج بنبرتها الثالثة :

— تعال الى هنا حين ادعوك . ألن تتعلم الاطاعة الفورية أبداً ؟

بذل أندريه جهداً شاقاً وغالب نفسه فترجل عن كرسيه وتوجه نحو ركن الصلاة حيث تنتظره أمه ساكنة مثل تمثال . إنه قصير القامة . ويا به من قماش الجرسى الأزرق الفائق ، تحيط بجذعه الضيل وذراعيه من غير أن تضيق عليه الخناق . وتنفلد ساقاه العاريتان من بنطال من الصرج ، قصير وعريض جداً . أما وهو يمضي فيجر قدميه جراً كمن أخذ على عاتقه تقويم صوف السجادة بلونيه الأحمر والبفسجي .

حين صار قبالة مدام غرو جورج قالت له :

— كم حدرتك أن لا تجرّ قدميك وأنت تمشي ؟ اقترب أكثر

كانت تسند يديها إلى ذراعي الكرسي وتحقق في الولد ، وهو يتهرب من نظرتها وبعض على شفتيه . قالت بهدوء :

— من العدل أن أبين لك ، قبل أن أعاقبك ، لِمَ أنا مرغمة على عقابك . قبل كل شيء كانت قراءة لصفحة التاريخ سيئة جداً . فطريقة لفظك مغلوطة . وأنت لا تسعى لاستيماب ما تقرأ ، وحفظه . والنتيجة أنك لاتزال جاهلاً كما كنت من قبل . فتضيع وقتك وتبدد مال أبيك ثم إنك لا تريد إصلاح اعوجاجك بالتخلي عن عادة قلب صوف السجادة وأنت تمشي . إياك أن تبكى ، فلا طائل وراء ذلك . إرفع رأسك وانظر إلي .

قالت ذلك وهي تركز قليلاً على أسنانها وتحقق في عيني ابنها بالحاح . ثم رفعت ذراعها الأيمن وارتدت به نحو وراء إلى أبعد ما تستطيعه . ومكثت هنيهة على تلك الحال من غير أن تهتز عضلة واحدة في جسمها . وبغثة وبعد استدارة ضئيلة نحو اليمين لأخذ شيء من الزخم على ما يبدو ضربت الوالد على وجهه بالقوة الصادرة عن آلة وبعنقها . فارتعد وشهق هلعاً وانفجر بالعويل . إلا أن الام لم تحول عينيها عنه . وبدت كأنها لم تسمع صرخاته بل أخذت تتأمل الوجنة حيث بدأت بصمة الكف الوردية تشحب شيئاً فشيئاً . وتسرب شيء

غريب الى حدقتي تلك المرأة السوداوين ، وغمر وجهها المسن المليح
تعبير من اللفظة والشهوة فأسبغ عليه مظهرا من الفتوة . وكان فكرها
في تلك اللحظة منصبا على ما تشاهده ومأخوذا به ، حتى لم يعد لشيء
بالنسبة لها من وجود خارج حدود الكلمة التي أحدثتها اصابعها .
ولو أن أحدا خلفها أطلق صرخة : « حريق » لما استدارت اليه برأسها .

كان غيريه يتأمل ذلك المشهد بهول منعه من الاتيان بحركة . فقد
انتابته الرغبة في أن يهرع الى الصبي ليضمه بين ذراعيه ، لكن فكرة
الاقدام على عمل بمثل تلك الجراءة بدت له ضخمة جدا . فشخصية
مدام غروج بكل ابعادها فيها من القوة والعزيمة ، بالإضافة الى
السيطرة الجبارة التي اسبغتها عليها نزع النسر في تلك اللحظة ، ماجعل
غيريه عاجزا عن مجابته علنا ، كعجزه امام فكرة انتزاع الفريسة من
بين براثن وحش مفترس . فبقي ملتزما الصمت ، وهو يحدق رغما
عنه في الولد الذي طأ راسه وطفق يتراجع بخطى مترددة امام النظرة
المرعبة التي لاحقته بها امه .

ومرت لحظات من السكوت لم يسمع فيها غير انين الصبي الصغير
وتأوهاته . وبغثة ارتعدت مدام غروج كان سحرا قد أبطل مفعوله
اعاد اليها حريتها . فرفعت نظرها الى الاستاذ وقالت بجفاء :

— طيب ، تجاوزت الساعة الحادية عشرة ، يا مسيو غيريه ،
ولا أرى ما يمكن أن يستمتعك

وقامت وهي تقول تلك الكلمات فتوجهت نحو الباب . وكان هو
لا يزال في مكانه ذاته ، وحين مرت من امامه ، أمكنه أن يلاحظ رقة
صورتها الجانبية الحازمة وفتنتها . فالوجة تتأجج حيوية تحت
تأثير الانفعال على نحو لا مثيل له على الاطلاق ، ولمح وراء الاذن ، وتحت
خصلة شعر رمادية ، أحد الاسلاك المستخدمة التدعيم قبة الصدر

العالية وقد انفرز قليلا في البصرة البيضاء عند القذال فأحدث فيها شبه
غمازة . وانتابه على حين غرة شعور متشوش اختلط فيه الاعجاب
بالتقزز . فحمل كتابه وأوراقه على عجل وتبع مدام غروجورج إلى غرفة
الانتظار .

وحينما أصبح بعد برهة في الحديقة ، تذكر أنه نسي ، في غمرة
اضطرابه ، أن يقول لها وهو خارج : إلى اللقاء .

* * *

غرفته ذات السقف الوطيء والنافذة الضيقة ، ومطعم مدام لوند ، والمقهى الصغير المقفر ، ودارة آل غروجورج ، تشكل مجتمعة الأركان الأربعة الرئيسة التي ترتكز عليها حياته الجديدة . هناك الشوارع أيضا والدروب ، النسوازع التي يلاحق فيها تلك المرأة بوجل . والدروب الليلية التي يسلكها حين يكلمها أو يرفع توسلاته اليها ، وتتيح له تلك الأركان الانتفال من إحدى زوايا سجنه الى أخرى .

وهناك النهران اللذان يحيطان احاطة واحدة بمدينة لورج وشانتيليا الصغيرتين المتجاورين . وهما يحملان اثنين من تلك الاسماء التي تجيد العبقرية النعمية العنور عليها أحيانا . فالاول ينساب بوهن عبر اعواد القصب مثلثا تحت أسوار حصون لورج القديمة . وعلى المرء أن ينظر إلى مياه « السوميانت » (١) بتمعن لتبين له حركتها . أما الثاني المنحدر من عل فتندفع مياهه جدى وفوارة عبر شانتيليا ، فيدعى « البريست » (٢) ويطلق اسمه على جادة قصيرة تعلوه بمقدار خمسة أمتار أو ستة . والنزهة بعد ظهر يوم الأحد في جادة البريست في شانتيليا ذات أهمية كبرى . ولا بد أن يكون الطقس سيئا جدا ليرضى السكان بالتخلي عنها . بل ويأتي سكان لورج انفسهم للاختلاط أحيانا بتلك المجموعات في سيرها الوئيد ، الملائم لتبادل الاحاديث . فتغلي قلوبهم بالفيرة وهم ينحنون من فوق الحاجز متصنعين عدم الاكتراث . لكن تظل هذه الناحية من المدينة غير مطروقة كثيراً في باقي أيام الاسبوع .

ذلك أن كل نشاط شائتيلما يتمركز حول ساحة السوق . وهذا ما يجعل
الجلسة ممتعة ، بعد ظهر يوم جميل من أيام تشرين الاول مثلا ، على
الا تكون الريح شديدة جدا ، تحت زيزفونات طريق النزهة ، فينساق
المرء مع أحلامه على اقناع سقسقة مياه ذلك النهر في سيره الحثيث
مقبلا وهاربا .

تهاوي في ذلك النهار على مقعد غير بعيد عن الحاجز . وهبت
نسمة خفيفة توشوش بين الإغصان فوق رأسه وأحس بأشعة شمس
الخریف الخافتة تلامس يديه . وانطلقت في السماء الشاحبة صيحات
طيور شبيهة بندايات الوداع . واتاح صفاء الجو للنظر بأن يمتد بعيداً
من غير جهد فيقع على طريق وراء منازل الضفة الثانية ، تجدها حقول
سوداء وبساتين عارية . وتظهر من بعد سطوح لورج الرمادية والزرقاء
مجمعة حسب امتداد شوارع الاحياء ، المحيطة بالبرج السهمي المهدم
جزئياً لكنيسة سنان جود . ولا يشاهد السوميانت من هناك فهو
يتخفى وراء الاسوار ، لكن صفا من اشجار الصفصاف يدل على خط
جريانه المتواني . ثم تظهر في البعيد ، خلف حقول اخرى ومروج طويلة
رطبة ، بعض التلال الوطيئة وهي تبثسم وسط الضياء للشمس تلامس
جباهها البيضاء كأنها الصخور .

تأمل قليلا ذلك المنظر السعيد الهاديء فوجده غير متناغم مع
ما يشتمل في صدره من كآبة وقلق . لقد أمسى أكبر سنا من أن يمتني
نفسه بأمال كاذبة ليخفف من كربه . واحس في داخله أيضا بأنه متعب
جدا . فعقب سنين وسنين من المفامرات والخيبات وما يليها من قرف
يأتي على النفس حين من الارهاق تعجز فيه عن مطاوعة الجسد ومواكبته
في هوانة . فتلک الفتاة كتبت اليه وضربت له موعدا في ذلك المكان ،
دون شك . وهاهوذا يجيء ، وما ذلك الا جبن منه وتخاذل وليوفر
على نفسه الاسف على فرصة سنحت وتركها تفوت . ذلك انه يعرف
حق المعرفة انها غير راغبة فيه . فكان يزدري نفسه وهو جالس هناك

فوق المقعد الذي عينته . الا أنه كان عاجزا تماما عن الانصراف في الوقت الحاضر . وهذا أيضا ما يعرفه حق المعرفة

وبسط من جديد الورقة الصغيرة التي كانت في كفه وقراها .

وفيها تسأله . ألم بعد لديك رغبة في أن تراني ؟ بم أسأت إليك ؟ ساحول طريقي غدا ، حين أحمل الفسيل الى دارة « خلوتي » ، لامر من الجادة . كن على المقعد الاول في الساعة الثانية . انجيل .

يا لها من وقحة أو يا لها من طريقة في إصدار الأوامر . أحضر !...
وها هو ذا قد حضر . ورفع الورقة الصغيرة الى فمه واهوى بشفتيه عليها . وفكر بغضب : « سامسك بذراعيها على أقل تقدير . » سيمسك بذراعيها المستديرتين الصلبتين ، ذراعيها الغائقتي البياض اللتين ستتيحان له ، بل اللتين ستلزمانه بتخيّل جسدها . وصعدت الى وجهه دفقة من الحرارة ، وانتابه ما يشبه الدوار فأغمض عينيه . واختلطت جلبة الماء المتدفق بالدوي الذي ملأ رأسه . فبدأ النهر كأنه يدندن دائما ، هكذا مدى الحياة ، مدى الحياة .

لم يرها منذ ثلاثة أيام ، أي مد أن تحدث اليها مساء على الطريق . ولكن كيف تصرف ؟ إنه لا يدري . وأنى للمرء أن يعرف كيف يمضي الوقت إذا كان يعاني هذه المعاناة ؟

ظهرت بعد ربع ساعة من ذلك ، وذراعها مثقلة بسلة كبيرة تحملها دون عناء . من الطبيعي أن يكون للجمال مظهر انتصار . وتجلت رزانة ملكية في كل حركة من حركاتها . لدى اقترابها ، لاذ شيء ما داخل قلب الرجل بالصمت . وحينما رأى تلك المرأة تتوجه ضو به ، لم يعد يعثر على الكلمات التي كان يريد أن يقولها لها . فهذا الوجه الكامل ، والجسد المتنقل بكل نبل ، جعل العالم يتلأش من حولهما . أخذ ينظر إليها بنهم . فهي ترتدي صدارا أبيض يبرز منه عنقها وذراعها . وتغطي تنورتها

مريلة بيضاء . وقد أسهم الاتقان الرائع للثنيات مع الظل في جعل القماش يرسم خطوط الصدر والأطراف . وعلى حين غرة دخل الفرح إلى قلب غريه بصخب وحماسة يفوقان مثيليهما لدى النهر في اندفاعه ليرمي بين أحضان المحيط . ونسي كل شيء ، نسي آلامه وأحقاده ، ورآها هي للمرة الأولى بيضاء موشحة بالنور ، فارتعد حين فكر بأنه أوشك أن يتخلف عن الموعد .

كانت تبسم ، قالت مقبلة عليه :

— لا تبقى ساكنا هكذا . ستجذب الأنظار إلينا . هيا نمتي بمحادثة النهر .

وسارا معا صوب الدرج الحجري الضيق المنحدر نحو البريست ، وحين صارا فوق الرصيف نظرت إلى ما حولهما لتتقين من أنهما وأخدهما . ونظر إليها بصمت :

قالت وهي تغالب ضحكتها : يا لفرابة أطوارك ! حسبت أنك ستسر لرؤيتي .

طفى صخب المياه تقريبا على ما قالت بصوت خافت . فسألته بصوت أعلى : اليس لديك ما تقوله لي ؟

بدت وهي تقف قبالة غريه ، أكثر فتوة ونضارة ، مما واثته الجراة على تخيلها ، في تأملات عزلته الدنسة . رفعت ردها مرة أو مرتين إلى جبينها لتزيح خصلة من شعرها الكستنائي ، أنزلتها الريح باصرار . فاستولت عليه الرغبة في أن يضحك ويمسك بيدها ، لكن طبيعته المرتابة استبعدت تلك الحركة على الفور . هلا تذكر قلة اكتراث تلك الفتاة وقسوتها ؟ العله لم تحضر إلى هناك الا لتهاز بهيئته المكفهرة وعباراته الغرامية .

— لم أتيت ؟

ولم تجب ، بل تأملت هنيهة ذلك الوجه الذي جعلته الريبة وشدة التفكير يكتسي قسوة . وأرغم انعكاس النور غييره على أن يطرق رأسه لكن نظره لم يتحول عن الفتاة . وصدمت لما طرأ على قسماته من تبدل وللمرارة التي اكتسفتها فيها . أخيراً قالت بصوت يحمل رنة عتاب :

— يا له من سؤال ! هل تريدني أن أنصرف ؟

وأوشك أن يرد عليها قائلا « نعم » . إذ تبدى له على نحو مفاجيء عدم جدوى ذلك اللقاء ، وعدم جدوى حياته كلها . تم اجتاحه قنوط فانتزع منه تنهيدة عميقة . فرفع ذراعيه قليلا ثم أسبلهما باسترخاء . قال :

— حين أفارقك بعد قليل ، سأجد نفسي تميسا جدا . لكن علام أحسر ؟ لا شيء ، أنت لا تمنحيني شيئا .

فرددت بغرور ساذج :

— أنت قلت يوما إنه يكفيك أن تراني .

فأشاح بوجهه ، وقال من غير أن ينظر إليها :

— لا شك أنني صرت أكثر تطلبا .

وحينما فاه بتلك الكلمات . بدت له مشيرة للسخرية وستهورة . وخشي أن تكون فهمت . لكنها أمسكت بيده وقالت متصنعة طيب المزاج :

— هيا ، فما أنت بما قل .

ضايقته تلك الملامسة بل كادت تثير فيه النفور . وبدأ له الأمر ،
والفتاة تمسك بيده على ذلك النحو ، فائق الاختلاف عما حسبه فائق
البساطة . ثم إن هذا الجسد لم يكن فيه نفس الحرارة التي كان يتوقعها ،
وشعر بالخيبة والتسوية في آن معا . وفكر في أن ذلك منتهى ما يمكن أن
يحصل عليه أبدا .

قال رغما عنه وبصوت أجش :

ـ الأفضل ألا نناولينى يدك إن كان ذلك بلا معنى .

ـ فصاحت وهي تترك يده :

ـ ماذا ، أنا أضرب لك موعدا عن طيب خاطر وأنت تكلمني على
هذا النحو !

واستبد به بفته غضب لا تقاوم . فقال :

ـ مواعيد ، تسعين هذا مواعيد ، ربع ساعة من الكلام على الطريق
أو عند حافة الماء ؟ ماذا عن الآخرين ، ماذا تعطين الآخرين ؟ هل
يكتفون بمثل هذا ؟

وامتقع لونها .

وهمست : قلت الآخرين ؟ من تقصدين بالآخرين ؟

ـ لم يسمع لكنه رأى شفيتها تتحركان . فاحمر خجلا : لما الحقه بتلك
المرأة من إهانة ، وحاول الظهور بمظهر ينم على نقية بالنفس وهو يضع
يديه في جيبى سترته . وشعر بأنه قبيح جداً وسط النور الساطع على
وجهه فرغب في أن يهرب ويصعد الدرج الحجري ، إلا أن شيئا ما أمسك
به وأبقاه .

وغمغم ... « الآخرون » ... ولم يعد يدري ماذا يقول
« أغنياء أكثر مني »

كانت أصابعه تدبك داخل إحدى جيوبه ورقة نقدية وضعتها قبل قليل ، استجابة لفكرة ثابتته بأن تقديم شيء من المال إلى أنجيل خير من إرهابها بتوسلانه . أما الآن فقد بدأ يشعر بدافع يدفعه إلى تنفيذ ذلك ، لا رغبة في شراء رضا الفتاة ، بل تلبية لميل دنيء إلى إهانة ذلك الكائن بعد أن آيس من نيل أية حظوة لديه . وازداد جمالها تألقاً وهي واقفة عند الضفة ، كأنها ذلك رغبة في ازدرائه ، بينما تلاطم المياه يطفئ على الصمت . ونظر نظرة حقد إلى الوجه الذي جهدت ذاكرته طويلاً في استرجاع صورته . حتى إن انعكاس الجمال الكامن في الذكري ، حتى الانعكاس ذاك ، تمنع عليه وهرب منه .

وردت من قبل أن يتمكن من سحب يده من جيبه . فقالت وعناها
تبرقان غضباً :

— مادمت تحمل أفكاراً من هذا النوع فلم يبق أمامي إلا أن أمضي
في سبيلي .

فسألتها وقد بدرت عنه حركة تجاهها : إلى أين تذهبين ؟

لكنها لم تجب . بل أعادت تثبيت السلة على ذراعها وأدارت ظهرها
لغيره وابتعدت .

ولم يقم بشيء لاستبقائها ، فراها تسير رصيف النهر تحت جدار
الجادة إلى أن بلغت درجاً يؤدي إلى الجسر الواقع على بعد مئتي متر
من هناك . وبدأ له أن كل خطوة تزيد المسافة بينهما يواكبها إحساس
متزايد بالراحة في قلبه . وغمره هدوء يكاد يشبه الفرح . فتوجه ليجلس
فوق إحدى الدرجات التي نزلها بصحبته .

قال بصوت عالٍ هكذا الحال أفضل .

تلفظ بتلك الكلمات ومد يديه الاثنتين الى صدره وكأنه يريد انتزاع صبريته وقميصه . فهو يعرف دلائل اقتراب الالم مثلما يميز البحار نذير العاصفة في كبد السماء . فهناك ضغط مباغت يجعله ينثني نصفين وضيق في الصدر يحول دون التقاط أنفاسه بحرية . فيدرك من جانبه ما معنى تلك الظواهر . كيف أمكنه الاعتقاد برهة بأنه سيخلص نفسه من آلامه ؟ وقام فجأة فركض الى المكان الذي وقف فيه حين غادرته أنجيل . وتابع بنظره النهر حتى الجسر . لم يبق لها من أثر لقد توفر لها الوقت لعبور البريست والتواري عن الانظار بينما كان جالساً فوق الدرجات مستمتعا بغيابها عن ناظره . اهو مجنون ؟ أية فائدة ترتجى الآن إذا ما مزق صدره أو مضى ليمشي على آثار فعلى تلك المرأة وهو يشن ويردد اسمها ؟ قد لا يوجد في العالم كله رجل واحد قادو في مثل هذه الظروف على التصرف برباطة جأش وعقل سليم . وها هو ذا يضيف الى عشرات سنه مهازل الشباب . فيتصدى بدماع ولدووجه تعلوه التجاعيد لغزو قلب فتاة تتفجر نضارة وجمالاً . ورغم ذموع الحزن والحب الجنوني التي سالت على خديه ، جعلته خيلاء تلك المفامرة يفرق في الضحك .

* * *

- ٧ -

— مريض . أجل . لكن على رسلك ، يا عزيزي ، هيا ، لن تقول لي إن ذلك يضايقك . لا داعي للكلفة معي . أدري أن زوجتي حادة الطباع ومدققة . من المؤكد أن حضورها يغيظك . إنها سيئة النية ، أليس كذلك ، هيا ، أنت لا تزال متجهماً ! هل تحسبني سأنقل إليها حديثنا؟

ابتسم غريه بتكلف . فتصرفات ذلك الرجل السمين الساخرة ضايقته قليلاً ، لكنه شعر بارتياح كبير حين علم أن والدة الصغير أندريه لن تحضر الدرس في ذلك النهار ! كان ينتصب واقفاً ، وكتابه بيده ، أمام السيد غروجورج الذي جلس لتوه على الكنبه . وإذا كان صاحب دائرة « خلوتي » قد بلغ من عمره الستين ، ففي ملامحه ذلك المظهر من البساطة الذي يواكب ذلك العمر حينما تكون الحالة الصحية لم تتنكب عن طريقها المألوف . فالشعر الأبيض يغطي رأسه فوق أذنيه وقذاله بعد أن تراجع تماماً عن جبين متورد يكاد يخلو من التجاميد ، حتى قمة الرأس . أما قسماته فتثقيلة ، له فم سميك واسع وفك عريض . أما أنفه الكبير الأتني فيسبغ على شكله الجانبي شيئاً من الحزم والعنف يتعارض والنظرة المرححة التي تسع من عينيه العسليتين . وهو يرتدي بزة رمادية اللون مثل الصيادين . لكن ربطة عنق حمضية^(١) تأتي لتسبغ على مظهره عناية أكبر ، وارتسم خطأ أسود عرضانيا تحت ذقن سمينة مزدوجة .

(١) حمضي : قماش مزدان بدوائر صغيرة مختلفة اللون عن الأرضية .

قال : هيا اجلس إذا ، لا بد أن يتوفر لديك متسع قليل من الوقت يا عزيزي ! ولأن يكون أندربه مستاء إذا ما منحته فرصة خمس دقائق .

التفت اندريه الجالس الى الطاولة نحو أبيه بوجه طفولي ماکر وضحك وهو يخفى فمه بيده . وبعد أن ألقى على أستاذة نظرة واضحة المفزى انزلق عن كرسیه وتوجه ليقف عند النافذة . كان كل شيء في ذلك الصغير بجسمه الضعيف الواهن ، يشي بنشأته كائن لزوجين متقدمين جداً في السن : كتفان متداخلتان ، معصمان هسان ، اتران شخص كبير ، حرص شديد على عدم احداث اية ضجة .

أوما المسيو غروجورج بدقنه ناحية ابنه وقال بصوت خفيض :

— يا له من صبي مسكين ! لا يلزمه إلا الهواء الطلق والتمارين الرياضية العنيفة ، لكن أمه غير مستعدة لتفهم ذلك . إيه ! يا لها من أم !... هيا ، تعال اجلس ، يا صاحبي .

وضع غيره كتابه من يده وجلس على كرسي قبالة المسيو غروجورج .

فأضاف هذا وهو يميل صوبه بجانب رأسه :

— ستلقاني شديد الفضول ، لكن قل لي كم مضى على وجودك هنا ؟ قيل لي إنك كنت مقيماً في باريس قبل قدومك الى شانتيلا . يا الهي ، يفادرون باريس الى الأرياف ! إنها متاعب مالية تلك التي أرغمتك على الانتقال ؟

كان يلقي ذلك السؤال وعليه هيئة الثقة التي يسبغها المال على الفني ويمنحه الحق في استجواب الفقير .

— متاعب مالية . أجل ، يا سيدي .

وأنت عازم على أن تؤمن لنفسك مركزاً لا بأس به كمعلم في المنطقة . ولم لا ، على كل حال ؟ أكن قل لي ، هل أنت متزوج ؟

— متزوج ، أجل يا سيدي .

— وزوجتك تمد لك يد العون ، على ما أرى . هذا حسن جداً ،
ومشرف . فماذا تعمل ؟

— إنها متعاقدة مع مخزن للألبسة الداخلية في باريس . فتشتغل
هنا وتتوجه مرة في الأسبوع الى باريس لتسليم الطليعة .

— وترافقها أنت ؟

— أنا يا سيدي ؟ على الإطلاق .

— أنت لست غيوراً ، يا عزيزي غريه . لا تنتسده ، فما أقوله لك
نوع من المزاح . أولاً أعرف أنا ما هو الزواج ؟

وهزته ضحكة . ثم انتظر هنيهة ، كأنه يريد أن يفسح المجال أمام
غريه ليعلق بكلمة . وحينما رأى أن الاستاذ ليس لديه ما يقول ،
استأنف كلامه بلهجة سريعة قليلاً :

— طيب ، لا بأس . لكن قل لي ، لابد أنك تشعر بالسأم هنا بعد أن
عشت في باريس ؟ فأجاب غريه بعد شيء من التردد : أجل ، ينتابني
الملل أحياناً .

مدّ المسيو غروج ساقيه ولفّ واحدة على أخرى .

— هل ينقصك شيء ؟

— أنا ، يا سيدي ؟ لكن ... كلا ، لا أستطيع أن أقول ...

فقال العجوز من بين أسنانه : قَسِّمًا ، يا عزيزي ، لو كنت في
مثل سنك ...

وحرك قدميه ، وعيناه لا تتحولان عن عيني الأستاذ . وسادت
عدة ثوان من الصمت لم يجرؤ غيره على تعكيرها . وأخيراً قال المسيو
غروج كأنه يلخص فكرته :

— غريب ، حقاً . لا أفصد تقديم النصائح لك ، لكن ما يبعث على
التفكير مع ذلك ، أنك تشعر بالملل هنا . أما أنا ، والحمد لله ، فقد
أجدت الاستفادة من أعوام شبابي . وأؤكد لك أنني لم أكن أعرف السام
وأنا في مثل سنك . لكن دعنا من ذلك على كل حال .

ونهض فتوجه إلى آخر الصالة .

— هل تفضل بالحضور الى هنا ؟ ما رأيك بهذه اللوحة الصغيرة؟
وحين أصبح غيره بجانبه ، أمسك به من ذراعه .

— قف هنا ، متنجياً قليلاً . والآن ، هل تعطيني رأيك بصراحة ؟
أعلم أنني دفعت قرابة سبعمائة ثمناً لها قبل اسبوع ، في باريس . إنها
شيء صغير ... أرسلوها إلي صباح هذا اليوم .

— سبعمائة فرنك !

— يا صاحبي ، إليك أن تنبهر بذلك الرسم . أعطني رأيك بهذا
التلوين . فليست الأهمية في الكلفة على كل حال . لأن الأشياء الجميلة
لا تقدر بقيمة . ولا تنس أخيراً أنها بريشة شاكورتاك !...

تمثل اللوحة ثلاثة أساففة تجمعوا حول اسكملتة^(١) عليها غطاء مخرم
ثمين ، وهم في حلل من الأطلس القرمزي ، يوشكون أن ينتهوا من عشاء
تبدو فضلتهم في أطباق من ذهب . وبينما تتبرد زجاجة من الشمبانيا
داخل سطل فضي موضوع فوق السجادة ، نرى واحداً من أولئك

(١) اسكملتة : منضدة صغيرة بقائمة واحدة .

السادة ، وهو أكثرهم سمنة ، برفع كأسه نحو زميله . فيتهما أحدهما للرد على كلام التكريم الموجه اليه من غير شك ، لأنه يتسم لحامل الكأس ، وهو يسكب الشراب في كأسه . وتبدو حركته تغافلاً بنظر الاسقف الثالث ، الذي يخشى أن بسهو زميله عن نفسه فيلمس ذراعه ليلفت انتباهه ، وقد بدت على وجهه أمارات الخوف ، كي يحذر قبل أن يفيض الكأس . أما التفصيل الأخير الذي يسم ذلك المشهد المليء بالبساطة والحذافة فيتمثل في فطة بيضاء ، تتدحرج بفتنة عند اقدام الاساقفة وهي تعبت بصدفه محاره . ذلك هو موضوع اللوحة التي اقترح المسيو غروج على الاستاذ أن يتأملها . فقطب هذا ما بين حاجبيه وأجال نظره في العمل الفني من أعلى الى أسفل ثم قال : إنها جميلة جداً .

وردد المسيو غروج :

— جميلة ! هذا كل ما لديك لتقوله ؟ استحطفك ، يا عزيزي ، أن تنظر الى الأشياء نظرة فنية بعض الشيء . الا توحى إليك بشيء هذه الألوان الحارة المتأججة والمتناغمة ايضاً ؟ الا ترى مدى الانسجام بين قرمزي الحل وبياض الفطاء ، المتناغم بدوره ولون السجادة الاحمر الفامق ؟ الا ترى الى القطة ، ذلك الحيوان الفاتن ، كيف ترتمي عند أسفل اللوحة كأنها التوقيع ؟ وهلا تفحصت ، بحق الله ، ذلك التخريم ، حتى لتتحرراه باللمس . انظر ، اليك هذا وهذا ...

وكانت إصبعه القصيره المدببة تتابع بشغف نجميات الخيوط التي رسمها الفنان بأمانة لا تضاهى . وانحنى غريبه باهتمام مفاجئ . أفي العالم حقاً أناس يمكن أن يستمتعوا برسم أغطية موائد مخرمة ورسم كرادلة على مائدة شراب ، بينما لا يعني له ذلك شيئاً كثيراً ؟ كان يبدو له أن الرغبة الجامحة التي لا تفارقه ، لابد أن تكون عامة وشاملة تشغل كافة الناس ليلاً ونهاراً . وكل ما لا يتعلق بأنجيل يصيبه بالدهشة . ولو فيل له إن المدينة بأسرها واقعة في هوى تلك المرأة لما وجد الأمر عسيراً على الفهم . لكن العسير على الفهم أن لا يهتم بها ثلاثة أشخاص

فقط . ولم يلحظ وهو يتفكر في هذه الأشياء ، أن غروجورج ينظر اليه منذ فترة بعين مدققة ، وهو يهم بالكلام .

أخيراً قال العجوز بصوت عذب ، نقز منه الاستاذ رغم ذلك :

— يا عزيزي ، لن تنكر عليّ أن شيئاً ما يشغل بالك في هذه اللحظة . فانت امرؤ مكتئب ، وهذا بادر للعيان ...

ثم وضع يده فوق ذراع الاستاذ و اضاف :

— أنت لا تهتم بلوحة شاكورناك اكثر من اهتمام شاكورناك بك . لكن لا عليك ، فهذا لا يثير بقمتي . فحين قلت لي قبل قليل إنك تشعر بالسأم في شانتيليا راودتني أفكار ناقشتها مع نفسي . قلت : تبأ له ! حين ينتاب السأم واحداً في مثل سنه ، فما ذلك إلا لسبب واحد فقط ...

قال تلك الكلمات بلهجة جعلت غريه يدرك مفزاها . واستأنف العجوز يقول باصرار :

— لسبب واحد فقط . بلى ، يا عزيزي ، لا تستنكر ذلك . فالحياة بأكملها قائمة عليه .

وهذا هو السغل الشاغل للناس اجمعين .

وهنا أكتسى صوته لهجة مسرحية :

— ساير الطبيعة يا عزيزي ، الطبيعة الخيرة بمتطلباتها . اتحسب اني لا أعرفك قليلا من قبل ؟ سأقول لك ، يا صاحبي ، قولا قد يتسبب لك بصدمة . لكن لا يهم ، ما دام ذلك لصالحك . كنت قبل أيام أتجول قريبا من المحطة ، حين وقعت عيني على امرأة طويلة ، ترتدي السواد ...

لكن لن أصفها لك : الشخص الذي كان بصحبتني أخبرني أن تلك هي زوجتك . طيب ، يا عزيزي ، يا صديقي الغالي ، أصغ الي جيدا ، لغت الثانية والستين ، ولدي خبرة ما في الحياة . وأقول لك دونما مواربة ، انك لست مع المرأة التي تصلح لك !

ورد غيره مدهولا :

— سيدي !

فقال غروج بلهجة أمرة :

— صه ! دعني أتم كلامي . حين أقول انها ليست المرأة التي تصلح لك ، انما أقصد المرأة التي خصتك الطبيعة بها فقط . لا يساورني شك في أن مدام غيره امرأة صالحة ، وشغيلة ، وحريصة على راحتك وذلك ما يتبينه المرء . لكن ، هل هذا ما تبتغيه منها ؟ وحين تعود الى بيتك مساء بعد نهار من العمل والضنى ، هل تجد مدام غيره جميلة ؟ هل تجدها مفرية ؟ ذلك هام جدا يا عزيزي . فكر في السنين المتوالية . ولا تعدّ لنفسك شيوخة ملأى بالحسرات .

فقال غيره بجهد واضح : ولكن لماذا تتحدث الي على هذا النحو يا سيدي ؟

— لماذا ؟ تسألني لماذا يثور سخطي وأنا اراك تبدد شبانك ، يا عزيزي ! أنت تعيش ، بل في منتهى التعاسة ، وهذه حقيقة تفقّ الاعين بجلائها . وتظن أني لا أفهمك ، وتحسبني اكبر سناً من أن أقوى على فهمك ؟ يا صديقي ، أريدني أن أبوح لك بسر ؟ أنت رأيت زوجتي . انقص من عمرها عشرين عاما ، وتخيل المحيا الاكثر رقة والاكثر جمالا . . . بعد مرور شهر واحد ، بدأت تنثر نفوري حتى الرعب . لقد كانت مع ذلك ، جميلة . لكن الوضع هكذا ، وما في اليد من حيلة . فالطبيعة لم تخصصها لي ولقد فهمت ذلك بعد فوات الاوان . آيه ! لكن تق من اني

استدركت الامر من بعد ، حتى اني لم اعد اشعر بالاسف . وكن على ثقة من ذلك . وأخيراً ، تباً لذلك ! ينبغي للمرء أن يكون صادقاً مع نفسه ، وإن يعرف كيف يتثبت من حقيقة الاشياء ، أي بكلمة واحدة ، أن يعرف نفسه ، فكل السر هناك ، أن يعرف نفسه . فهل أنا على شيء من الحق ؟ قل لي : ترى هل وضعت أصبعي على مكان الداء . استحلفك ، يا عزيزي أن تقول شيئاً . هيا اجب ...

وهمس غريه مطرقاً : طيب ، نعم . أنت لم تخطيء .

وانتابه شعور بالراحة العميقة والغضب في آن معاً ، لكنه لم يجرؤ على أن يرفع نظره نحو المسيو غروجورج . فانتظر العجوز بضع نوان ، ثم استأنف بصوت دافئ ، جعلته نشوة النصر يرتعش قليلاً :

— يا صديقي الشقي ! ساورتني السكوك منذ وقت طويل . فقد قلت في نفسي يوم رأيته لأول مرة : « ذاك رجل جسور يعاني من الضيق » رايت فيك رجلاً يطلب النجدة ، الا أنك لم تطلب شيئاً على وجه الدقة . هل فهمت ؟ يا عزيزي ، يا عزيزي !

وغمرته حالة من الحبور جعلته يرفع يديه بحركة مفاجئة نحو السماء فالمتعة التي أحس بها لانتزاعه سرّاً واعتراضاً ، ملأت نفسه اضطراباً لحظة حتى لم يشر من فوره على الكلمات للتعبير عن فكرته .

وقال وهو يخفض صوته بلهجة من يبلغ الآخر سرّاً :

— الحياة مفتوحة أمامك . إيه ! لو كنت في سنك ! تباً لك ! أنت لن تقول لي أنك لم تجد في مدينة شانيليا كلها امرأة تثير اهتمامك . وقد تحسب أن الناس في الأرياف لا يعرفون المغامرات .

وتفضّس وجهه ، وحدثني عيني الاستاذ .

- وحينما يتعلق الامر بي ، يا عزيزي ، انا الذي اكلمك . فهل يلمور في خلدك ، اننى بسبب كبر سني ، أعيش بلا حياة عاطفية ؟ سأضحك ساخرا من افكارك فالقصة بدأت هنا بالذات ، في دارة « خلوتي » وأكاد أقول تحت سمع زوجتي وبصرها . اما الفتاة صاحبة العلاقة فتبلغ الثامنة عشرة . نمائة عشر عاما ! لو رأيت لون بشرتها أو شعرها ! ويا لمائة تلك الفتاة ! ولا تنس أن قطعة تقود بين وقت وآخر تسهل حسن سبر العلاقات ، لكننا قلنا قبل قليل إن الاشياء الجميلة لا تقدر بثمن ، اليس كذلك ؟ ومنذ أكثر من شهر وانا أراها مرتين أو ثلاث مرات في الاسبوع . . . ولا يذهب بك الظن ، يا عزيزي ، الى أنها من بنات الهوى . كلا . وانا أقدم لها الهدايا والهبات كاني مع انسان يعاني من ضائقة وهي نغابل ذلك بالعرفان . وقد اصطحبها أحيانا للعشاء . وهي لا تطلب مني الا التكتم . وأما هذا الموضوع . . .

- التكتم . . .

- اجل يا عزيزي . ولكن ماذا دهالك ! ألا تشعر انك على ما يرام ؟

- بلى .

- هيا ، أصغ الى هذه الرسالة الصغيرة التي بعثت بها إلي هذا الصباح .

وأخرج الرسالة من جيبه فبسطها بعناية وقربها الى وجهه كأنه يهم بتقيلها .

ثم بدأ يقرأ : « إن كانت لديك رغبة في رؤيتي غدا مساء » . وقطع القراءة ليوضح قائلا : غدا ، أي اليوم . . . « في الساعة التاسعة والنصف . . . في الساعة التاسعة والنصف بالقرب من . . . » . كفى ، فلن أنجح في متابعتها بدون نظارتي .

ووضع الورقة على طاولة وبدأ يفتش في جيوب سترته . وتأمل
غيريه هنيهة ذلك الوجه العجوز المنتعش بالرغبة . وبدأ له أن وهنا
أخذ يسري في حواسه واحدة بعد أخرى . فالدوي الذي أخذ يملأ أذنيه
منذ بضع نوان منعه من سماع كل ما قاله المسيو غروج . ولم يصغ
إلا إلى مطلع الرسالة ، لكن تلك الكلمات القليلة أصابته بصدمة ، وبدأ
الآن ما يشبه الصبدي الغامض يكررها دونما كلل ، فيتردد رجوعها في
مكان ما داخل دماغه . « إن كانت لديك رغبة في رؤيتي غدا مساءً في
الساعة التاسعة والنصف » . . وأحسن على حين غرة أن الحجرة قد
أظلمت على نحو ما يحدث حين تمر قيمة فتحجب الشمس . ولما ينته
المسيو غروج من البحث عن نظارته . وتفضت من نفاد الصبر
زاويتا فمه ، أما شفتاه الهمتان فقد رقتا وهما تلتمعان . ذلك كل
ما استطع غيريه أن يراه في تلك الظلمة التي خيمت من حوله . إنه يرى
فما تزم شفتاه وتنتفخان تارة فأخرى ، فمأ نهماً شرساً يهيج جوع
لن تشبعه الحياة أبداً . وبفتة وقع نظره على الرسالة . فارتد إليه
صفاء ذهنه على نحو مفاجيء ، وتعرف في تلك الأسطر المكتوبة بالقلم ،
على نحو متسرع ومتعثر ، على خط أنجيل .

* * *

— ٨ —

جلست على عادتها قرب النافذة لتلقي بين الفينة والأخرى نظرة على الساحة الصغيرة المثلثية ، والريح تكنسها . فدارها آخر دار في المدينة . وينحدر العنكب المقصوص من وراء صف الأشجار حتى السوميانت . وتقع عينها على ذلك المنظر يوميا . فالحجارة الدائرية التي رصفت بها أرض الساحة ، وأشجار الزيزفون الأثنتا عشرة التي غرست لتشكّل زاوية . ومن ثم مياه النهر الساكنة تقريبا . وأخيرا ذلك الصمت العميق الذي يهيمن طوال فترة العصر وامتدادها ، تضفي مجتمعة على ذلك المشهد نفس الطابع الحالم الذي يظهر على الأمكنة التي لا يتوقف المسافر فيها أبدا . وتتميز الطبيعة هناك بشيء يصعب تحديده . فالأشجار ليست مثل باقي الأشجار ، والسماء تبدو كأنها تخبئ وراء الفيوم فكرة خفية يجري تناقل سرها ما بين حجارة المنازل ومياه النهر . فبسبغ عليها طابعا من الترابط المشوّوم .

قالت بنية جالسة فباله مدام لوند ، فوق مقعد خشبي صغير وضعت قرب النافذة :

— قلّما يرى المرء متنزهين في مثل هذا الوقت .

إنها تبدو في حدود الثانية عشرة . كانت بمريلتها الجلدية ، تلصق جيبتها على زجاج النافذة بعناد ، وتزيح بيدها الصغيرة ستارة التول المصفرة بتأثير الغبار والقدم . تأملت المعلمة برهة الصورة الجانبية لذلك الوجه المتيقظ ، وتلك العين الساخرة للتمليذة لا تدع شيئا يفلت منها .

— ٧٥ —

فرددت بتمهل :

— قلت المتنزهين ، وهل يروق لك منظر المتنزهين ، يا ابنتي ؟

اجابت البنية دون أن ترفع رأسها : أجل ، يروق لي .

فسألتها مدام لوند قائلة : يروق لك ، دون شك ، أن تري اناساً
جداً ؟

— واتسلى ايضا وانا اميز الدين اعرفهم من قبل .

فقلت مدام لوند : يا لك من داهية ، واجابتك جاهزة على الدوام .

وتنهدت ، ونظرت بنفسها من النافذة ، كأنها قد أرادت أن تظمن
على بقاء الاشجار في مواقعها ، ثم أخذت من حجرها جوربا عتيقا ودسب
يدها الى أسفله . ثم همست بيقين :

— ثقب . ما الذي أفعله ، بحق الشيطان ، حتى تهترىء جواربي
بسرعة مع انني قليلة الحركة ؟

ثم أخذت إبرة وبيضة خشبية بنفسجية اللون ، وشرعت ترفو مكان
الثقب الذي اكتشفته . ومرت دقائق طويلة سادها صمت تام . والبنت
توجه نظرها من جهة إلى أخرى وهي مستغرقة غلماً في دورها كراصدة .
كانت تشاهد صغيراتها القصيرتان وهما تهتران كأنهما تستجيبان لحركة
يد خفية تشدهما وتجعل الرأس يستدير يمنة ويسرة . اما مدام لوند
العاكفة على عملها ، فبدت غارقة في تأملات تزداد عمقا ، رغم ان حركة
أصابعها لم تتأثر بذلك فظلت مواظبة على غرس الإبرة وسحبها بكل
إناة وانتظام .

كانت الحجرة التي يجري فيها ذلك المشهد طويلة وسقفها وطيء .
ويحتل سرير مزدوج من الاكاجو ركناً كاملاً منها . فيقع بين باب أصفر
اللون وخزانة ضخمة من خشب الجوز .

الجدران مغطاة بورق فقد رونقه ، إلا في أمكنة قليلة الرطوبة ،
فبدن مساحات منه بلون غير مستقر ما بين الأحمر والبنفسجي ، مقلّمة
بلون أكر . وبسطت عدة سجاجيد صغيرة دائرية أو مستطيلة لتغطي
بتشكل جزئي البلاط الذي يصدر عنه برد جليدي . وتشتعل في الموقد
نار فحم هزيلة ، فتلطف بمشقة سيئا من حرارة الغرفة فيما حولها ،
قريبا من مكان جلوس مدام لوند . لذا كانت المرأة تضع رجليها فوق
مدفأة قدمين وتدس يديها داخل قفازات سوداء بلا أصابع . وتتكدس
عدة وسائل في مثواتها^(١) فتحيط بخصرها وتعينها على الجلوس منتصبه .
وكانت تلبس نوبا من الصرج الأسود ، لأنها تحتفظ بفستان التفتة
لترتيده وقت العشاء ، كما نشرت فوق كتفيها المرتعدين وشاحا من
الصوف الرمادي .

وتنبهت فجأة من أحلامها لتسال، وقد لمحت ساقى الفتاة العاريتين:

— ألا تحسّين بالبرد ؟

فردت هذه بحيوية مرحة :

— كلا ، يا مدام لوند .

— ليس لك ، كما سبق أن نبّهتك ، أن تنادينى بمدام لوند ،
يا صغيرتي .

ألم يمر أحد منذ برهة ؟

— لا أحد . ولكن ألا تنظرين من النافذة ، أنت أيضا ؟

فتمتت المعلمة :

(١) ' مثواة : كرسي رابع لمنجد المساند والظهر .

— لم أكن هنا ، يا فتاة . ثلاث ثوانٍ من الشرود ، ليس إلا ، ويعبر الساحة شخص ما ، من غير أن الحظه .

— قولي لي ، من فضلك ، كيف يجب أن أناديك ؟

— ولكن ... قلت ذلك لك . ناديني : يا خالتي ، مثلا .

— ولماذا تقولين : مثلا ؟

وساد الصمت . وبدت مدام لوند كأنها لم تسمع . وبغثة أمرتها قائلة :

— ناديني : يا خالتي فحسب . هذا كل شيء .

شبكت الفتاة أصابع يديها فوق ركتها اليسرى وشرعت تتأرجح الى امام وخلف ، وهي غير راضية . إنها جميلة رغم شحوب زائد يبرر بريق عينيها السوداوين . وضايقتها اللهجة الخشنة التي خاطبتها بها مدام لوند قبل قليل ، اكن زعلها تبدد بسرعة ... وحينما لمحت كرة صوف تتدحرج تحت المثواة ، هبت لالتقاطها وقدمتها للمعلمة ، واضعة بمبادرتها اللطيفة حدا لخلافهما الصغير .

فقال مدام لوند ببشاشة : « آه ، شكرا » . ثم أضافت وهي تداعب خد الفتاة بأناملها :

— يا صغيرتي ، أخبريني بماذا تجيبين أمك حين تسألك عما تفعله عندي ؟

— بشكل عام ، لا تسألني عن شيء .

— بشكل عام ؟ لقد سألتك إذا في بعض الأحيان ؟ وماذا قلت لها ؟

- قلب لها إنك ترسليني لشراء بعض الحوائج . . .
- صحيح . ذهبت فاشتريت لي شيناء من البن ، أول أمس .
- . . . وإني أساعدك على اصلاح بعض ملابسك الداخلية .
- حسن . أمك امرأة مدبرة ، يا صغيرتي . قولي لها إني مهمة بك . وإني عازمة على استخدامك في المطعم ، حين تصبحين أكبر قليلا . هل هي راضية عن الأجور التي أعطيك إياها ؟
- قالت ذات يوم إني قد لا اتقاضى أكثر في مكان آخر .
- تم إنك قد تعانين من التعب في مكان آخر . هل انت متأكدة من أنك لا تشعرين بالبرد ، يا صغيرتي ؟ لا أريد أن يصيبك أي سوء هنا . ويتراءى لي أنني لو مضيت عارية الساقين مثلك . . . أنت على كل حال فتية وقوية . لكن هل أنت لابسة بشكل كاف ؟ هل تضعين شيئا ما على صدرك ، اقصد شيئا دافئا ؟
- كنزتي .
- كنزتك . هناك فارق ما بين كنزة وكنزة ، يا فتاة ، تعالي أريني .
- ومالت بجسدها الى أمام ودست إصبعين في فتحة المريلة السوداء . وندت عن الفتاة صيحة خفيفة تشبه ضحكة . وحاولت أن تنحرف قليلا . لكن وجه مدام لوند الجاد أقنمها بالبقاء ساكنة . وبفتة تجهم وجه المعلمة وزمت شفيتها . ثم قالت إثر نوان من البحث الحثيث :
- ذلك ما خمنت . قميص صغير من خيط رفيع ، بسماكة الورق . إن وجوده وعدمه سيان . ولكن ما بك تتحركين هكذا ؟
- اجابت الفتاة وهي تقهقه

— إنك تدغدغيني .

فسحبت مدام لوند يدها بحركة مباغتة ، وارتدت بجسمها الى
الوراء وقد اصططفت وجنتها بحمرة مفاجئة . وكررت بسخط :

— أنا أدغدغك ، أيتها الصغيرة الوقحة . قد تزعمين أنني حالماً
أدغدغك ؟

— كلا .

— شيء مفرح . أتدربين لم أدخلت يدي تحت مربلتك ؟ لأرى هل
تحتاجين قطعة ملابس دافئة حقاً ، قطعة من الصوف ، أو شيئاً ذا قيمة
من هذا القبيل لأقدمه لك يا ابنتي . والآن ، إن كنت غير راضية في
خدمتي فبوسعك الانصراف كما تعلمين ؟ أما أنا فبمقدوري حتى هنا في
لورج العنور على أفواج من البنات الصغيرات مثلك . وبكاؤك بلا طائل ،
يا آنسة !

فقالت البنت عبر دموعها :

— أنا لم أقل أنني غير مسرورة في خدمتك .

— كان يبدو عليك التفكير في ذلك ثم أنني أمنعك من مناقضتي .
هيا ، انصرفي . رأيته اليوم بما فيه الكفاية .

نطقت تلك الكلمات الأخيرة بقسوة ، لكن بصوت متصنع ومرتعش
قليلاً .

كانت الفتاة واقفة جامدة تنظر إليها وعلى وجهها سيماء الكآبة
فانتهرتها قائلة :

— ماذا تنتظرين ؟ قلت لك انصرفي

وسألتها الصغيرة : بم أسأت اليك يا خالتي ؟

فصاحت مدام لوند وعيناها يتطاير منهما الشرر : ابن تطيعي أمري ،
أيتها الشيطانة العنيدة ؟

واستولى عليها غضب عنيف على نحو مفاجئ . واحمرت وجنتاها
خجلاً لما انتابها من خوف بسبب طفلة ، وكأنها تلقت صفة . فارتفعت
بجسمها عن كنبها وركلت مدفاة الأقدام قليلاً فانزلقت فوق البلاط
مجدنة صريراً حاداً . كانت مقلتها السوداء وان تتوقدان تحت حاجبيها
السميكتين في وجهها المتورد . وما كادت تطأ الأرض بخفها حتى خرجت
البنيت من الغرفة تركض مذعورة . وعادت مدام لوند لتجلس منتصرة .

وتمتت تقول مضطربة : تلكم هي ، بنت الأفعى ! قد تميتني
ميتة رخيصة .

مدت قدمها فسحبت المدفاة إليها وأعادتها إلى مكانها المهود ،
كما استعادت جوربها .

وبدت أصبعها مترددة قليلاً وهي تتلمس الإبرة . وأخيراً تنهدت
مرة أو مرتين بعشق فسمرت أنها أكثر هدوءاً . وألقت نظرة على الساحة
ثم انكبت على عملها .

سَمِع طرق على الباب .

قالت مدام لوند : هذه أنت مجدداً ، يا فرناند ؟

أجابت أنجيل وهي داخلة : هذه ليست فرناند .

ووضعت سلتها فوق الطاولة ثم استأنفت تقول :

— ماكنت تتوقعين رؤيتي في هذه الساعة ، يا خالتي .

لويانان ٦٤

فردت المعلمة وهي تضع جوربها جانبا :

— أهلا بك في أي وقت ، يا انتي . هل فكرت بالمسيو بلوندو ؟

فقالت أنبجل وهي ترفع خصل شعرها المنسدلة على جبينها :

— غداً أوافيك بالجواب .

غداً ! لكن هاهو يلح علي منذ ثلاثة أيام ياابنتي ! وقد صرنا في يوم الخميس . نقي من انه سيسألني أيضا هذا المساء حول ما قررت بشأنه ، فكيف سيكون موقعي حياله ؟ تذكرني انه ينتظر منذ زمن طويل . وأن المهلة الاخيرة حُددت بهذا اليوم .

— اعرف .

قعدت تجاه مدام لوند وأطرقت رأسها الكستنائي اللون . فرسمت رموش أجفانها ، وقد غضت الطرف ، قوسين طويلين فوق خدين توردا بسبب الريح ، وسبب انفعال لم تجِدِ احتواءه ، فأضفيا على محياها الفتى فتنة تعبير رزين وحزين . وهي لم تبد قط أكثر جمالا مما هي عليه في الضياء الخافت لعصر ذلك اليوم الخريفي . فتمايل عنقها فيه ليونة الطفولة ، وكل حركاتها تمتاز بنوع من الارتباك يولد في النفس انطبعا غريبا عن كائن انضجته الحياة باكرا جداً فظلّ يحتفظ في أعماق كيانه بما يشبه كنزاً غامضاً يجهل هو وجوده ، من غموض السنين الأولى وتردها . لكن فمها حازم ورصين ، وتتبدى في عينيها حين ترفعهما فطنة قادرة على الفهم السريع لا تعرف التردد .

وضعت يديها مضمومتين فوق ركبتها . فاستأنفت مدام لوند

تقول :

— لا يكفي المرء أن يعرف ، كما تعلمين ، بل عليه أن يرد الجواب .

لا ادري لم تضعين كل تلك المصاعب . فالمسيو بلوندو زبون ممتاز .

وحين خرج بصحبتك آخر مرة كان غاية في الكياسة حسبما قلت
لي . لكن يلزمني هنا أن أحدثك عن زبونني الجديد .

— زبونك الجديد ؟

— أجل . ماذا دهاك ؟

— لا شيء البتة ، يا خالتي .

— حضر هذا السيد إذن يوم الخميس الماضي ، كما تعرفين ، ولا بد
من أن يأتي هذا المساء . ومن الطبيعي أنني فكرت بك .

— بي أنا ؟

— بك طبعاً . يبدو في الحقيقة أنني أتفوه اليوم بأشياء خارقة .
فماذا هناك يا ترى ؟

— لا شيء البتة ، البتة ، اؤكد لك .

— ذلك أنه رجل كما ينبغي تماماً وفي منتهى الاستقامة ، وعلى شيء
من التحفظ . وقد خطر ببالي أن بوسعي بدءاً من هذا المساء إعداد
ترتيب ما ليوم الأحد في الثامن من الشهر . وتحضرين أنت متعلقة
بقول كلمة عند بداية العشاء ، من أجل أن يراك ليس غير . وحين
تخرجين بصحبته ، عليك استدراجه للكلام . فهناك أشياء كثيرة
أرغب في معرفتها . منها أولاً سبب مجيئه الى هنا ؟ لقد طرحت
أسئلة عديدة ذات اليمين وذات الشمال ، لكن دون جدوى . فذلك
الشيطان اللعين لا يبوح بسرّه لأحد . ولم أكتشف أنه متزوج
إلا بجهد جهيد .

ولم تر الى الفتاة وقد شحبت لونها ، فواصلت الكلام مثل ترنارة
أهاجها رنين الكلمات :

— لا بد أن تسلمي بأنه لأمر غريب أن يأتي امرؤ ليستقر في شانتيليا
بعد أن كان مقيماً في باريس . لكن ، لنعد في حديثنا الى المسيو
بلوندر . فلدي سؤال ألقبه عليك بصدده . ما حقيقة ما قيل عن
ابنة عم له ، وهي عجوز تقيم في لوت — غارون؟ هل القصة صحيحة؟

— لا أعرف عن المسألة أكثر مما نعرفين . الواقع أنه حدثني ذات يوم
عن الأنسة بورجيرون تلك ، « بورجيرون » . ذكرت مدام لوند ذلك
الاسم وكأنها رغبت في أن تتلفظ به والفتاة في آن معاً . وأضافت :
أعرف اسمها . أهي غنية ، تلك المرأة ؟

— أؤكد لك أنني لا أعرف عن الأمر شيئاً .

— ينبغي أن تستعلمي ، يا حبيبتي أنجيل . أقول لك هذا لأن المسيو
بلوندر اشترى لك التو معطفاً جديداً . أنت لم تريه بعد . فاللون
بشع لكن القماش جيد . ومن المؤكد أنه لم يتمكن بمرتبته من دفع
ثمن ذلك المعطف . فأنت تعلمين أن ما يقبضه المسيو بلوندر من
وكالة فالتر لا يكاد يكفي إلا لمصروفه . ولقد قدم لك من جهة أخرى،
عشرة فرنكات في شهر أيلول . فمن أين جاء بذلك المال ؟ لقد خطرت
فريته في لوت — غارون ببالي . لكن السؤال هو : لم ترسل ذلك
المال إليه ؟ أهو قرض ؟ أهو هبة ؟ ومهما يكن من أمر فلا تتخلي
أنني كنت سأعد المسيو بلوندر بأنك ستخرجين بصحبته يوم الأحد،
لو لم يأت ذلك المعطف ليقدم لنا ضماناً جديداً .

— وعدته دون استشارتي ؟

— أجل . فالمشكلة تبقى إن كان ينبغي أن استشيرك كلما سنحت
فرصة مؤاتية . قلت لي إنني متأكدة من أنه قد تسلم المال .

- لا يهمني ذلك . لن أخرج بصحبته يوم الأحد .
- ماذا ؟ أخرجين بصحبة واحد آخر ؟
- كلا ، لن أخرج مع أحد .
- لن تخرجي مع أحد ؟ هل جننت ؟ فولي ؟
- كلا ، لست مجنونة . قلب إني لست راغبة في الخروج يوم الأحد .
- ما الذي يجعلك ترفضين السيد بلونديو ؟ إنه لطيف جداً .
- قد يكون لطيفاً جداً ، لكنه ينفرنني .
- هيا ، لا بأس ! طيب ، اذا كان السيد بلونديو ينفرك ، فخذني
السيد غيره .
- السيد غير ... كلا . أكرر لك القول إني لن أخرج مع أحد .
لا مع بلونديو ولا مع سواه .
- نهضت لتنقوه بهذه الكلمات الأخيرة وخطت بضع خطى فوق أرض
الفرقة وعليها مظهر تصميم منع المعلمة من الرد عليها فوراً .
- أخيراً قالت المعلمة :
- هذا فن جديد ، ما الذي دهاك ؟ لقد جئت إذن من أجل أن تقول
هذا لي ؟
- أجابت أنجيل وهي تستدير نحوها : إلى حد ما .
- فاستأنفت مدام اوندي تقول وهي تضبط نفسها : ولكني أهنتك .
وإذا كان الخير المقبل على هذا المستوى ، فسوف نعيش فرحة غامرة

حقاً . لكن هل لي أن أعرف ، دونما تطفل ، ما هو مصدر الرزق الذي
تعولين عليه لتعيشي ؟ وهل الأرملة برود هي التي سوف تتولى دفع
الإيجار عنك ؟

وردت أنجيل وهي تستند الى الطاولة : دفع الإيجار . ولكن لدي
الغرفة ...

نم توقفت ونظرت الى مدام لوند . التي مضت تقول :

— طيب ، لا بأس ، واصلي كلامك . قولي لى الغرفة التي مدام
لوند ت ... ت ... ماذا ؟ تعيرني إياها . وماذا لو أن مدام لوند
أوعزت إلي باخلاؤها ، في هذه الليلة بالذات ...

— يا خالتي ، أنت لا ننوين ...

— وما أدراك ؟

— لكنك لن تمدي الى طردي لاني لست راغبة في الخروج
يوم الأحد ؟

— وما الذي يحول بيني وبين ذلك ؟ هل فكرت بما تلحقين بي من ضرر
برفضك الخروج بصحبة زبائني ؟

— خالتي ، لدي شيء أقوله لك . ربما كان علي أن أبوح لك بمشاريعي
قبل الآن . أجل ، إنني أبحث عن مهنة أخرى . فماذا تقولين ؟
فمهنتي الحالية تتعبني ولا تدر علي شيئاً . فالجو في المصبغة
خائق ، بالإضافة الى ذلك الضغط الدائم على المكوى ... إنني
باختصار أبحث عن شيء آخر .

— شيء آخر ؟ ماذا ؟

— مهنة أقل قسوة وتدر عليّ أكثر . إليك مثلا ، خطر ببالي أن أصير وصيفة .

— وصيفة عند آل غروجورج على سبيل المثال ؟ — فقالت الفتاة وهي توشك أن تجهش بالبكاء :

— لم تسخرين مني يا خالتي ؟ اني اتكلم جادة . وانت تعلمين حق العلم أن ذلك مستحيل مع المسيو غروجورج .

— لكن ذلك لا يفسر لي رغبتك في عدم الخروج يوم الاحد .

— أريد بالضبط أن أبحب عن مكان يتيح لي الاستغناء عن هؤلاء الناس ، عن المسيو غروجورج وعن ذلك الاحمق بلوندو ...

فصاحت مدام لوند وهي تهب واقفة على حين غرة :

— ماذا تريدن ؟... هل جننت ؟ وتدعيني أواجه أعباء الزبائن وحدي ...

امتقع لونها تماما واقتربت من أنجيل التي انتظرتها دون أن تتحرك قالت :

— وتنسين أنني أنا التي رببتك ؟

فردت الفتاة بلهجة فيها حزم أكبر :

— رببتني على نمط الصغيرة فرناند .

— أنا أربي الصغيرة فرناند حاليا ؟

— أجل تعلمينها أن تناديك « يا خالتي » متلما علمتني وأنا في سنها .

— وعلام يدل ذلك ؟

— يدل على انها ستصبح مثلي ، وانك ستعدينها وتقدمينها ذات يوم لزبائنك .

— انا اقدمك لزبائني ؟ انا ؟ هل اصابك مس لتقولي هذا الكلام ؟
لم اعد افهم شيئاً مما تتفوهين به ، يا ابنتي .

— هكذا اذن ! أما حين ارجع مساء وتدخلين الى غرفتي لتسأليني كم تقاضيت مالا من المسيو بلوندو وكم تقاضيت من المسيو غونسولان فقد لا نفهمين لماذا اعطيناني مالا ؟

— ليس علي أن اراقبك . ولا يعنيني ما يجري بينك وبين هؤلاء الرجال .

— حقاً ! فكل ما يعنيك هو أن تختلسي مني معلومات عنهم كي تباهي بها وانت تحت ، في المطعم ...

— لكن أيتخيل احد ... ان كنت أطرح عليك بعض الأسئلة أحياناً فلكي اعرف من استقبل في مطعمي ليس غير . اتفهمين ؟ فانا لا أستقبل مندي أيا كان . وينبغي أن أكون على اطلاع ...

— وتستخفين تماماً بما يمكن ان يكلفني ذلك ؟ ويحتمل انك لا تعرفين ماذا يفعلونه بي ؟ ولا الى أين يصطحبونني ؟ الى أين يأخذونني ؟

امتقع لون مدام لوند . ثم قالت :

— قلت لك إنه ليس من مهمني أن اراقبك . فأنت بالغة راشدة ...
وهذه الامور لا تعنيني .

فقال الفتاة :

— طيب ، أفضل على أي حال أن أنصرف فلن أبقى في دار السوء
هذه ، من بعد .

— آخرسي . آخرسي . أسمعين ؟

— لا تقتربي مني والا صرخت ! أجل ، ففي هذه الليلة سوف
أصر حوائجي . أتعرفين أنك ما عدت تخفينني ؟ وسوف تطعنين في
السن يوم لا تعترين على من يتولى التجسس على زبائنك ، أيتها
العجوز البائسة .

وقامت بحركة نحو الباب ، لكن مدام لوند انتصبت أمامها تحديق
فيها ويدها على وركيها ، وقالت بصوت قاس وهادئ :

— لا تغلطي ، يا ابنتي ، فلدي من يحل محلك تماما ، فتاة مرغوبة
جدا وهي قبلة الانظار .

فسألت أنجيل على غير ارادة منها : من هي ؟

لم تجب مدام لوند على الفور ، وظلت عيناها تحديقان في عيني
الفتاة . وأخيرا قالت :

— فرناند .

— فرناند . وتجريين على تقديم طفلة في الثالثة عشرة الى هؤلاء
الرجال ؟

— يا لهذا الكلام . أقدم لهم ! هؤلاء السادة يتلطفون باصطحاب
فرناند معهم حين يخرجون الى النزهة . اني اعهد بها اليهم . هذا
كل شيء . والاهل يعرفون . فليس لدي ما أخفيه عنهم ، والبنت
مسروقة جدا .

— و أنت ، كم تأخذين لقاء ذلك ؟ كم تدر عليك فرناند ؟

— كم تدر علي ؟ ومن تحسبيني يا وقحة ؟ اعلمي أن أم فرناند في منتهى السعادة لما أقوم به حيال ابنتها . ولو كانت هنا لصفعتك منذ وقت طويل من أجل أن تتعلمي احتراممي .

احمرت الفتاة بشكل مباغت كأنها نلقت فعلا الصفعة التي أشارت اليها مدام لوند ، وأوشكت أن ترد عليها ، لكنها استدركت مكثفة بالقول :

— أنا ذاهبة ، دعيني أمر .

فهتفت مدام لوند بكل ما أوتيت من عزيمة : « اذن ، كلا » . قالت ذلك وهي تشد بأصابعها على معصم أنجيل :

— لن ادعك تجلبين الدمار لنفسك ! قولي ، الى أين ستذهبين ؟

حاولت أنجيل التملص .

— دعيني . اريد الانصراف .

— الانصراف الى ابن ؟ اليك ، هاقد تركتك . تريدان اعداد حقيبتك ؟ حقيبتك ملك لي . انظنين أنهم يستقبلونك في الفندق بصرة ثياب ؟ ذلك اني أمنعك من مد يدك الى الحقيبة ! يا بنيتي ، أنت تخفين عني شيئا . لا تنكري .

— هذا غير صحيح !

— أنك تخفين عني شيئا . كان علي أن اتبين ذلك من قبل . فحين رأيتك ندخلين بنظرك الزائفة وضحكتك العصبية ، ساورتني الظنون فورا . في حياتك شيء ما . قولي ماهو ؟

كادت الفتاة تحت تأثير من اليأس والارهاق أن تستسلم وأن تحيب لولا أن راودها بفتة شعور غامض بأنها في خطر ، فأمسكت سلتها وتراجعت نحو الباب . فالفزع رد إليها طاقتها كلها . فقالت بحدة :

— دميني وشاني . وإذا تدخلت فيما ليس من شأنك ، فسوف أرحل حالا . وعشا تكابرين ، لأنني يوم أرحل لن تقوي على الاحتفاظ بربون واحد من زبائنك .

فهتفت مدام لوند وهي تمتشي نحوها :

— ماذا ، وتجربين على تهديدي أيتها الوقحة السفهية !

الا أن الفتاة فتحت الباب وولت الادبار .

أول ما كان سيصدر عن المعلمة أن تجري وراء التجيل وأن توسعها ضربا ، لكن ببطء حركة ساقها ما كان سيتيح لها ملاحقتها فوق الدرج وفي الشارع من بعد ، كما ارتأت أن من الأفضل ألا يعرف الناس بذلك النزاع العائلي . لذا اكتفت بفتح النافذة ، ومتابعة الفتاة وهي تعبر الساحة باستعجال ، بنظرات أثقلها الغضب .

« يا ندلة » قالتها في فكرها وهي تغلق النافذة . « يا ندلة » .

ودفعت الكنبه بعنف وأزاحت المقعد الخشبي ، اللذين اعترضوا طريقها ، ومشت بضع خطى نحو سريرها . كانت هذه الفتاة على حق بلا أدنى شك . فالزبائن الآن وقد أخذوا يستسيفون ذلك اللون الإضافي الذي تقدمه اليهم مدام لوند ، لن يقبلوا أبدا بفكرة الاستغناء عنه . وليس قولها على طلبهم فرناند بصحيح . فأنجيل هي التي تلزمهم ، أنجيل بوجهها المليح ومظهرها كفتاة صالحة . الندلة . منذ ثلاثة أشهر بدأ الغرور طريقه الى رأسها بتأثير كلمات المديح والاطراء .

جلست المعلمة على حافة السرير وتأوهت متفكرة في المرحلة الزمنية المنصرمة حديثا . يوم كانت الفتاة شديدة الطاعة ، تامة الخضوع . كانت تأتي في أماسي الأحاد ، وأحيانا في بحر الأسبوع ، لتسرد على مسامعها ما استخبرته من هؤلاء وأولئك بأمانة ساذجة . حتى أنها لم تكن تميز دوما بين المجدي وغير المجدي . وهكذا تروي مدام لوند الظمأ الرهيب لفضولها الذي ينهشها على نحو دائم . فالعيش بين أناس مجهولين كان مستحيلا عليها . فكل قادم جديد هو في نظرها عدو لابد من محاصرته والسيطرة عليه ، وكان الانفعال الذي يستولي عليها بتأثير ذلك ، شاقا وعذبا ، لا يماثله سوى شغف الحب ولهفته . فسيطرتها على فريق زبائنها تنأت لها عن طريق معرفتها الدقيقة بأصغر تفاصيل حياتهم اليومية . وكان شغفها ذاك يضخم الأشياء . فالتفصيل الذي يعتبر لدى فضول أصغر من فضولها طبقا هزيلا ، يعتبر لديها وليمة ملكية . فما من شيء لديها ضئيل القيمة . وقد جعلها هوسها الجنوني بتسقط الأخبار تتلقف كل شيء بنهم دون تمييز فمصدر ربطة عنق ينير اهتمامها وتشوقها بنفس الدرجة التي يثيرها مصدر ثروة طائلة . فالسراة لا تعرف التمييز .

لكن ، من المفارقات الغريبة أن الطبيعة حرمت تلك المرأة من مواهب التنجيم التي كان ينبغي أن تمنحها إياها ، واكتفت بالقائها بين برائن أشد الفرائز الحاحا على وجه الأرض من غير أن تزودها بوسائل تهدئتها . أما الموهبة الوحيدة التي كانت من نصيب مدام لوند فتمثلت في قدرتها ، لا على الكشف عن سر ما ، بل على اكتشف وجوده فهي على علم دائم بوجود غموض لا يسمها أبداً أن تتوصل إلى جلالة بمفردها . ويشبه ذلك إحدى سخریات الفدر ، إذ لولا ذلك ، لتمتعت في حالة التعتيم التام ، أن لم يكن بالسعادة ، فبطمانينة الجهل على أدنى تقدير . وما كان لسفها أن يعرف الراحة قط . هناك صوت يدوي على الدوام ويطرق أسماع تلك المرأة الشقية . ويصيح ذلك الصوت : « هناك شيء ما . ما هو ؟ لم يبدو هذا الرجل الغني حزيناً ؟ لم لا

يرتدي ذلك ملابس الا من اون واحد ؟ لماذا يصل فلان الى المطعم متخلفا
عن الجميع مدة ثلاث دقائق بصورة دائمة ؟ لماذا ؟ »

وتتولد تلك الاسئلة داخل ذهنها في كل وقت وتعمدها . وقد بلغ
بها الامر حد الظن بأن الناس يتخفون منها ، فاستولى حينئذ على
روحها حقد عام تجاه الناس كلهم ، بحيث ينبغي ، اذا ساءت أن تجد
برهة من الراحة ، أن توافيها أنجيل باجابة شافية على الالغاز العديدة
المشورة على دربها اليومي من مطلع النهار حتى نهايته . ونأتي الاجابات
دائما مخيبة لامالها . فليس من تناسب يذكر بين لهفتها المسعورة
لمعرفتها وبين المتعة التي تمنحها اياها . فتقول في نفسها : « ألم يكن
غير ذلك ؟ » ويمتلئ قلبها حقدا دفينا على أنجيل التي لم توافها بالفنيمة
الرائعة من الاسرار التي تتوق دوما اليها . وهي لم تستوعب بعد ،
رغم أنها تجاوزت الخمسين ورغم تجربتها الفضولية الطويلة ، أن
هوسها ذاك لا يرمي الى تحويل المجهول الى معلوم بل الى البحث عن
المجهول لذاته والعيش ضمن نطاقه . وقد يكون ذلك ما سعت الطبيعة
الى افهامها اياه بحرمانها من الحدس الممنوح للنساء بصورة عادية .

ومع ذلك ، فتلك المرأة الخلد كانت تريد أن تبصر ، وكانت معونة
أنجيل شيئا أساسيا بالنسبة لها ، لان الفتاة ، وهي اقل عمقا من
المرأة التي تناديها « خالتي » ، تتمتع بكل الصفات التي تجعل مزاج
الرجال صالحا للبوح بالاسرار . لقد تولت مدام لوند تربيته على نحو
ما تقوم حاليا بتربية فرناند الصغيرة ، لكن أنجيل أخطأت حين نسبت
اليها النية في تحقيق أرباح ، لان المعلمة لم تكن قط بخيلة . حسب
المرء من النقائص واحدة . وما من شك في أنها طالبت أنجيل بدفع
نسبة مما تكسبه ، لكن ذلك الامر كان نادرا ولا يقع الا في أواخر الشهر
حين تصبح الموارد شحيحة . لكنها تقدم للفتاة مقابل ذلك غرفة بائسة
الى حد ما ، وهي حقيقة لا تنكر ، بالاضافة الى كل الوجبات تقريبا .
لذا كانت تجد نفسها دوما في موقع قوة اذا ما فكرت أنجيل بالانصراف
فأين ستجد من يقدم لها الطعام بلا مقابل ؟ وغرفة بلا مقابل ؟

حصلت فيما مضى ، ولمرات عديدة ، مشاحنات بين مدام لوند وأنجيل ، فالفتاة نفذ صبرها . وبدأت أكثر تبرّما مع مرور الوقت . لكن لم يسبق البتة أن كلّمت معلّمتها بمثل تلك الصراحة القاسية ، أو عبّرتها بعبيرها الفظيع . وعلى ذلك فهي بكلامها مع مدام لوند عن فضولها لم تسبب لها صدمة فقط ، بل باغتتها . وقالت المعلّمة في نفسها بمزيج من الدهشة والغيظ : « فضولية ! هذه الصغيرة البائسة تقول عني فضولية ! ولكن لا بد لي من أن أتعلم عن الناس الذين استقبلهم على مائدتي . » ثم مضت تقول في داخلها بمهارة المخادع الذي يتواضع كثيرا حين يكذب على نفسه : « لو كنت فضولية حقا ، لاهتممت بمعرفة ما تفعله مع زبائني . » ثم أضافت بنبرة عالية ، وبنوع من الرخامة في الصوت كأنها ترفع في محكمة :

— ولكنّ ذلك لا يعني .

إنّها تعرف في الواقع ذلك النوع من الامكنة التي يقصدها الزبائن مصطفيين أنجيل ، لتردها عليها أيام شبابها . ويظل خيالها مطمئنا من هذه الجهة ، فغريزتها تنبهها إلى أن من الحكمة عدم الخوض في تفاصيل هذه العلاقات التي تعرف جوهرها الأساسي . وبدأ لها أنه ما دامت تتظاهر بتجاهلها فهي في مأمن من اعتبارها مسؤولة . إلا أنّها يوم الأحد ، وهو موعد ما تدعوه بكل عفّة (طلعات) أنجيل ، تظل عصبية ومضطربة إلى حين رجوع الفتاة متفكّرة بانزعاج لا تسعى إلى تفسيره ، في كل أشكال الهز التي لا بد لريببتها من تحملها . وعبثا تكرر بينها وبين نفسها « وماذا يعني من كل ذلك في نهاية الأمر ؟ » فالطمأنينة لا تعود إليها إلا وهي تسمع أنجيل صاعدة إلى غرفتها .

وها هي أنجيل الآن بدورها تخفي شيئا عنها . ها هو الشخص الوحيد الذي تحسب أنّها تعرفه حق المعرفة يفعل كالأخرين فيتهرب منها . وبدأ لها الأمر على درجة من الظلم حتى أوشتك ألا تصدقه .

قالت في نفسها : « فعلت ذلك لتأكيد عيشي . تأكيد عيشي أنا !
 بم أسأت إليها ؟ لقد رببتها . أكلت خبزي ونامت تحت سقفي طوال
 أربعة أعوام بحالها . »

وهزتها لحظة ضحكة صامتة فقررت بينها وبين نفسها إعطاء خفيين
 جميلين لأنجيل . لكنها عادت فتذكرت على حين غرة نظرتها ونبرة صوتها
 فتملكها اليأس . واثت بصوت عال :

ـ لماذا لم أراقبها على نحو أفضل ؟ في حياتها شيء ما بكل تأكيد .
 وها هي الآن تغلت من يدي إنها غلطتي ، غلطتي أنا .

وتشنجت قساماتها لعنف الألم الذي اعتصرها وأرغمها على القيام
 والمشي في غرفتها كأنها لم تعد تدري ماذا تفعل بجسمها . وارتعشت
 الدموع في عينيها السوداويين فأسبغت عليهما بريق طلاء الخزف .
 وبدأت لها بفتة ، وسط رؤيا مرعبة ، حياة العزلة وأمناسي القلق
 الطويلة . فكيف أمكن لها أن تتحدث على رحيل أنجيل بذلك الاستخفاف؟
 إنها لم تكن تدرك حقيقة ما قالته . فالموت أهون بكثير . أجل ، يبدو
 لها أن التواري والفناء أسهل عليها من أن ترى زبائنهن ينسحبون من
 حياتها واحداً إثر واحد ، حاملين معهم الأسرار التي كانت ترى دلالتها
 على وجوههم أو في حركاتهم بل في ملابسهم . فمن الذي سيبقيهم بعد
 اليوم ؟ وخطرت بباليها فرناند ، لكن لا ! يستحيل عليهم البوح بأسرارهم
 إلا لفتاة كبيرة ، وما تزال فرناند في جميع الأحوال صغيرة جداً . وعلى هذا
 الأساس إذن ستحل نهاية المطعم . وهي ستكون الشاهدة على خيبة أمل
 الزبائن ثم على نقمتهم العامة . وجاءت رغبة غريبة لتهوي بها الى أسفل
 دركات الإذلال وتمزق قلبها ، فأرغمتها على أن تتخيل وجه المسيو بلوندو
 وهي تعلن على مسامعه أن أنجيل لن تأتي من بعد ، ووجه المسيو غونسولان
 ومن بعده باريزيه وتريبت . وتخيلت أصواتهم ، سمعت أصواتهم بنبراتهما
 النباحية ، الفاضبة ، المتوسلة . وانتابها دوار . كانت وراء مكتبها ،

متسجنة الأصابع حول إناء الزهر الصغير ، شاحبة ، واقفة تقدم
التفسير والتبرير .

التصق كفاها بوجهها الملهب تأثراً وخجلاً . لابد من منع الفتاة
من الرحيل . ليتها تستطيع فقط أن تتوصل الى اكتشاف السبب
الذي يدعوها إلى مفارقتها .

تم قالت بصوت قوي وهي تشير بحركة آمرة :

— على كل حال ، سوف تبقى هنا . ولكن ماذا تخفي عني ؟

وقعدت تم قامت على الفور .

تأوهت وهي تستأنف مسيرة لا تعرف الكلل داخل غرفتها :

— لكن يجب أن احرف ، ليس من العدالة في شيء الا تخبرني .

ماهذا ؟ ما الامر ؟

كان شكل معدني للمسيح ، معلقاً فوق سريرها ، باسطاً ذراعيه
فوق صليب من القטיפه . فتوقفت فجأة أمامه وشرعت تتأمله بنظرة
مشغولة بفكرة بعيدة . وبفتة رأته . بدأ برأسه المائل وعينييه المغمضتين
في الهيئة المرهقة لتلك المرأة ومشهد قلقها .

وكررت تقول كأنما تتوجه بكلماتها الى الكائن السماوي :

— ما الحكاية ؟

مرت بضع دقائق من غير أن تقوم بحركة وغرقت في تأمل ورع
لمصبتها ، فعادت إليها طمأنينة ظاهرية على الأقل . وكان يتبين من

الأخاديد العميقة التي ظهرت على وجهها ، أن أفكارها قد ساقتها الى
مهاور من الحزن فتاهت فيها . واكتست السماء وراءها لونا أكثر
شحوبا ، يزينها زنار متورد فوق السطوح يعلن أن طقس الغد جميل .
وهاهي أشعة الشمس الغاربة قد توزعت عبر معينات النافذة ، لتؤدي
الى التمايع البلاط ، ونمر ببطء فوق الجدران . وأخرج وهج النور
ذاك مدام لوند من تأملاتها . فتنهدت وضمت يديها مغمومة . وانحدرت
الدموع التي عجزت عن حبسها حتى الساعة فسالت على جانبي أنفها
الكبير المهيّب .

وتمتت :

— اذا ما ارتحلت ...

لكن صوتها تهدج فلم يسمح لها باتمام كلامها . فاطرقت
رأسها ومشت بضع خطى من سريرها الى كنبتها الى وسط غرفتها ،
وعليها هيئة مسافر ضل طريقه داخل غابة .

وبعد برهة قالت متعجبة وهي تسمع النادل يدلف الدرج ليتوجه
نحو المطبخ :

— يالهي ، تأخر بنا الوقت . فالطعام يقدم بعد ثلاثة أرباع الساعة.

حلت يداها ، من وراء ظهرها ، عقدة تنورتها التي مالبثت أن
انزلت فوق وركيها الضخمين . إذ ينبغي في الواقع أن تبدأ العناية
بهندام المساء . وأن تلبس حلة التفتة المخصصة للعشاء . لكن قلبها كان
يتفطر مرارة فأخذت تذرف الآن دموعاً حارة وهي واقفة وسط سناء
الأصيل ، لا تلبس إلا صدار الصرج الباهت وتنورة داخلية من قماش
النشاف رمادية اللون تكشف عن كاحلين هائلين لامرأة عجوز .

* * *

- ٩ -

بعد أن عبرت أنجيل الساحة ، سلكت درباً يدور حول لورج مسائراً مجرى النهر واتجهت بعدئذ نحو شانتيليا . ذلك أنها اعتادت ، حين يتوفر لديها شيء من وقت الفراغ عند نهاية النهار ، أن تستغلها فرصة للقيام بجولة قصيرة في المدينة ، والتوجه بتحية المساء الى هؤلاء وإلى أولئك ، لأنها لا تحب العزلة . أما كلمات المجاملة العادية التي تتبادلها مع جيرانها فلها وقع عذب على قلبها . إن حاجتها لأن تكون محاطة بالناس وأن تلمح البسمات على الوجوه لدى اقترابها وترى الأيدي تمتد لمصافحتها ، قد نشأت لديها منذ وقت طويل . شأنها شأن الذين هودهم حسن وجوهرهم على سماع كلام المجاملة وتلقي الترحاب من الجميع . وهي لم تكن تجهل البتة أنهم يدمونها بقسوة ، وأن العديد من الناس الذين يسمعونها عندما يلقونها أعذب الكلام ، لا يتوانون عن النيل من سمعتها في الأحاديث المتبادلة فيما بينهم . لكن الأمر لديها لا يعني شيئاً . فظاهر من المودة يكفيها . وهدوء بالها منوط بما تلمسه لدى الناس الذين تلقاهم كل يوم من مزاج واثق أضف الى ذلك أن الألم يجتاحها لتفرق في حزن عميق لقاء كلمة قيلت بتبرم هنا أو سحنة بدا عليها التجهم هناك . ومن شأن ذلك أن يفسر سهولة خضوعها للذين لاحقوها وغازلوها بدءاً من عامها السادس عشر . وجاءت موافقة مدام لوند الضمنية لتدعم ميلها الخاص الى أن تكون محبوبة ، وأن تكون « بنتاً طيبة » . فانسأقت بكل يسر لمعاشرة هذا وذاك ، سعيدة بما يفدقه عليها الجميع من مجاملات وملاطفات . ولم تضايقها السمعة التي اكتسبتها على هذا الأساس في شيء ، لأنها لم تكن لتتخيل أن الوضع يمكن أن يكون على غير ما هو عليه ، مثلها في ذلك مثل كل الذين لا يعرفون المقاومة

بظبعمهم . وكانت الحياة تبدو لها شبيهة على نحو غامض بنوع من « الحظ » ، فيها الممتع وفيها المزعج تبعاً للحظ الذي قد يحالف المرء وقد يعاكسه ، لكن كل ما فيها محتوم . حتى لتبدو لها فكرة وقوعها في الخطأ غريبة كل الغرابة .

وهكذا كانت مبادرتها الأولى في ذلك المساء أن تبتعد عن لورج متحاشية بذلك حضور خالتها . لكنها وهي بمرأى من كنيسة سان جود ، لم تصمد أمام الاغراء في دخولها . كان بناء الكنيسة من الطرازين القوطي والرومي . وجرى تجديدها في القرن السابع عشر . وهي واحدة من تلك الكنائس التي تدوي حزينة في عالم النسيان ، لأنها شبه فارغة على الدوام . لكن أجيالاً من المؤمنين خلفت فيها نوعاً من ذكرى ورعها . وعندما دخلت الفتاة الى نحت جناحها ، كان الظل قد غمر موضع الجوقة . ولم تعد الأعمدة الكورنثية المتعاقبة مع الأقواس القوطية تشاهد إلا بمشقة . فجلست غير بعيد عن البوابة تلتقط أنفاسها قليلاً وهي تنظر الى ما حولها .

كان يستهويها أخذ قسط من الراحة في كنيسة سان جود من غير أن تكون تقيّة . ولا تتعدى حدود إيمانها تلاوة صلاة قصيرة بين وقت وآخر ، مع وجود إحساس مشوش بأن الأمر لا يشكل التزاماً كبيراً من جانبها وأنه لا يمكن أن يعود عليها بضرر . ثم إنها لم تكن راضية عما يبدر عن زبائن خالتها من استهزاء بالكاهن . وهذا كل شيء . فالطقوس الدينية تبعث فيها السأم .

أحست على أثر انفجار الغضب الذي وقع قبل قليل بالضرورة في أن تمكث ساكنة بعض الوقت ، وأن تتفكر في كل ما قالت وكل ما وجه إليها من قول . فدويّ صوت مدام لوند الغاضب ما زال يتردد في رأسها . وليس لما حصل اليوم أيّ منيل سابق في حياتها الرتيبة . فما من أحد أغلظ لها في القول على نحو ما فعلت خالتها ، ولم يسبق أن رأت في عيني إنسان بريق غضب على تلك الدرجة من الشدة . أثار ذلك

المشهد اضطرابها . وكان يشبه يداً قوية جبارة تهزها على نحو مباغت لتخرجها من سبات طويل . فهي قد صدقت طوال أعوام ، إطلاعات الرجال وكلمات مدام لوند المفنجة ، حتى أنها استعدت كل الظنون في أن أقوالهم العذبة وابتساماتهم ليست صادقة . وها قد عرّض أمامها على حين غرة مشهد حقيقي لامرأة ذهب الخوف بعقلها فنهضت تلهث وتضطرب وتتسبب بيديها لتحول دون رحيلها . فانتابها هي نفسها نوع من الفزع حتى إن قلبها ما يزال يخفق بعنف بعد انقضاء ربع ساعة ، دون أن يقوى على استعادة إيقاعه المألوف .

حاولت أن تعود الى حالتها الطبيعية فبدأت تتلو « السلام عليك يا مريم » لكن الأفكار المتولدة في ذهنها كانت أقوى من كلمات الصلاة ، فواصلت شفتها الحركة من غير أن تعرف نفسها الطمأنينة . لقد رأت غريبه لأول مرة في أحد شوارع سانتيليا وكان الوقت أصيلاً . فبمضى على إثرها بعض الوقت ثم سار بمحاذاتها ثم بادرها بالكلام لكن بطريقة مبالغتة حتى حسبت بادئ ذي بدء أنه في حالة غضب . وانتابها الشعور بأنه في عجلة من أمره ليقول لها شيئاً ثم يمضي في سبيله . ولم يتطرق في كلامه معها للذكر المال بل سألها فقط أين يستطيع أن يراها نانية . فضربت له موعداً . لكن على مضض . لأن له طريقة غريبة في نطق الكلام وكان أحداً يسند على خناقه ، ولأنه كان يشيح بعينيه حين تنظر إليه . إلا أن شعوراً من حب الاستطلاع دفع بها نحوه . ليس من شك في أنها أحست بالخيبة لأنه لم يقدم لها شيئاً ، لكن أحست معها بالدهشة ، وكانت الدهشة في نهاية المطاف أقوى من الخيبة . فهل قدمت الى الموعد لأنه أثار فضولها ؟ ذلك أنها لم تر شيئاً من الوسامة لا في وجهه القلق ولا في قسماته المهزولة الدابلة . أما منكباه العريضان المقنطران فولدا في نفسها خوفاً لم تدرك له سبباً . لقد بدا كمن ينوء تحت عبء ثقيل أو يرغب في التخفي كواحد من الجناة . وهو لم يخرج يديه مرة واحدة من جيبه ذلك المعطف الرمادي المنسدل حتى ينتصّب ساقيه ، لكن بدا لأنجيل رغم ذلك أنه كان ممسكاً بذراعيه ومعمّميها طوال فترة الحديث . وقد

يعود السبب للالحاح الذي نظر به الى ذراعيها ومعصميهما لأنه لم يرفع عينيه إليها البتة .

جاءت الى الموعد على كل حال . اما وقد وقد أخافها ، فكيف حددت له مكانا منعزلا في آخر النهار ؟ ومن الذي يفامر بالحضور ناحية العبارة بعد غروب الشمس ؟ وتذكرت أنه هو الذي اختار طريق العبارة وانها وافقت دونما تفكير لتتخلص منه دون شك . وعندما وصلت رآته في انتظارها ، وبدأ من فوره في التحدث اليها ، فشرعت هي ، وقد تولاهما الذعر ، في السبر أسرع منه قائله إن المكان غير مناسب وإنها لا تريد أن يراها أحد بصحبة رجل . فالت ذلك طمعا في كسب الوقت رغم أن كل خطوة تخطوها كانت تبعدها أكثر فأكثر عن المدينة وعن المنازل المأهولة . وراودتها فكرة الهروب والاحتماء داخل دغل . لكن ماذا لو عثر عليها ؟ لقد قرأت قصصاً عديدة عن نساء قتلن وسط الأحرار . وهو الآن يجري وراءها . فتوقفت وقلبها يخفق وكلمته بنبرة حازمة على نحو ما يفعل المرء مع حيوان هائج بقصد إرهابه .

لحق بها قرب العبارة وكلمها بنمط على نحو ما كانت تتوقع ، لكنها صمدت أمامه متكئة على فزعاها ومتصنعة الغضب ، ولشد ما كانت دهشتها حين بدا يمتلئ اليها . بعدئذ اجتازا العبارة وحين صارا على الطريق في الجهة الثانية من الخط الحديدي ، قدم لها خاتما ، واكتشفت في تلك اللحظة أنها كانت غبية لشعورها بالخوف من إنسان وجل على شاكلته ، وقبلت الهدية ، وقد امتلأ قلبها ازدياء نحو ذلك الرجل ذي العينين الكسيرتين . قبلت تلك الحلقة التي سعى لأن يدخلها في إصبعها . لأنه بات الآن ممسكا بذراعها ، فلم يبق الأمر وهما ، ورأت فوق ذراعها الأبيض البض الجميل يداً ضخمة كثيرة العقد ، وهي ترتجف . لكنها لم تعد تخشى تلك اليد مهما بدت جبارة وقبيحة ، بل لم تعد تشعر بغير الشفقة على حركاتها الخرقاء . وعيل صبرها ، فأمسكت بالخاتم ، وهو غير ذي قيمة ، فذلك يرى لأول وهلة ، ووضعته بنفسها في إصبعها .

قالت في نفسها : « يا للفارق الكبير بينه وبين زبائن الخالة ! » فأولئك لا يضيعون الوقت في تصرفات حائرة مضحكة ، ولا يتوانون قط عن دفع المال الذي من شأنه التمهيد لهم كي ينالوا حظوة لدى أنجيل . صحيح أنها تتعامل اليوم مع رجل غريب ، لكن هل يوجد حقاً رجال على تلك الدرجة من البساطة والغباء ؟ وبدأ الخجل الذي يعاني منه ذلك الرجل ينتقل إليها ويضايقها . لأنها لم تكن معتادة على مثل ذلك الصمت ، وذلك الموقف المتسم بكثير من المراعاة والخضوع . ولم يكن يساورها من شك حول ما يتغيب عنها ، لكنها شعرت بأنها عارمة تحت تأثير نزوة رهيبة من نزوات طبيعتها ، على أن ترفض منح أي شيء لهذا الرجل لأنه لم يكن يزدريها .

ثم قابلته مرة أخرى . فقد كتبت إليه من تلقاء ذاتها حين بدا لها أنه يتلصق عمداً في طلب موعد نان منها . وربما كان يسعى إلى تناسيها والتخلص منها . وبدأت راغبة الآن ، حين لم يعد يفرعها ، في معابثته ، والاصغاء إلى ما يسع الرجال الذين على شاكلته أن يقولوا لأمراء ، والنظر إلى سمحتة . واستعذبت نفاد صبره وألمه وغضبه . واستمتعت بالحفاظ على هدوئها أمام إنسان مضطرب ذلك الاضطراب العميق . ولا يسمعها في واقع الأمر أن تشك في أن ذلك الرجل يتعذب . ولم يكن لعذابه ذاك أن يدعها غير مكتثرة به ، بل كان على العكس من ذلك يثير متاعرها . حتى لتحس أحيانا بدافع مفاجيء من الشفقة ، فتري نفسها وهي توشك أن تمسك بيديه وأن تمسح على جبينه ، من أجل أن ترى فقط جرحه يندمل ونرى الفرح يتجلى في عينيه . إلا أن الغرابة القصوى في هذا الأمر تتمثل في أنها كانت تكبت ذلك الدافع على الدوام . فربما كانت تخشى مدى السام المترتب على ذلك التصرف السخي : فمثل ذلك العربون لا بد أن يستدعي عربونا آخر وهكذا دواليك إلى أن تستجيب في نهاية الأمر لرغبة غريبه ، لكن هذه الاستجابة لم تكن تروق لها ، أضف إلى ذلك الخطر المتمثل في أن يراها أحد . فيوم رآها مثلاً للمرة الثالثة في أسفل جادة البريست ، كان يكفي أن يمر أحد وهي تمد إليه يديها لتكون

المدينة كلها على علم بالامر بعد ساعة واحدة فقط ، وكانت تختسئ أن ،
يكتشف أحد مكيدتها الصغيرة تلك ، لأنها كانت تشعر بالخزي لوجودها
مع ذلك الرجل .

كانت بسببه تسعر بالخزي وهذا ما جعلها تضرب له موعدا بعد
الغروب أو في مكان مقفر ، كالمرة الأخيرة قرب النهر . كان يبدو طويلا
جدا وذا شكل غريب في معطفه الفضفاض ، أما وجهه الطويل الحزين
فمن شأنه أن يثير ضحك الناس الساخرين . والمدهنس حقا أن تبدو فتاة
مثل انجيل مضمعة الى ذلك الحد . حسب المرء أن يلقي نظرة على مطعم
لوند أثناء العشاء ، والزبائن بكامل عددهم ، ليرى أن السادة الذين تجود
عليهم بعطفها ، ليست وجوههم أكثر ملاحظة ، ولا أشكالهم أكثر لياقة
من الرجل الذي أبدت حياله كل فسوة . الا أن هذه الاجسام القبيحة
وتلك الوجوه التي وسمها القباء بميسمه ، كانت غير مبالية بها . وبدا
لها أن زبائن خالتها هم على هذه الحال منذ أن كانوا . ومن غير المعقول
ان يكونوا على غير ذلك النحو . وكان هذا الواقع يشكل جزءا من
حياتها مثله في ذلك مثل حجارة المنازل التي يقع عليها نظرها يوميا ، ومنل
حوافي السوميات ، وأشجار الدلب الصغيرة التي تزين طريق النزهة .
لكن الوضع كان مختلفا جدا مع غيره الذي يثل في نظرها عنصر المصادفة .
هذا اذا كانت قد وضعت ذلك في حساباتها . لذا شعرت نحوه بالفطور لأنه
لم يكن وسيما ، كما أحست بالمهانة لأنه لم يكن أكثر شبابا وأكثر غنى
ولان له يدين غليظتين وأكماما متسخة وبسب هيئته المدعورة . أما
كانت جديرة بغير ذلك ؟ بأي فرح كانت ستنتلق في مفامرة خيالية
وبصحبة فتى في منل سنها ، مليح الوجه يتفجر نشاطا ! لكن بدلا من
ذلك . . . ان القدر ليستهزئ بها حقا .

أحست رغم كل شيء بأنها ملزمة بالعودة لمقابلة ذلك الرجل ، رغم
ضالة ما شعرت به من رضى فأضحت مثل لاعب يرفض الانسحاب من
جولة بدأت ، فيستمر في لعب لايجني منه غير السأم ، حريصا على أن
يرى كيف ستنتهي . ألم تقطع شوطا بعيدا ، حتى أضحي التراجع

حاليا متعذرا عليها ؟ اذ لا يسمعها أن تقول لذلك الرجل أن ليس لها فيه من رغبة بعد أن قامت من تلقاء نفسها فضربت له موعداً .

وبدأت على هذا الاساس بمزيج من منطق مفلوط ونزوة هوى عابرة ، تختلق المبررات للقائه . ولقد توافق ظهور غيره مع فترة بدأت فيها أشياء كثيرة من حولها لا تثير فيها الا الاغتراب . ذلك أن العادة لم تقو على جعلها تقبل عن طيب نفس ذلك النظام المفروض على حياتها : عملها في المصبغة ، طلعاتها مع زبائن خالتها ، وتردها سرا على عدد من سادة المدينة . ففي ساعات معينة من العزلة ليلا ، حين تجعل شدة الحرارة النوم متعذرا ، أو في النهار حين تكون مرهقة بشكل لا تقوى معه على القيام بنزهة ، كان يتراءى لها مستقبلها كسلسلة طويلة من الاسابيع المتوالية والمتسabee فيما بينها ، أو المختلفة فقط بسبب الامراض وصروف الدهر . وبدأت تطرح على نفسها مئات الاسئلة ، بتأثير نزعة في نفسها للنظر الى الاحداث من اشد وجوها ظلمة ، فتبقى بلا جواب . ماذا سيحل بها اذا توفيت خالتها يوما ، واذا ما تبعثرت مجموعة الزبائن ، مورد رزقها المهيمن ؟ ماذا ستفعل لو حل بها ما حل بمدام بيلاتان ، بائعة اللحوم ، التي وفد عليها طفع جلدي تركها مشوهة ؟ لم تكن الاهمية بالنسبة لبائعة اللحوم الا نسبية اما بالنسبة لها ، فيا ملائكة السمء ! أن مورد رزقها الوحيد هو المهدد فعلا .

وها قد جاءها رجل مجهول . ليس رجلا كباقي الرجال ، فهو لا يشبه في شيء زبائن مطعم لوند الافظاظ الذين يشتهونها فيؤدون اليها الثمن ولا يفكرون فيها من بعد ؛ بل هو عاشق ، اجل ، رجل يجلبها ، فيا له من أحقق ، بل يقدم لها خاتما صغيرا وكأنها خطيبته . وهو لا يتعرض في حديثه معها لذكر المال أبداً . ثم بدأ يتسرب شعور غريب الى قلبها لشدة ما تفكرت في تلك الاشياء . انها لا تحب ذلك المسكين غيره لانه ليس وسيما ولا فتيا ولا غنياً . الا أنها راغبة في رؤيته . وعلى هذا فقد أحست بشوق اليه في تلك الساعة في تلك الكنيسة . وتمنت

لو سارت بصحبته على طريق ما ، فسمعتة يتكلم بصوته الخفيض ، الخافت قليلا ، ذلك الصوت الذي يتبدى فيه أحيانا شيء وحشي . وشعرت وهي أمامه بأنها جميلة وجبارة وسعيدة ، هي الصغيرة جدا في مواجهة ذلك الرجل الطويل والقوي . الا أنه يطرق الرأس ويفض الطرف أمام نظرتها .

لكن ما دام يعاملها على هذا النحو، فما من شك في أنه يجهل وضعها الحقيقي جهلا تاما . فبدأ التعامل معها على أنها فتاة أصعب منالاما هي عليه في واقع الامر . ومرد ذلك الى أنها لا تتخذ مظهر أولئك النساء اللواتي يصبغن شعورهن بلون أصفر فاقع جدا ويتجولن في جادة البريست ما بين الحادية عشرة ومنتصف الليل . ثم انها لا تضع على وجهها المساحيق والاصباغ ولا تلاحق في لباسها الموضة ، ولكن هل من علاقة تذكر بين تلك المخلوقات المفزعة وبينها ؟ ان اكثر الالسنه سلاطة في شانتيليا تحترس دون الخلط بينها وبين تينك النقيات . فهي متحفظة في مظهرها وخجولة . وهلا ما خدع غريه دون أدنى شك لكن ماذا عساه يقول ، لو نمى الى علمه يوما ، انها تهب نفسها لقاء المال مثل نساء شانتيليا ؟ سوف يلجأ بالتاكيد الى طرق أخرى حيالها فهل يضني المرء نفسه مع فتاة يستطيع أول عابر سبيل شراءها ؟

تنهدت بعمق وضمت كفيها . ليست فتاة يستطيع أول عابر سبيل شراءها . وليس أدل على ذلك من رفضها الخروج مع المسيو بلوندو . الا أنها لم تصمد في مرات عديدة ، واستسلمت لاشخاص كثيرين ، لانها دفعت نحوهم دفعا من قبل خالتها ، ولانهم يظهرون لطفاء حيالها لقاء ذلك الثمن فقط . ولكن هل عرفت شيئا من الفرح يوما اثناء تلك الملاطفات الكثيرة كلها ؟ لم يحصل ذلك . فطلعاتها بصحبة زبائن المطعم تملأ نفسها بالسأم والتقزز غالبا . ذلك ان زبائن مدام لوند ليسوا على شيء من الوسامة أو الشباب . لا بد أن يكون في العالم العديد من الفتيان الواسمين ، لكن نوعا من القدر قام بتجميع كل ما هو بائس وبشع عند خالتها . شهدت ذات يوم ، قبل ذلك بعام مرور فيلق

من المشاة في طريق العودة من المناورات نحو معسكرهم . ومر على ذلك النحو من أمامها مئات الجنود . كانت واقفة عند زاوية شارع ، فرعة بعض الشيء لرؤيتهم كذلك عن قرب ، ومتضايقة مما كان الكثيرون يقولونه لها ، لكنها لم تجرؤ على الهرب ولا كانت راغبة فيه . وبا للدقائق الغريبة التي عاشتها ! كانوا يسرون بستراتهم المغبرة ، وعمراتهم على رؤوسهم بشكل عرضاني ، وفيهم من بدوا لها فائقي الحسن وفي غاية الانشراح . حتى أن ذكرى ذلك المشهد وحدها تجعل وجهها يتقد اتقادا ، فلقد بدا لها ذلك المشهد صورة لحياتها وملخصا عنها: كانت واقفة جامدة على حافة طريق بينما تمر من أمامها تلك الكائنات مفعمة بالقوة والبهجة ، من غير أن تقوى ، بحكم نظام خفي للأشياء ، على القيام بحركة واحدة لاستبقائها . كان عليها أن ترى ذلك الحشد من الشباب يتوارى . ربما كان بوسع واحد منهم ليس إلا أن يجعلها سعيدة طوال حياتها . ثم بدت وكأن صوتا صاح بها : « لاقطهم بعينيك » فالدرب يسير بهم نحو مدن أخرى حيث النساء اللواتي يعشقنهم ينتظرنهم ، وكوني على نقّة من أنهم ليسوا محرومين من الحب وليس هناك من يقابلهم بالصد ، لكن انظري ، ها هم ماضون وليس فيهم واحد لك .

ومنذ ذلك الحين وذكّرت تلك اللحظات الاليمة تعود إلى ذهنها ، كلما عرض عليها أحد زبائن المطعم أن تخرج بصحبته ، كأنها تستهزئ برغباتها . كان في شانيتليا رغم ذلك عدد من الشبان ، تنظر إليهم الفتاة المسكينة بلهفة حين تلتقيهم في الشارع ، لكن الجراة تنقصها دون شك ، ففريزتها تدفع بها نحو التخفي حين يديرون أنظارهم نحوها ، فتولد لديهم انطبعا بأنها مزهوة وأنها تأبى التحدث إليهم . ولم يبد عليهم أنهم يولونها اهتماما كبيرا لأنهم ما كانوا يلاحقونها البتة . وآل بها ذلك إلى الاعتقاد بأنها ليست جميلة بقدر ما كانت تحسب ، أو على الأقل بأن الجمال وحده لا يكفي مالم يات مدعما بنظرة ومشية فيهما شيء من الجراة والثقة يكملان سحره . صحيح أن الجراة لم تكن تنقصها تجاه المسيو بلوندو حين تكون بصحبته ، وتراه يقتّر مثلاً حول ما يتناولانه

من طعام أو شراب ، ولا تجاه المسيو غرو جورج عندما كان يحسب أن من حقه التحدث إليها وكأنها كانت وصيفته لأنه غني . لكن الأول منهما ، واهن والثاني في الستين . ألا يمثلان والحال هذه منتهى ما تستطيع تخيله كوضع حقير وكئيب ؟ فقالذين كانوا يلتقونها للتفزل بجمال وجهها ورقة خصرها رجال على تلك التساكلة . إلا أن امرأة قبيحة الشكل لكنها لينة الجانب مثلها بوسعها والحق يقال أن تحظى بنفس المديح والاطراء . فكيف لها أن تثق بمداهنات أولئك الناس التعساء ؟ أما إذا جاءها يوماً شاب جميل الشكل بهي الطلعة وفي مثل سنها ليتحدث إليها راجياً القرب منها ، فربما تصدق يومها أنها جميلة . كانت تشعر إذن ، بانتظار ذلك ، أنها دميمة ووضيعة في نظر أولئك الذين كانت تود أن تحبهم . وتذكرت بعد ظهر يوم من أيام الصيف ، بعد ظهر يوم رهيب أمضته عند نافذة غرفتها خلف المغلاق ، لأن بعض عمال رصف الطرق كانوا يعملون في الساحة الصغيرة المثلثية المنبسطة أمام المنزل ، ولأن واحداً منهم وكان مكشوف العنق والذراعين ، قد أغم قلبها إعجاباً كأنه شيء خارق . كان يبدو أن رفاقه يعترفون له بسيادة بسيادته عليهم ، لأنه كان مختصاً بالمهمة الأكثر رفعة إلى حد ما ، فقد كان وهو جاثٍ يتولى رصف المكعبات الحجرية التي يأتونه بها . وينتقل من مكانه بين وقت وآخر بتحركات خفيفة ، ليعود إلى جلسة القرفصاء وهو مستقيم الصدر ، شبيه بأمير يتقدم منه التابعون حاملين إليه الهدايا .

وتوالت السنون من غير أن تشفيها من تلك الذكريات أو تبريء الجرح العميق الذي خلفته في نفسها . فهي الفتاة التي لارغبة لأحد فيها . أما عيائها الجميلتان الصافيتان ووجنتاها الممثلتان فطعم لا يجتذب إلا المسنين الحقيرين أو الرجال الواهنين أو الوجلين الذين لا يجرؤون على التوجه نحو أحد سواها . إيه ! يا للشكوى التي كانت ستوجه بها نحو السماء لو كان قلبها عامراً بالايمن ! وهل يسعها أن تتصنع التمتع ؟ قدم اليوم إليها رجل ليس منقراً بقدر الآخرين ، لأنه يحبها ويتحدث إليها بذلك الاحترام الرجل الذي تحمله هي نفسها في

أعماق قلبها ، تجاه أولئك الذين تلقاهم على حافة الطريق ، أو تنظر إليهم عبر شق النافذة . إنها تدرك الآن كل الإدراك ، سر الرعدة التي كانت تهتز بها يد ذلك الرجل حين لمس ذراعها ! فهل يسعها أن تصد إنسانا يربطها العذاب معه بروابط لا حصر لها ؟

نهضت وسط الاضطراب الذي اوقعتها فيه تلك الفكرة . أليست تلك هي السعادة في نهاية المطاف ، والحب من أينما أقبل ؟ بل لو لم يكن ذلك هو الحب الذي داعب أحلامها في عزلتها الفلقة ، فهل عليها أن تزدرى الهبة الغامضة المقدمة إليها ؟ ألن يكون شؤماً عليها هي التي لم تحلم إلا بالحب ، أن تأتي اليوم لتقابل الحب بالفرض ؟ اعتمدت على عارضة المريع^(١) بيدها ونظرت فيما حوالها وقد تملكها الرهبة لما قد تخبئه الحياة لها . أما من وسيلة تمكن من تجنب كآبة المستقبل ؟ اليس هذا ما يرمي إليه المرء حين يصلي ؟ ورسمت إشارة الصليب عند أعلى صدرها دون كبير اقتناع . وبدت كأنها أدركت على حين غرة أن الحياة لا تجود مرتين . فيسفي أخذ عطائها والتشبث به . ومثل لها خيالها المكفهر الحياة على صورة كائن مزاجي رهيب ، وطاغية ، ليسر من الحكمة التباحث معه . أخذ الليل يهبط الآن بتسارع أكبر . وأمست جلبة كرسي يزاح من مكانه ، أو وقع خطى متجول في الشارع ، وحتى رجع الاصوات البسيطة جداً ، تكتسى في هذه الكنيسة المملأ بالعتمة ، صدى خارجاً عن المألوف . وازداد الصمت عمقاً . فهيمن على القبة الداخلية وموضع الجوقة ومواقع الصلاة ، التي غصت بنساء شقيات، قدمن فجلسن يلتقطن أنفاسهن قليلاً ، ويسعين للتألف مع اثراحهن . وهن يسردنها على مسامع السماء .

مشت بضع خطى في جناح الكنيسة وظهرها الى الهيكل . كانت تخفق في الهواء بقية رائحة البخور فعبت منها مرة أو اثنتين بمتعة حزينة . فهذا العطر المحمل بذكريات الطفولة جعلها تأسف فجأة على

(١) المريع : كرسي خفيض ذو مسند للراعيين يستعمل للصلاة .

الاشياء التي لم تنلها . ذلك أنها فيما مضى كانت وهي صغيرة تتخيل الفردوس على صورة سهل ممرج ، مترامى الأطراف ، تحت سماء ربيعية . تتوزع فيه مجموعات من الأشجار المزهرة ، فتقطع رتبة ذلك الامتداد الشاسع المتوج قليلا . وتناثرت هنا وهناك حلقات عقدها الاطفال وهم يرقصون ويغنون . كانت تتخيل على ذلك النحو السعادة الأبدية للنفس المتحدة بالله . ولا تزال ذكرى المفهوم الساذج تعتادها حتى الآن ، فتحلم بذلك من غير أن تبسّم ، رغم بعد الشقة بين نطلعاتها كبنت صغيرة والرغبات التي تدغدغ خيال شبابها حاليا . فتتساءل على نحو مشوش هل كانت السعادة كامنة في تلك الأوهام الخاصة بالسنين الأولى ، حين كانت الروح تنساق بكل يسر مع عذوبة الاحلام ، من غير أن تتدخل قوة الفعل لتقويم مسار تلك الدروب العذبة التي يتيه فيها الخيال .

وحينما بلغت عتبة الكنيسة ، راحت تفكر بغتة بغيره ، وبصوته الأجلش والمهذب في آن معا . أما إذا اكتتف يوماً أنها قد باعت نفسها لكثيرين ، فبأية لهجة سوف يكلمها آنذاك ؟ أيمن وهو في شائتلبيا ، حيث اعتاد الناس الثرثرة ، ألا يكون أحد قد أطلعه على واقع الحال ؟ وماذا لو امتلأت نفسه نفورا فتركها ورفض لقاءها من جديد ؟ واحمر وجهها من تلك الفكرة المذلة ففتحت الباب . أهنالك حقا ما يستدعي عناء قضاء ربع ساعة في كنيسة للخروج من بعد والقلب ممتلئاً يأساً وغیظاً ؟

* * *

- ١٠ -

لم يكن عليه في هذه المرة أن يختار مكان جلوسه : فبينما كان يعلق قبعته فوق المشجب ، تقدم نادل ليقول له إن صحنه قد وضع على المائدة الكبرى ، فتوجه الى هناك ليجلس بين السيد موريسيتيل وبين بلونديو الابن ، وهكذا قطع عليهما نقاشا حاميا في السياسة وإن يكن بصوت خفيض . كانت المائدة مكتملة العدد ، فتعمد بدافع من الخجل ، نوما من المbaughة ، وسعل مرة أو اثنتين وهو يبسط فوطته . لكن لو أتيح لهؤلاء السادة أن يروه قبل ذلك بخمس دقائق في عتمة الساحة الصغيرة ، حائراً وجلاً مثل من اقترف ذنباً ، متردداً مرات ومرات قبل أن يدخل ، فهل من يدري مقدار ابتسامهم لرؤية تصرفاته المألئ بالنقطة ، ونظرة التحدي تلك ، التي صوبها شطر جيرانه ؟ كان يبدو قائلاً : وصلت متأخراً ، بلا أدنى شك . فهل هذا يضايقكم ؟ إن ذلك ليؤسفني . كان يجهل في الواقع مقدار المهابة التي أضفتها عليه تلك الدقيقتان من التأخر . وبدأت عليه الهالة الخطرة لأنه تحدى مدام لوند ، التي لم تكن تتساهل على الإطلاق في موضوع التقيد بالمواعيت . لكن لم يبد على مدام لوند أنها مفتازلة . بل على العكس ، كانت تبسم له وتحني رأسها وهي تنظر باتجاهه بسماحة ملكية .

أبدى بلونديو دهشته قائلاً بصوت خافت : عجباً ، إن للسيد حظوة كبيرة لدى المعلمة .

أجابه موريسيتيل بلهجة ملؤها الاعجاب : كنت أوشك أن أقول ذلك . فلم يسبق البتة أن وصل أحد متأخراً من غير أن تقول له شيئاً .

- ١١ -

وعلق زبون لم يكن بوسع غيره أن يراه بسبب نبتة شتوية كبيرة حجبت عنه : اذا لم يكن السيد من هنا فمن غير المدهش بالتالي أن يجهل واقع عاداتنا ،

فمال موريستيل صوب غيره كمن يبوح بسر قائلاً : الغداء في الثانية عشرة والعشاء في السابعة .

— شكراً ، يا سيدي .

— حباً وكرامة .

وساد صمت فصير استهلكت أثنائه فضلة الحساء المتبقية في الصحون بجلبة كبيرة ، عاد بعدها الطاعمون يتبادلون الأحاديث بأصوات عالية أو خفيفة ، ضمن حدود الطابع الخاص الذي يحافظون عليه في مطعم لوند .

قال موريستيل ، وهو يمسح فمه ويلتفت ناحية غيره :

— أرى أنك لست زبوناً يومياً على نحو ما نقول هنا .

فأجاب غيره : ذلك أني في الواقع لا أتمكن من الحضور إلا مرة في الاسبوع كما ترى .

كان يكره نفسه على الحديث الى ذلك الرجل الذي لم يرق له شكله ، لكن بدأ ضرورياً من ناحية أخرى أن يستوضح عن بعض الأمور ، وها هي ذي الفرصة مواتية . تفحص جاره بنظرة سريعة . إنه شاب ذو كتفين ضيقتين ، يرتدي بزة من الصرج الأزرق بدت لماعة لطول الاستعمال . كان وجهه المنزوف وجه رجل أشقر سيء التغذية ، عليه تجاعيد مبكرة بدت مستمتعة بحفر أخلايد متعددة الاتجاهات في بشرة بائسة . أما فمه الصغير جداً والمحاط بكثافة من الشعر الأشقر فقد

بدا بلا سفتين تفرياً . وهكذا فهو كلما فتحه ليتكلم ظهرت سلسلة من التعابير المفزعة . وكان فضل زجاجتي نظارتيه السميكتين عليه ، إخفاء النظرة الوقحة والوجلة لعينيه الزرقاوين . لكن دمامة الرجل الاخلاقية آثرت أن تظهر موجزة في الأنف الذي صاغته الطبيعة دقيقاً حاداً كمنقار طائر . إنه لأنف غريب الشكل خال من الأنفة ، وعلى أهبة الاستعداد للاستكانة مرغماً تحت وطأة الضربات . أضف الى ذلك أنه الجزء الوحيد الذي رضي الدم أن يتجمع فيه دون سائر أجزاء ذلك الوجه التعيس .

ثم استأنف غريبه يقول :

— أيسعني بدوري أن أسالك إن كنت تأتي الى هنا كل يوم ؟

— كل يوم منذ عامين ونصف . أي أنني واحد من أفضل زبائن مدام لوند وأقدمهم .

فبادره أحد الطاعمين ولم يكن بادياً عليه أنه مصغ إليهما :

— تقول أحد أقدمهم ؟ نحن هنا اثنان نتقلب عليك بستة أشهر وثمانية يا سيد موريسثيل .

حينئذ قال الجار الايمن لبلوندو الابن :

— أنا لا أخشى أحداً في ميدان القدم . واسألوا مدام لوند : ألم تقدم لي بنفسها وجبة عشائي الاول . وحين أقول لكم إن مدام لوند كانت تقدم الطعام بنفسها ، فإنما أقصد فترة ، قل نصف وثلاثة أعوام .

قيل هذا الكلام بصوت كئيب وبطيء ، وبلكنة ريفية قوية ، من قبل رجل توارى رأسه الضخم ومنكباه العريضان ، على نحو شبه كلي ، تحت القوطة المقودة وراء قلأله . وانحدر شعره الاسود المجعد حتى

جبينه كما انسدل عند سالفه ليفطي خدين مصابين بعدة وردية (١) ،
وكان وهو يتكلم ، يدير نظرة عدائية على الطاعمين الجالسين قبالة .

فأجاب الرجل الجالس وراء النبتة بنبرة لا تخلو من المرارة :

— معك حق ، يا مسيو بوج ، فأنا كنت أقصدك أنت ذاتك ، حين
أوضحت للمسيو موريستيل أنه لا يعتبر إذا صح القول من أقدم زبائن
مدام لوند . لكن ، على كل حال ، لنكن أكثر دقة في حساباتنا . ولنحذف
أربعة أشهر غياب من الأعوام الثلاثة التي ذكرتها .

وبعد ما بين يديه ، على نحو ما يفعله خطيب ، وألقى على من
حواله نظرة ملأى بالثقة كأنه يريد تشجيع جيرانه على الوقوف الى جانبه .

عندها تمكن غريه من رؤية الوجه جانبياً فبدت الصورة طويلة
ولئيمة ، أضفت عليها بهجة الانتصار مسحة من ذكاء .

« أربعة أشهر ؟ » ردد ذلك القول ، السيد تربيت ، وهو شاب
سمين أصفر اللون يجلس عند الطرف الضيق من المائدة .

كان ذا صوت حاد فالتفت كل واحد صوبه بهيئة تعجب وسخط ،
لأنه تكلم بصوت عال جداً . لكن جوابه كان متوقفاً فخلف ارتياحاً كبيراً .
فجيران المسيو بوج ، بائع الدواجن ، ما كانوا ليخاطرون بازعاج رجل
في مثل حدة طباعه ، أما هذا الفر فحدث العهد هنا . أما السيد
باليسون الذي خاطب بوج من وراء النبتة ، فقد أطلق الجميع عليه
لقب الوقاحة ، حتى أصبح مسلماً لديهم ، ومعهم المسيو بوج ، أنه
يستطيع أن يقول كل ما يخطر منه على بال . ويروى عنه أنه تصنع المكر
مرة في مجتمع . وهو يمثل العنصر المتطرف في مجلس الأغبياء ذاك .

(١) عدة وردية : أحمرار ناجم عن تمدد في الأوردة الشعرية .

واستأنف قائلاً :

— قلت أربعة أشهر ، يا مسيو موريستيل . لكنكم زبائن جدد لدى مدام لوند . لا يسعكم أن تعرفوا ، إن لم يخبركم أحد ، أن المسيو بوج قد تغيب أربعة أشهر كاملة ، غير منقوصة ، في العام الماضي ، وهذا ما ينقص أشهر حضوره الى اننين وبلائين ، أي الى عامين وثمانية أشهر .

فهتف المسيو بوج وقد علا صوته من حدة الغضب :

— إنك لتغيظني بحساباتك . فهل الذنب ذنبي إن كنت قد أصبت بنوبة احتقان رئوي ألزمتني الفراس ستة أسابيع ، تلتها ستة أسابيع نقاهة ، وكل ذلك على حساب توقف تجارتي أيها السيد السدي ؟

— نوبة احتقانك الرئوي ؟ كان بوسعك أن تقول نوبتك فقط ، بل إصابة مخك . فذلك أقرب الى الحقيقة .

أطلق المسيو باليسون تلك الكلمات بنبرة باردة . فرد عليه المسيو بوج مزمجرأ وهو ينض عن مقعده قليلاً ، وقد احمر وجهه فصار قرمزياً :

— اصابة مخي ! أنا لم أصب في مخي البتة يا سيد ، وكل الذين يقولون ذلك كاذبون .

ارتفع هنا صوت مدام لوند البعيد قادماً من صدر القاعة :

— اخفضوا أصواتكم ، أيها السادة ، اخفضوا أصواتكم . إنكم تتناسون أين أنتم .

تطلعت الانظار كلها الى المعلمة . لم يكن يظهر منها ، لارتفاع المكتب ، إلا رأسها الساكن وكتفها الجباران ، لكن باقة الأذريون الصغيرة انتقلت فجأة وبحركة من يديها غير مرئية من اليمين الى اليسار .

فتمتم موريسيتيل قريبا من أذن غريه : إنه لندير سوء حين تمديدها الى أزهارها .

وساد الصمت بضع ثوان أيضا . كان النادل يدور حول المائدة بلا ضجة ليوزع اللحم بينما عاد المسيو بوج الى الجلوس . وبدأت فطرات من العرق تسير ببطء داخل تجاعيد جبينه لتتلاقى وتسيل من فوق أنفه الصغير فتجعله يلتمع . أما الفيظ المكظوم فجعل حذفيه تسودان و اضاف إليهما تعبيراً وحشياً وبائساً ، كان من شأنه أن يثير شفقة قلوب أكثر حساسية من قلوب جيرانه . وحين قدم إليه طبق اللحم ، غرز شوكته في ضلعيته بوحنية أنارت ابتسام الجميع وأدت الى تبديد جو الترقب الذي أشاعته كلمات مدام لوند .

وهمس موريسيتيل يقول :

— كنت حاضراً يوم أصيب تلك الاصابة المخيفة . شيء عجيب . لقد أصر دوماً على أن الاصابة في صدره ، إذ سبب له تيار من الهواء احتقاناً رئوياً . لكن المسيو باليسون موجود في الصيدلية ومثل هذه الأمور كما تعلم لا تنطلي عليه . وهو يتحدث الى المسيو بوج من وقت لآخر في موضوع اصابته بدافع من التشفى ، لأنهم لم يشتروا الأدوية من عنده . ولن يطول الأمر بذلك الرجل السمين قبل أن تلم به اصابة أخرى .

فقال غريه وقد ضاق ذرعاً بتلك الروح العدائية : يا له من رجل مسكين !

فانسعت عينا موريسيتيل من فرط الدهشة .

— أهذا ما نراه ؟ ذلك أنك لا تعرف بورج حق المعرفة . ولولا خوفه من الدرك لكان لوى عنق باليسون منذ وقت طويل .

التقط السيد بلوندو هذه الكلمات الأخيرة مع أنها قيلت بصوت خفيض ، فلوى فمه على الفور ناحبه غريبه بحيث لا يكون مسموعاً من قبل بورج الجالس الى يمينه :

— إن شئت أن تجعله سوداوي المزاج ، أسأله كم باع من الدواجن ، العام الماضي في معرض بون — امبليار الكبير . فالأمر مضحك الى درجة لا يسعك أن تتخيلها !

قال ذلك ورفع الكأس الى فمه ، كأنما ليخدع المسيو بورج الذي يثبظ الشك لديه على نحو مفاجيء ، وشرب أربع أو خمس جرعات من الماء بمظهر من البراءة .

وبفته صاحت مدام لوند بالنادل :

— هيا استعجل : فها انت ترى أنهم ينتظرون السلطة . ضع وعاء شرائح العجل جانبا ، وهب لإحضار السلطة . استعجل ، يا ولد ، بسرعة اكبر .

فقال موريسيتيل : إيه ، قلت لك حقاً إن الأمور سوف تسوء .

كان واقع الاحساس بالتنحي يولد في نفس المعلمة كل ذلك السخط . فقد تبينت أن دراما كاملة تدور أحداثها على المائدة الكبرى ، من غير أن تتوصل لالتقاط كلمة واحدة . أما تلك الهوة من البغضاء التي تشرف عليها من علباء مكتبها ، فكانت تمنى أن ترمي بنفسها فيها ، أن تسبر أغوارها ، وتستكشف خباياها ، أن تعرف ، آه لو تعرف ! وفكرت : « لكن ما الذي يقولونه فيما بينهم ؟ لِمَ سحنة المسيو بورج مقلوبة على ذلك النحو ؟ والمسيو غريه ، ماذا يقول لجيرانه ؟ » كتفت يديها

وأغمضت عينيهيها بألم . وقالت في نفسها بنوع من المواساة : « كل ذلك ستعرفه أنجيل يوم الأحد » . « أجل . ولكن هل ستحببه لى ؟ » وعادت تتألم مجدداً .

وأضاف موريسيتيل وهو يقطع شريحة اللحم في صحنه :

— لقد تنازعت حسبما ارى مع الصغيرة .

سمع غريه هذه العبارة ، لكنه تردد هنيهة قبل طرح السؤال الذي يفكر فيه من بداية العشاء . انقبض حلقه . فقبل قليل ، وبينما هو يتجول حول كنيسة سان جود أبصر أنجيل . كانت تجري فتتبعها . دخلت المطعم ، فرآها نجتاز القاعة لتتوارى خلف الحاجر الداخلي . لماذا لم تخبره بأنها تعرف مدام لوند ؟

وسال بعد قليل : ومن تكون الصغيرة تلك ؟

فقال موريسيتيل واللقمة في فمه : ولكنها أنجيل .

وتلا الصمت مجدداً تلك الاجابة .

وبغته سأل موريسيتيل قائلاً : ألن تأتى على شريحتك كلها ؟ فأوماً غريه أن لا .

— هل ترضى إذن بأن نتخلى لى عنها ؟ شكراً ، شكراً جزيلاً .

ثم أضاف بقول بمزيد من المودة ، وكأن تلك الهبة لقطعة من اللحم تستحق جزاء مقابلاً :

— اذا كنت لا تعرف الصغيرة فليس في ذلك ما ينير الدهنسة . انها ابنة أخت مدام لوند ونحن ندعوها كذلك .

— كذا ؟

— أجل ، ويبدو لي مضحكاً أن لا تكون مطلعاً على ذلك ، ألا ترى ؟
لقد انقضى زمن طويل ونحن على معرفة بها . وتخطب بكل يسر أنا وإياها بكلمة : أنت (١) .

فقط بلوندو الكلام قائلاً :

— يبدو لي أن جارك يسرد عليك ترهات . ومن يسمعه يحسبه
أحد ... كبار العشاق . فقال باليسون بسرعة : يحسبه دون جوان .

فأطرق موريستيل . وابتسم بلوندو . أما بوج الذي لم يلتقط
شيئاً من الحديث ، لكنه رأى شيئاً من الخدلان في سحنة موريستيل ،
فقد كتم ضحكة وراء فوطته .

فأوضح بلوندو قائلاً وهو يؤدي حركة ، كمن يمسك بزهرة بين
أبهامه والسبابة :

— الجانب الصحيح في كل ذلك أن أنجيل ليست بريّة .

كان وجهه مستديراً ومبتهجاً ، تنبسط بشرته لما تحتها من شحم
فتلتصق . أما فمه الذي لا يطبقه بشكل تام أبداً فممتلىء وصغير .
وإذا ما رأى المرء طريقة تلاعبه بناظريه ، أيقن أنه مزهو بحدقتيهما
العسليتين الواسعتين وهدبهما السمكية . أما دهن الشعر الذي
يستخدمه فتفوح منه رائحة بنفسج ونضج صوف مقززة . وتنتفخ
ملابسه ، وهي من الصرغ الأسود ، لأنها تحيط بقامته القصيرة وجسمه
البدين فلا يبدو من شخصه إلا الدوائر .

(١) tu = أنت . حين يتخاطب بها النان بدلاً من vous = انتم ، فدليل على
المودة ورفع الكلمة — أم — .

ثم اضاف بشيء من الصلف : حسب المرء ان يعرف كيف يتحدث
إليها .

فقاطعه الميسو باليسون بنبرة ازدراء :

— لكن اسكت . فالمرء يعرف دوماً كيف يتحدث الى فتاة على
شاكلتها اذا كان في جيبه مئة فلس .

فرد بلوندو ساخفاً من ذلك الايضاح :

— ما خلا الايام التي تصرف فيها الصيادلة عن وجهها .

فرد عليه باليسون قائلاً :

— اذا كنت تقصدني بكلامك ذاك ، فلي الشرف ان اقول لك إنك
تكذب ، يا صغيري بلوندو . وقد عرضت علي بنفسها أن نخرج يوم
الاحد الماضي ، لكنني ، وانت سمعني جيداً ، أنا الذي رفضت .

وهنا أسمع بوج صوته . فقال بانفجار فرح وفظاظة :

— هذا غير صحيح . إنها هي . وأقسم إنها على حق . فحسب
المرء أن ينظر اليك لكي يفهم .

دارت تمتامات حول المائدة . واصفر وجه باليسون وهو ينهص
قليلاً ليمد يده من فوق النبتة ويشير بأصبعه مضرباً :

— ولقد رفضت ، لأن النساء اللواتي مَسَسَتْهُنَّ يا ميسو بوج ،
لا يثرن بي أية رغبة من بعد ، أية رغبة ! واذا كانت لدي من نصيحة
أسديها إليك ، وهي نصيحة مجانية يا ميسو بوج ، فهي أن تكون
متنبهاً مع النساء . فالذي لونه بلونك وورقبته مثل رقبتك ...

فصاحت مدام لوند بعد أن أصاحت السمع بلا جدوى :

— أيها السادة لا يسعني أن أسمع بأن تتحدثوا بهذا الصوت العالي .
لقد استبدت بها الغيظ لأنها لم تتمكن حتى من إدراك معنى ذلك
النزاع ، بل أوشكت في لحظة ما أن تسأل عن سبب تلك الجلبة التي
لم يصل إليها منها إلا نوع من الصدى المضطرب . وإذا كان صوتها قد
أوقف الدمدومات ، فقد عجز عن السيطرة على باليسون الذي لم يدر
حتى رأسه ، بل تابع وهو يثير بأصبعه إلى بورج :

— برقة مثل رقبتك ، يا مسيو بورج ، لو كنت مكانك لتملكني
الخوف .

ومن ثم قعد . وران صمب رهيب فكان ضرباً من التعليق على تلك
الكلمات . وفجأة بدا كأن الموت حل على نحو مباغت فاتخذ مكاناً له
على المائدة الكبرى . وأرخى بورج فكه ونظر فيمن حوله ، من غير أن
يقوى على التلفظ بحرف واحد ، باحثاً في عيون جيرانه عن فكرة تطمئنه ،
إلا أنهم كانوا ينسحبون بوجوههم وبدوا كأن صدورهم ضاقت بمنظر تلك
الاستغاثة .

— وأخيراً !

هتفت مدام لوند بذلك متعجبة وعليها هيئة من احرز النصر بمشقة .

كانت على استعداد لأن تضحي بأصبع من يدها مقابل أن تعرف
ما كان يقوله باليسون . لكنها كبشت بحزن ذلك الاندفاع المفاجيء الذي
كان يدفع بها إلى استجواب زبائنهما ، فتحولت بسخطها على رأس
النادل :

— أسرع بالفاكهة يا ولد ! أنت تتساقط منذ بضعة أيام . وأنا أحذرک ؛
فأنت تعرف أن هذا لا يروق لي .

واستمر الصمت بضع ثوانٍ أخرى لم يسمع خلالها إلا صرير السكاكين وهي تعالج عظام الصلع لتنتزع عنها آخر بقايا الغذاء . تم أطلق أحد الطاعمين تنهيدة فخطار جاره بإبداء ملاحظة جرى التعليق عليها فوراً . ثم استؤنف الكلام .

وتمنم موريسيتيل قائلاً لغريبه :

— توسع تلك الفتاة على كل حال أن تتباهى بتأجيح العديد من نيران العداوات على المائدة الكبرى . فالنساء غادرات جداً .

كان الارتباك ما يزال بادياً عليه بسبب الإهانة التي تعرض لها قبل قليل ، فأخذ يواسي نفسه بكلام يطال العموميات ، لكن غريبه لم يجب من فوره . كان مكتوف اليدين كأنه يسعى للسيطرة على الانفعال العنيف الذي نسب في ارتعاشهما . وحلّ أخيراً عقدة لسانه فمال ناحية موريسيتيل وسأله من غير أن ينظر إليه :

— الا قل لي ، لقد ذهبت إذن بصحبة الجميع ؟

فأجاب هامساً :

— تقصد بصحبة جميع الذين هنا ؟ أجل ، بالتأكيد . بدءاً من باليسون الذي لم تعد راغبة فيه ، وانتهاء ببلوندو الذي ينبغي أن يخرج معها يوم الأحد . لكن علينا ألا نتكلم بصوت عالٍ جداً . لآنك إذا ما أشرت بينهم موضوع الأولويات مجدداً فسوف بمزق بعضهم بعضاً . ثم إن مدام لوند تنظر إلينا شزراً .

— وماذا على المرء أن يفعل من أجل أن يخرج بصحبته ، على نحو ما تقول ، يا ميسيو موريسيتيل ؟

— إليك . تتوجه أولاً الى مدام لوند وتطلب تسجيل اسمك على القائمة ليوم الأحد في التاريخ الذي تحدده . وعليك طبعاً أن تدفع

سلفة ، لكنك لن تأسف عليها أبداً ، فهيّا . حين تراها بادىء الأمر تحسبها صغيرة بعض الشيء . فهي ذات سيماء يمكن أن تخذعك ، لكنّها في حقيقة الأمر أشدّ مكرّاً من أيّ فتاة في سانتيليا . وعيناها عينا ملائكة ، كما قلت لك ، لكن مع العينين ... يبدو أنّ ما أقوله لا يروق لك . أنا الذي أودّ إسداء خدمة لك .

— شكراً ، يا مسيو موريستيل . قلت إنّها ستخرج بصحبة المسيو بلونديو . فمن هو المسيو بلونديو هذا ؟

— لا ترفع صوتك هكذا . إنّته جارك من اليمين .

— وإذا لم أرغب في انتظار مرور المسيو بلونديو ؟ هل تستطيع مدام لوند تسوية هذه المسألة أيضاً ؟

— لا أدري . فمثل هذه الحال لم تحصل البتة . إذذهب بنفسك واسأل المعلمة . لكن دعني ! لقد آلمتني وأنت تشدّني على هذا النحو .

— معذرة ، يا مسيو موريستيل ، فأنا لا أدري أين شرد ذهني . هل ترغب في نصيبي من الفاكهة ؟ تفضّل خذها . وتعال ننتهي معاً من زجاجة نبيذي ، بعد أن أفرغت زجاجتك . ذلك أنّي لا أحسّ بتهيّة نحو الطعام هذا المساء ، لكن لدي رغبة كبرى في شرب كأس بصحبتك ، يا مسيو موريستيل !



- ١١ -

الانتظار . ما من سبيل أمامه غير الخضوع له رغم شعوره بنوع من
تأجج اللهفة في قلبه . فمند أسابيع وهو لا يعرف من راحة للبال . فلا
يتوقف ولا يتحوّل عن الدروب القاحلة التي تسير به الرغبة عليها .
هناك جوع دائم يفترسه . ومهما تكن معاناته منه كبيرة ، فكل ما لا يمت
الى ذلك الجوع بصلة نير نفوره . ما قبسة الحياة وهمومها الصغيرة
إذا ما قورنت بالواقعية الرهيبة لهذا القلق ؟

لم يرقد من أجل أن ينام . لكن من المستحسن ، وقد حلّ الليل ،
أن ينتفع بنداوته وسكونه . فبوسعه على الأقل أن يستسلم لعنائه .
فالحاجة نعتل في داخله من أجل أن ينكأ جرحه ، وأن يمزق نفسه
ويسمّم ذاته ، ما دام عاجزاً عن النفاء . ماذا يجني لو سلّى النفس
عن داء أنشب مخالبه في جسده وروحه ؟ من الأجدى ألا يقاومه وليترك
البلوى تفعل فعلها حتى أقصى المدى .

ظلّ راقداً مدة تربو على ساعة ، وأجفانه حرّى ، وفي رأسه تقل
وعناء ، حتى ظنّ مراراً أنه مغرق في النوم ، لكن فكرة ظلت ساهرة
في مكان ما من أعماق دماغه ، كلسان لهب عجزت أئنة نفخة عن أطفائه .
كان يميز وسط الظلمة مساحاة بيضاء طويلة تبدو أمامه مرتعشة قليلاً ،
تليها بقعة سوداء : الجدار والباب . سوف يجتاز يوماً عتبة هذا الباب
كي لا يرجع من بعد إلى هذه الغرفة التي سبق أن عانى فيها مرّ العذاب .
أ يكون ميتاً أم على قيد الحياة ؟ . وإلى أين سيتوجّه إذا كان على قيد
الحياة ؟ ترى ماذا سيلقى ؟ خيراً أم شراً مما عرفه حتى الآن ؟ أليس

مفزعاً أن تبقى على هذا النحو محصوراً داخل معرفة الحاضر لا تدري :
هل سيخفف المستقبل من آلامك أم سيزيد في عذابك ؟ إنه لشحّ يلتزمه
الزمن حيالنا فيوزّع آمناً متفرقة على ساعات وأيام . ولا وجود علينا
بها إلا بمقدار ، كيلا يقتلنا بسرعة فائقة .

أخذ الغطاء يلهب جسده رغم إحساسه بالهواء البارد على وجهه
وكتفيه . فنهض باحثاً عن قاروة الماء التي تعوّدت زوجته أن تضعها
كل مساء فوق المنضدة المستديرة في وسط الغرفة ، لكن يديه
الملحاحتين لم تقعا عليها فوراً . فاضطر الى فتح النافذة قليلاً كي يراها .
كان الجو في الخارج رائقاً . اكتست الغرفة حلة غير مألوفة وسط
الضياء البارد والقاسي المتسرب من فتحة النافذة . وبدا كأن الكراسي
الثلاثة حول المنضدة ، والطبقية ، وأرض الغرفة ، كانت غارقة في
سبات يفوق الوصف ، لعمق السكينة المخيمة . في تلك الساعة يطال
الخدر الآلام العظمى ، ويخلد الهم للرقاد ، ويفوص المريض في بوع من
الأغماء المستطاب فيستمد قوى يتصدى بها للأوجاع . ويلوذ الهواء
بالصمت . قد لا توجد في قرنتي لورج وشانتيليا نفس واحدة لم تدق
لحظة السلام تلك ، بينما هو واقف ، وجسده دبق من الحمى ، مثل
معدّب حرّمت الراحة عليه . طاف خياله على مئات الراقدين ، شيوخ
تجمّعوا على أنفسهم وسط أسرّتهم ، رجال على ظهورهم وأذرعهم
منبسطة على طول أجسامهم مثل القتلى ، فتيات بأجساد بيضاء ممثلة ،
وأنفاس تثير البهجة ، وعالم كامل بلا حياة منجذب نحو النهار .

ورآها هي أيضاً : كانت مستلقية على سريرها بشكل عرضاني
قليلاً ، ورأسها مرتد الى الخلف ، مسرعة نحرها للجريمة أو الحب .
أما ذراعاه المرفوعتان كجناحين فتتواريان داخل الموجة السوداء
لشعرها الكثيف . كانت نائمة وكأنّها ميتة . فالدم أبطأ جريانه في عروقها
وكفّ عن تلوين وجنتيها . لو أنّ أحداً قتلها ذات ليلة لعثروا عليها بكل
تأكيد وهي على هذا النحو ، إلا أنّها ستكون عارية وسوف يتدلّى شعرها
وذراعاهما على الأرض . ولو أنّ أحداً ضمها حتى الاختناق التام ،

لأضحت بذلك الوجه الشاحب والفم المفتر الذي لن يقوى من بعد على الصراخ أبداً .

الاما أشد ما يزدريها ! ففي الأول من أمس فقط ملأ الحنان شفاف قلبه وهو يفكر في يديها وفي أذنيها التشبهتين بأذني بنت صغيرة . فتلك الذكريات وهي تعتاده في العزلة كانت تحمل له شيئاً ودياً موسياً . حتى كأنها هي نفسها كانت تهمس قائلة له : « لا أريد أن تعاني كثيراً » أما الآن وقد بدت الحقيقة جليئة . الآن وهو يعرف أنها استسلمت للجميع ولم تتمتع إلا عليه ، فقد بدا له أن قلبه لم يعد يقوى على احتواء كل الحقد الذي أودعته فيه تلك المرأة . كان يفضها بخاصة ، لأنه كان يشعر أن تولته بها لن يعرف الوهن أبداً . فالكائن الذي يتعلق آخر ، إنما يتخلى في الوقت ذاته عن حريته وإلى الأبد . قد نخبو الشوق ، والعشق قد يدبل تماماً ، لكن يظل في أعماق القلب شيء لا يسمع المرء التصرف به على هواه . فهو يعطى لكن لا يؤخذ أبداً . وحين يقع الرجل في الهوى يبيع روحه . وعبثاً يأتي الحقد لسنارح الحب مكانه ؛ فهو حتى الممات مملوك لمن أحبه . كان مدركاً ذلك . وأندرنه غريزاته بالمظهر الغريب الذي ستخذه أنجيل في نظره بعد عشرة أعوام ، بعد عشرين عاماً ، وبالتبعية التي سيحيها أبداً وعبودية الذكرى . وسوف يظل خاضعاً حتى آخر حياته ، بفكره وقلبه بل وبحواسه ، لامرأة جعل نفسه هزاة لها ، فسخرت بكل تأكيد منه ومن مظهره . .

أما وقد نارت في نفسه الآن تلك الثائرة على الحب فإن رغبته فيه قد ازدادت . وتمور أحياناً بداخله فررات من الغضب المبالغت وهو يتذكر ما ألحق به من عذاب ، فتمزق صدره الرغبة في إلحاق الأذى بدوره وتحقيق النصر . اما أروع العنف ! وأي تشفى سيفهم قلبه حين يطأطئ حتى الأرض رأس تلك التي أذلته !

بدا له أن نسغ قوة جديدة بدأ يسري منساباً في ذراعيه حتى بناه .
أما يداه فكانتا مثل كائنين حبين لهما حياتهما الخاصة ، فتنبضان
وتنفتحان وتقابلان باستمرار ، سعيدتين متحفزتين للعمل .

ولفط ما فكر فيها حصلت لديه واقعة غريبة . لقد نسي صورة
وجهها طوال ساعات كاملة . تذكر بكل يقين شكل أنفها وشفتيها
اللامعتين المنقسمتين كفلقتي ثمرة ، لكنه لم يتوصل لأن يتمثل ذلك
الوجه كوجه نابض بالحياة ، وجه يستطيع التعرف عليه . وبفتة
تجلى لناظريه بوضوح يصيبه بالدهول . ها هي أمامه وشعرها يداعب
غرتها ، وذلك التعبير الغامض الكامن في أعماق العينين السوداوين حيث
يعتقد أنه يرى شيئاً من التحدي والتوسل في آن معاً . كانت تنهد
وتهز رأسها . وبدأ أن كل حركة تصدر عنها تريد لها فتنة أخاذاً ،
حتى كأن جمالها السائر نحو الكمال يسمو ارتقاء أكثر فأكثر حتى
لينتحي من مرآه . فيفمض أجفانه ليحتفظ لنفسه على نحو أفضل
بتلك الصورة العذبة والرهيبة . وأبدت شيئاً من الحيرة حياله ما بين
المكر والقسوة تم تلاشت بفتة . لقد كف عن رؤيتها وحاول عبثاً وهو
يردد اسمها ويعتصر رأسه بيديه أن يعيد صورة السراب . لكن كل
شيء قد انتهى . ولم يعد لها من وجود هناك .

وفي غمرة الفم الذي اجتاحه ، دار عدة دورات حول المنضدة ثم
هوى راعها على ركبته . لأنها قد تتحنن فتشفق عليه لو رآته على
تلك الحال . هل من داع لهذا العذاب الطويل ؟ وهل ينحو به ذلك منحي
أفضل ؟ منحي أفضل ! لم تكن كل ما فيه إلا عنفاً ونهماً . وهوى تحت
عبء أساه فانطرح بطوله أرضاً ما بين السرير والمنضدة . لم لا يلفظ
أنفاسه ؟ كم يلزم من الأسى لقتل إنسان ، لكي يتصدع القلب وينفطر ؟
تحدث قبل ذلك بساعات الى مدام لوند على نحو ما أشاروا عليه .
فأخذت قطعتي الخمسة فرنكات اللتين ناولها إياهما ووعدت بتسوية
الأمر مع أنجيل . عندئذ غمرته بهجة عارمة ، بهجة مشينة قادته من

شارع الى شارع حتى حافة الماء ، وتذكر أنه في معرض هديانه ، رقد هناك على الضفة مصغياً لرفيره اللاهث في سكينه الليل .

مكث هناك زهاء نصف ساعة ، بل ربما أكثر . فعلى أي نحو انقلب بهجته الى قنوط ؟ فما هو يعود الى ببنه أكثر كآبة وأكثر غمماً مما مضى . وكيف يمسي مصره مرتبطاً على هذا النحو المفاجيء بمصير امرأة التقى بها في الشارع ؟ وإذا كان يزدري تلك المرأة فلم لا يهرب منها ؟ وإذا كانت الرغبة وحدها هي التي تربطه بها فلم لا يغتبط لما قامت به الحياة من تنسيق للأشياء يسر وسهولة ؟

نهض فشرّب كأساً من الماء . غرفة زوجته مفتوحة . فالباب مسند بكرسي يحول دون خبطه ، فيتحرك تيار هواء خفيف يشعر المرء بوجوده مثل مرور شخص غير منظور . انتابته فضولية مباغتة . توجه نحو الباب ونظر الى زوجته النائمة . تلك المخلوقة الشقية تروح تحت عباء إعياء يسحقها سحقاً ويقيد جسدها في سكون مطلق . فهي مستلقية على جانبها وذراع تحت جسمها والاخرى تتدلى خارج السرير ، فتبدو مثل ساقط في قلب هوة . ويضيء نور خافت ذلك الوجه الذي ولّته منه الشباب هارباً . لقد استقرت ملامح الكبر الى الأبد في هذا الجبين وهذين الخدين الاجوفين .

وزادت التجاعيد القاهرة برونز القسمات الدميعة حدة : فمرارة في الشفتين ، وبني الاجفان إرهاباً . نظر اليها وفكر : « لم أهوها البتة » ، وكأنما شعرت بتلك النظرة القاسية الظالمة تقع عليها ، فباشرت في نومها حركة من يدها وتنفست بعمق أكبر .

لم يتزحزح . فمتعة فريدة أبقته في مكانه ، متعة في أن يتأمل تلك المرأة ، ويقيس المسافة التي تفصله عنها . مسافة ما فتئت تتسع من عام الى عام . ليس فيها ما يبعث في نفسه البهجة ، لا وجهها ولا جسدها ولا حبها . كانت خاضعة له ، لكنه كان يفضل على هذا الخضوع

استخفاف أنجيل وقسوتها . كانت تحبه من غير أن تساورها الظنون بشأن خياناته ، فلا يشير ذلك الجهل في نفسه ، وتلك البساطة ، غير الأزدياء . ويتساءل كل مرة ، وقد تملكه نفس العجب ، كيف أمكن له أن يتزوجها . فالحياة هنا أيضا قد بلاعبت به . كانت هذه المرأة حميلة بلا شك . ولا يزال يتذكر ذلك الوجه النقي من قبل أن تجتاحه الهوم ، والجسد الندي الأبيض وقد حطمه العمل .

كان ينبغي أن يندره شيء ما بأنها ستفقد بسرعة ملامحها الجذابة . وأن ستة أعوام ليس غير ستجعلها دميعة ومملة . لقد غزا الشيب جانبا بأكمله من شعرها . إنه ليراه يلمع حتى في ضوء القمر الباهت التمايع النضال . وقارن في ذهنه ذلك الشعر الكثيب بالجدائل المبعثرة فوق مخدة أنجيل في كل اتجاه ، مثل السنة لهيب طويلة سوداء . عندئذ استولى عليه إحساس بالهول من الحياة التي يحيها ، وتقزز من نفسه ومن الدنيا حتى انسحب الى غرفته وخبا وجهه بيديه . وتراءى له في تلك اللحظة أنه يلمس بيده الى حد ما حد حزنه الأقصى : بوسعه أن يتالم عن بعد ، لكن بدا مستحيلا أن يتالم أكثر .

وبعد أن فكر لحظة ارتدى ملابسه وخرج . دقت الساعة لتوها معلنة الثانية . أي مسلك يسلكه الآن ؟ إكان بوسعه أن يخمن بالأمس أنه مع فجر اليوم الطالع سيركض في السوارع على هذا النحو ؟ وما سر هذه السكينة الكبرى التي حلت بفتة على قلبه ؟ فالحركة ، والهواء البدي الذي بلامس خديه ، جعلاه سعيدا بعض السعادة . وعاد اليه تعلقه بالحياة مع الفرار الذي اتخذته . ليست هذه المرأة هي السبب في كل ما يعانیه من ألم ؟ هاهو ماض لرؤيتها . وهي لا تريد أن يموت ، ليس كذلك ؟ سوف يوضح لها والحال هذه أنها اذا كانت لا تحبه فسوف يلقي بنفسه في الماء ، سيرتمي في السوميانت الذي ير قريبا جدا من المطعم ، ذلك أنه متوجه ليراه هناك في غرفتها . سيرن الجرس فيفتحون له . لا يمكن للأمور أن تسير على غير ذلك النحو . لكن لا بد له من أن يعيش أيلما من الغم كيما يتوصل الى ادراك ذلك . ليست مخاطبة انجيل على

الطريق وتقديم مال إليها وضرب موعد معها بالأمر اليسير . فما رصدت هذا ولا أمدته له الحياة ، تلك القوة الالهية المستترة . ثم إنه يعرف الآن ماذا سيحصل . سيدخل الى غرفة أنجيل في هذه الليلة ذاتها ، بل بعد خمس دقائق ، وسوف يتحدث إليها فيمسك بذراعيها ويرغمها على الاستماع إليه .

ركض بسرعة من غير جلبة . وفاده بالتدريج شارع فأخر نحو الأدنى باتجاه الساحة الصغيرة والنهر . وتولد لديه الاحساس بأن الشوارع تجري معه وتحمله وتتناقله فيما بينها مثلما يتناقل اللاعبون الكرة . أما الشارع الذي يسلكه الآن فينزل بانحدار أشد من الشوارع الأخرى . كان قبل خمس ساعات قد سلكه صاعداً ، محني الظهر ينوء بحمل رهيب . أما الآن فكل خطوة من خطاه تبدو كأنها تقذف به الى أمام على الرغم منه تقريبا لترمي به في الساحة التي بلغها أخيراً .

في البداية لم يتعرف شيئاً ، لا أشجار الدلب ولا المقعد الحجري الذي جلس فوقه ولا المنزل الذي كان في انتظاره . فكل شيء يفدو بلا لون وسط الضوء الغريب الذي ينتره القمر . ورقة الشجرة ذات لون شاحب كلون ملاط الجدار . ويبدو اردواز السطح مثل حجارة الساحة بلون أبيض . أما الظل فهو في الأماكن التي يحجبها ، على درجة من العمق والسواد حتى ليمحو معالم ما يغطيه محواً تاماً . ومن يرى ذلك يظن أن تلك الساحة لم تر البتة من حياة مرت فيها . وأن صمت الأشياء ذاك وسكينتها لم يعكس صفوهما من شيء ولو لمرة واحدة .

نظر الى المنزل . يعلو فيه طابقان وتبدو واجهته عادية جداً : نوافذ المطعم الطويلة في الطابق الأرضي يحجبها ستار حديدي ومن ثم ست نوافذ موزعة بين الطابقين الأول والثاني . المصاريع كلها مغلقة . كانت أنجيل وراء إحدى هذه النوافذ . قيل لغريه إنها تنام في الطابق الأول وفي زاوية المنزل الشمالية . إنها راقدة على سريرها ، والنفس بصدرها يعلو ويهبط ، من غير أن يخطر ببالها أن نفسها إياه تسبب في عذاب كائن

بشري . وهي تتقلب في نومها دون شك لتزيح ذراعها من تحت جنبها ، ورأسها مثقل بالأحلام ، لكن هذه الحركات التي يمكن أن تسلب لب الشقي ، يبقيا الليل الشحيح لنفسه . لا جدوى في أن يكون جسدها جميلا وعنقها أبيض مستديراً وأن يشع كتفها التماعا . بل يمكن في ذات الوقت أن تكون دميمة أو أن لا يكون لها من وجود قط طوال تلك الساعات التي لا يقع فيها النور على وجهها .

عبر الساحة راضاً . فهذه الأفكار أخرجته عن طوره . وفجأة استشاط غضبا من الظلمة والجدران وكل ما يختلس منه الحب . وأوشك في لحظة من اللحظات أن يرن الجرس لكنه عدل عن ذلك على الفور . فالطابق الأول ليس عاليا . ويشكل ستار نافذة المطعم الحديدي حافة عرضها عدة سنتيمترات . فوضع قدمه عليها ، ويده ملصقة بالصفحة المعدنية ، بينما تسعى الأخرى لتمسك براوية الباب ، لكن توازنه اختل واضطر إلى أن يقفز إلى الوراء كيلا يسقط .

جعله التحرق والانفعال يلهث قليلا . فأجال نظره على واجهة الدار ، ذلك الحائط العاري الذي لا يهييء أية مسكة لأصابعه . راودته مجدداً فكرة رن الجرس ليستبعبدها كما في المرة الأولى . وبعد تفكير دام لحظات التقط حجراً فرمى به النافذة . ولكن سرعان ما تبين له ما في هذا العمل من تهور . فعليه ألا يحذر أنجيل من قدومه بل عليه أن يباغتتها . وخشي أن يكون قد أفسد فرصة النجاح في مسعاه فتراجع ليختبئ تحت الأشجار عازماً على أن لا يتحرك إذا النافذة انفتحت .

لكن وقع الحجر على النافذة كان أضعف بكثير من أن يوقظ أنجيل من سباتها ، إذ مرت عدة دقائق والنافذة لم تفتح . فتوفر لديه الوقت للتفكير فيما يريد القيام به . وبداله الطابق الأول ، من مكان وقوفه ، قريبا جداً إلى الأرض حتى ليسع ولداً أن يتسلق إليه . والمهم أن يجد اسهل طريقة لتحقيق ذلك الصعود . وما تلك بمسألة قوة بل مسألة

أناة . إما القوة فلديه منها رصيد كاف . وسوف يستخدمه حين يتوجب عليه فتح المصراعين من الخارج .

عاد الى الستار الحديدي ورفع ذراعيه ليقبس المسافة التي تفصله عن الهدف . لقد لامس تقريبا ، وهو باسط يديه مطيلا أصابعه الى أقصى حد ممكن ، أعلى النافذة الطويلة . بقيت ثلاثة سنتيمترات فقط أو أربعة تحول دون وقوفه في وضع مجد ، لأنه إذا ما وُب ليبلغ الحافة العلوية للنافذة ، فسوف يفقد معها القوة اللازمة للتمسك بها ، فاندفاعه الوئبة ستجعله يفلت يديه . وحاول مع ذلك لكن المحاولة باءت للمرة الثانية بالاختفاق .

عندئذ أحس بالـم يعتصر قلبه وثار فيه بغتة غضب جامح ألقي به أرضا . إذا لم يبلغ تلك النافذة فمن الأفضل له أن يموت ، من الأفضل له أن يشسج رأسه فوق تلك الحجارة وأن تنزف منه حياته البائسة مع دمه النازف . وفجأة جاءت نقرة أقامته فوراً . أيكون هناك على بعد بضعة أمتار من أنجيل ولا يقوى على تسلق جدار وفتح نافذة لينعم بلمسها ، باختطافها ؟ وشعر كأن موجة من الفيض والعنف تسري في كيانه . فهرع مجدداً نحو أشجار الدلب ليختبئ مثل وحش جريح محتاج ، وليشاور نفسه .

برز بعد لحظة الى النور مندفعاً نحو البيت كأنه خارج لمنزلة عدو . فأدركه بثلاث وثبات وأوشك أن ينجح . فالقوة التي تأتينا لا ندري من أين ، حين لا تكون قوتنا كافية وحدها ، هذه القوة بدت وقد رفعتة عن الأرض لتعلقه على الستار الحديدي حتى إن صدره كله تجاوز الحافة التي ما استطاع أن يطالها قبل قليل . ولو أنه كان رافعاً ذراعيه ، لاستطاعت يداه بكل يسر أن تمسكا بالمصراعين اللذين ينوي أن يفتحهما ، لكن حضور البديهة خانه . وظل هناك نانيتين أو ثلاثاً فاتحاً ذراعيه منفرج الساقين ، وراحته ملصقتان بالحجر ، ثابتاً في مكانه بفعل عزمته وحدها ، شبيها بأحد تلك الطيور الليلية الكبيرة التي يسحرها جدار

شاحب جداً ويجتذبها رغماً عنها ، فتلتصق به ، كأنها تريد أن تنتشي
ببريق ذلك البياض المقيت . ثم انفصل فجأة وسقط على الأرض .

عندئذ غشيته غضب مسعور أعماه فسرع يشب من غير تحفز فيتمسك
كيفما اتفق بذلك الجدار القادر الخالي إلا من نتوءات فائقة الارتفاع
أو الانخفاض ، خادشاً بأظافيره الحديد والحجر . وتوصل عدة مرات
لأن يبقى واقفاً على الحافة الدنيا للنافذة الكبرى ، من غير أن يتجاوز
نجاحه ذلك الحد . وعبثاً تنبسط ذراعاها يمنة ويسرة للعثور على ملمس
خشن أو نتوء ما أو أي شيء يعيق سقوطه . لكن كل شيء بدا محسوباً
سلفاً من قبل مهندس فطن ، ليكون الاخفاق مصير أية محاولة من
هذا القبيل .

قعد على الأرض وتنهد . لكن لا بد أن يكون بلوغ الطابق الأول لمنزل
ما أمراً يسيراً . أيمنك ألا يتحقق له ذلك مع كل ما في قبضتيه من شدة
وبأس ؟ وخطرت بباله فكرة البحث عن شيء يصلح موطئاً لقدمه . كان
يكون واحداً من تلك المكعبات الحجرية الكبيرة التي وقعت عليها عينه
صباحاً ، في شارع ما يزال في طور البناء ، لكنه لم يشأ مغادرة الساحة
الصغيرة . إذ تراءى له أن مصيره يتقرر هناك وأنه سيبدد كل أمل له
بالنجاح إذا ما ابتعد عن ذلك المنزل . سيدخل غرفة الطابق الأول قبل
بزوغ الفجر وإلا فلا ، لا ، لن يشعر أبداً من بعد بتلك العزيمة الجنونية
التي حملته وألقت به على الستار الحديدي . فمع إشراقة النهار تعود
الوساوس والشكوك . لا بد له من استغلال تلك الهلوسة التي يعيش
فيها منذ ساعات والاستفادة من الواقع الخارق بأنه موجود هناك وأنه
يسعى إلى دخول ذلك المنزل مثل أحد الجناة . وما هم ما سيكون رأيهم
فيهم ؟ فهو يستشعر أن وجوده كله قد تجمع في تلك الدقائق التي تمر
بسرعة قصوى . وبالبهجة التي ستغمره وهو يرتمي داخل تلك الغرفة
التي تنام فيها أنجيل ! هل ستجرؤ حينئذ على مقاومته ، أو الكذب
عليه ، أو خداعه بالكلام على نحو ما فعلت في الطريق ؟

قام بعد أن استراح قليلا ، فشدّ بيديه إطار الباب وكأنه يعزم على سحب ذلك الجزء من المنزل باتجاهه وركز قدمه اليسرى في الزاوية التي تسلكها الفرجة فوق الأرض ببضعة سنتمترات . حسب بادىء الأمر أنه لن يتماسك . فالإحساس بأن الجدار يصده فيما هو يصارعه أوشك أن يرغمه على التخلي . فالدم يتدفق تحت أظفاره ويلهب بشرته لكن مرفقيه كانا يرتفعان ببطء . ونجمت كل القوة المختزنة داخل جسمه الكبير في معصميه اللذين كانا يختلجان من شدة الجهد . ولم يعد يوسعه الآن أن يخفق ، لأن المسألة ستكونه حياته ، فالسقوط الى الوراى يعني الموت المحقق . رفع قدمه اليسرى وركز اليمنى في وضعية مماثلة . في رأسه طنين . وكل أوداج رقبتة تنبض وتنتفخ . حين ارتفع مرفقاه حتى مستوى رأسه ، اعتمد بقدميه على الإطار ورفع صدره الى أعلى ما باستطاعته . فنجاز جبينه أعلى الباب ، ثم أنفه ثم فمه . ارتد برأسه الى الخلف وأسند ذقنه الى الإفريز الحجري الرقيق ، فسمحت له نقطة الارتكاز الجديدة هذه أن يتصرف بيده اليسرى مدة ثانية ، كانت كافية للمساك بزاوية الإطار العليا . وأرغمه ذلك على أن يميل بجسده جانبا حتى لا يختل توازنه واتخذ وضعاً منحرفاً فتقوست قدماه متلامستين على الباب . ورجع رأسه الى الارتفاع الذي كان عليه قبل هذا الوضع الجديد . أحس بالياس يدب فيه وكاد يتخلى عن الطريقة كلها . فهناك شيء يعانده ويقف في وجهه . لكنه أدرك في ذات الوقت أن الكفة قد ترجع لصالحه اذا ما اختار جانب المخاطرة فنقل بحركة مباغتة يده اليمنى الى جانب اليسرى . ابتعدت قدماه عن الاطار دفعة واحدة وتأرجح لحظة متعلقاً بأصابعه وهو أقرب الى الأرض أكثر مما كان منذ بداية المحاولة .

غرق رأسه في لجة من الدوار والعياء . وبدأت القوة تتسرب شيئاً فشيئاً من يديه اللتين طفقتا ترتعشان بفعل ثقل رهيب . بعد عشر ثوان أو خمس عشرة سوف ترخيان فريستهما ، تلك الحافة الحجرية التي مازالتا تتمسكان بها . فكر في نفسه : « اذا ما تراخيت وسقطت

فلن أراها . » وقام بما يشبه وثبة من غير تحفز فرفع ركبتيه وضرب بهما مصراع الباب . بدأ قلبه يخفق بشدة متزايدة فيسمع خفقانه كوقع خطى كائن غير منظور ، ماشيا ، وأقدامه في صدره . توتر جسده كله . لوى مرفقيه وركز قدميه عند جانبي الإطار . كان التعب يشد عضلات أطرافه وكأنه يريد أن يفسخه . أما صدره الذي شالته حركة المرفقين فارتفع مجدداً . وفجأة ندت عنه صيحة وهو يضغط بكل قواه على رأس قدميه ، ورفع يديه معاً فالصفتها على الجدار فوق الباب وانتصب . كانت راحتاه تنزفان وفد كشتيتهما الحجارة . وأحس بالخشيب يصير عند رأس حدائه فأدرك أنه سينزلق . لكنه قام بجهد أخير وبنى قدميه على نحو بات معه محمولا على رؤوس أصابع قدميه فقط ، وكان رأس خنجر قد انغرس في لحمه . وكان الألم على درجة من السدة انتزعت منه تأوهة . وفي نفس اللحظة تقريباً ضربت قدماه الباب ، بعد ترك موقعهما ، لكنه لم يسقط : لقد تشبثت أصابعه بقضبان النافذة .

تأرجح بضع لحظات ، مرضوض الجسم ، والدم يسيل على معصميه . فكانت فترة العطالة تلك ، رغم كل شيء ، فترة راحة ، أتاحت له المجال لاستجماع قواه . صار في وسعه الآن ، وقد بلغ النافذة ، وشدت يداه على القضبان بقوة ، أن يستخدم ساقيه على نحو ما يشاء دون أن يخشى فقدان توازنه . فتسلق الباب خلال دقيقة مستعينا بقدميه وركبتيه ، واستطاع أن يقف على حافة الباب ويداه على ساعدة النافذة . لكن تلك ليست نافذة أنجيل . زفر قليلاً ، وأرخى يده اليسرى ليسير فوق الحافة العلوية للنافذة الكبرى الواقعة في الطابق الأرضي . كان الفاصل بين نوافذ الطابق الأول يقارب المترين . بسط ذراعيه إلى أقصى ما يستطيع ويده اليمنى متمسكة بساعدة النافذة التي غادرها ، واليسرى تتلمس الجدار . كانت الحافة التي بدأت تسلكها قدماه ذات عرض يقل قليلاً عن عرض حدائه ، لكنه كاف لحمله . تقدم على ذلك النحو بشكل غير ملموس وجسمه لاصق بالحجر ،

حابساً أنفاسه ، كافئاً عن التفكير . أخيراً أحس بأصابعه تلامس ساعدة النافذة فكتمتها . من ثم فتح يده اليمنى التي انضمت الى يده اليسرى .

أما الآن وكشفه تلاصق شق المصراعين ، فقد حاول أن يتغلب على آخر عقبة تعترضه وذلك بأن يجعل المزلاج الحديدي الصغير يلتوي . لكن الخشب هو الذي اسنجاب . فبعد دفعين فثلاث أكثر فأكثر عنفاً ، تنسحق احد المصراعين بقطعة دوت وسط الصمت كصوت رشقة سلاح ناري .

هوى الى داخل المنزل وتدحرج على أرض الغرفة . كان الدم يدندن داخل رأسه . زفر لحظة ثم قام ، ذاهلاً من نجاحه ، متجاسراً بعض الشيء على تنقيل نظرة في الغرفة ، فجال على أنانها الذي تخيله مرات ومرات . ونفذت ألى الغرفة بدخوله أولى تباشير الفجر فاضأت الجدران القدره والسجادة المهنرة . عندئذ رأى أن الغرفة فارغة والسرير لم يمس .

الدقيقة الحاسمة مرت . وقف فدر ذلك الرجل حائراً لحظة ، وهو لا يدري ماذا يفعل به ، ملقياً به لإرادته العمياء ، لكن الطريق عاد فانشق مجدداً في وجه هذا الرجل . وامتدت يد لا تعرف الوهن فدفعت به ليسلكه ، وشارفت هلوسة الليل على نهايتها .

كان مستقلياً على السرير غارقاً في رائحة الجسد الغائب . ميّز الموقع الذي تضع فيه رأسها فتلمسه بخده وشفتيه وعينييه ، ومر براحتيه الداميتين على الأغطية والمخدة ، العابقة بعطر عب منه حتى انتشى .

راحت خطى تتحرك في الرواق جيئة وذهاباً . وفتح باب ثم أغلق . وارتفع صوت منادياً : « ما هذا ؟ من هناك ؟ » وتجاسر بفعل الصمت فصرخ : « النجدة ! » .

أصغى إليه دونما إدراك ، مثلما يصغي المرء لصوت يخرج من سبات عميق . واقترب أخيراً فأصبح لدى الباب . هذه مدام لوند تجأ بالصراخ . فالخوف أخذ بخناقها ، إلا أن صراخها يعلو أكثر فأكثر . وفي إحدى المرات نادى أنجيل .

جلس بعد هنيهة فانتزع عن المخدة غطاءها ودسه في جيب سترته . ثم قام فمتشى بضع خطى داخل الغرفة . كانت عيناه تنتقلان من شيء الى آخر ، من السرير الحديدي الذي ناء بحمله فسمع له صرير ، الى المرأة الصغيرة التي ردت إليه صورة وجهه الزائف . رأى الجدران وقد بقعتها الرطوبة ، وكرسيين من القنس قرب الباب ، والطاولة التي لم يعد لها جزار . سوف يحمل معه ذكرى هذه الغرفة التي قادته الحياة إليها من أجل أن تفدر به ، مثلما سيحمل قطعة البياض تلك والتي كان شعر أنجيل يتبعثر خصلاً وضفائر فوقها .

وحينما كان يتخطى ساعدة النافذة سمع الباب يندقّ دقات عديدة . بعدئذ فتح الباب ، لكنه كان قد انزلق من النافذة ليسقط متكوماً على نفسه عند أسفل الجدار . وسمع وهو في الساحة نداءات مدام لوند التي دخلت الغرفة الفارغة لتكتشف سرير أنجيل دامياً . ولم يكن عليها إلا أن تنحني من النافذة لكي تراه . انتصب رغم ما أحس به من ألم أصابه في خصرته إثر سقوطه ، ومتشى بمحاذاة المنزل حتى الشارع المار عند زاويته . فتوقف هناك لالتقاط أنفاسه . وعمد في غمرة ما انتابه من جزع الى كم فمه بوجه المخدة الذي سرقه ، لكي يكتم جلبة لهائه الاجش . دوخه العطر فأغمض عينيه . وتبدى أمامه عالم كامل من الذكريات . فقد تراءى في حياته الكثير الكثير من الذكريات بدءاً باللحظة التي رأى فيها أنجيل . وهي أشياء صغيرة يمكنها اذا أخذت مداها أن تكون ذات حجم كاف لسنين طويلة من اللوعة والعذاب .

وبغلة ثابت الى رشده ففتح عينيه ، كانت مدام لوند وراء النافذة توالي الصراخ واستطاع أن يرى من مكان وقوفه النور الأصفر الصادر

من مصباح جيب تحمله بيدها . أعاد قطعة البياض الى جيبه وزرر سترته كأنه عازم على الهرب . أما الصوت الذي خنقه الرعب وضخمه فكان يعلو ويخفت تارة فأخرى ناطقا بكلمات رهيبة : « أنجيل ليست هنا ! لقد ذبحوها ! الدم في كل مكان ! سمعت رجلا هنا ! هو الذي فعلها » .

نظر بحيرة يمنية فيسرة . على يمينه المدينة والصرخات تلك ستوقظها وعلى يساره السوميات والبرية ، لكن توجهه يسارا يعرضه للوقوع تحت نظر مدام لوند فتعرفه . فتوجه راكضا ناحية اليمين . هذه نافذة أضيئت وأصوات عدة بدأت تتجاوب من بيت لآخر ، لكن أحدا لما يخرج . اذ لابد من مرور دقائق كاملة حتى يستجمع المرء شجاعته . مضى محاذيا للجدران . في ركبتيه وهن وعلى صدره ثقل يضغط عليه فيحطمه بقبضة لا تعرف التراخي . أما قلبه فيخفق مثل قلب رجل مسعور يرتمي على جدران زنزانه سعيا للافلات . اذ لم يسبق أن عرف مثل هذا الخوف البتة . فجريمة القتل التي يتهمون بها ، وموت أنجيل الذي قد يلصق به ، أليس محتملا ، أليس صحيحا ؟ ترى هل كان يفعل غير لك لو أنه عثر على الصبية في سريرها ؟ نعم سيحجز رقبته ليشأر منها ، ليسكتها ، ويداه ستكونان ، مثلما هما الآن ، حاربتين ثقيلتين لزجتين .

قطع الشارع واتزلق نحو اليسار في زقاق معتم لا تبلغه صرخات مدام لوند . لكنه لم يجرؤ على التوقف . وبعد أن جرجر نفسه قرابة عشرين مترا ، وصل الى شارع يعرفه معرفة جيدة لأنه تبع فيه أنجيل مرة . وهو يؤدي الى النهر . لو كان الضوء قويا لتمكن لوند أن تراه ، لكن الظلمة مازالت كافية للمخاطرة ، فاستجمع قواه ثم استأنف جريه . كانت البيوت وطبئة تصطف متتالية على جانب واحد من الشارع ، أما الجانب الآخر فيرتفع من أوله الى آخره حائط مستودع الفحم . فعدا بمحاذاة ذلك الحائط . ثم وقف مترددا عند طرف

الشارع . فالصرخات عادت لتسمع بكل وضوح . نظر الى اليسار فلم
ير شيئاً وانعطف بفتة الى اليمين .

كان الطريق عريضا ومرصوفا بحجارة صلبة فغدا لوقع خطاه
عليها رنين . فبلغ التلعة التي تفصله عن النهر وطفق يركض فوق
العشب ، تحت أشجار الدلب التي تسير السوميات في مسيرته
الواهنة عبر المدينة . فهو حينما سيبلغ آخر واحدة من تلك الاشجار
القصيرة يكون قد نجا . اذ يبدأ هناك في الواقع حرج كثيف الاشجار
يتيح له أن يختبئ .

بدأت السماء تنكشف شيئاً فشيئاً ، واخذ ضياء باهت شاحب
ينرز من قلب الظلام آخر منازل المدينة ، التي تحدّ الطريق من جانبه
الأيمن ، وتلاه نزول الندى . قد تكون الساعة الرابعة . مدّ يديه
المتهبتين للقطرات الصغيرة الباردة وهي تلمع في الجو الرمادي . أما
جسده المنهك فلم يعد يحسّ بالتعب . فالأطراف ، حين تتجاوز مرحلة
معينة من الإرهاق ، تكفّ عن الشعور بالعناء وتستجيب تلقائياً للإرادة
التي لا تعود تملك قوة توجيه الأوامر إليها . فلو دعاه الأمر لأن يمشي
ساعة أخرى ، أو أكثر من ساعة ، لفعل .

تعثّر عند طرف الحرج بغصن يابس ، فتهوى على الأرض المفطاة
بالأوراق ، ثم ما لبث أن راح يغطّ في سبات عميق



- ١٢ -

استيقظ حوالي الساعة العاشرة وخرج من مخبئه . فاستأنف سيره على الطريق ، لكن وجهته الآن تلك البيوت التي هرب منها في الليلة المنصرمة . وجفت ملابسه في الريح وهي تهب . لم يجرؤ على استخدام يديه مخافة أن يعود فينكأ جروحاً ، ومضى مشعث الشعر وجسده ملتهب بحمى جعلت وجهه متورداً . لم تعد تشغله إلا فكرة واحدة : العثور على أنجيل . فهو قد بدأ ولا بد أن ينتهي . فهذه الليلة المفزعة التي عانى فيها كل أصناف العذاب معاً ، لا يمكن أن تكون كابوساً خالياً من أي معنى . لا ريب في أن لها نمناً ، ولا بد أن توجد ساعة في مكان ما من الزمن ، أو دقيقة تعوضانها .

مرّ أشخاص على مقربة منه ، فلم يرههم ولم يردّ عليهم سلامهم . سيذهب إلى المطعم للسؤال عن أنجيل . وسيضرب عرض الحائط بكل ما سيقولونه عن شكله ويديه المسودتين من الدماء ، وبكل ما قد يثيره من ظنون . لا يمكنهم أن يلقوا القبض عليه لأنّ شعره مشعث ويديه مليئتان بالخدوش . لكن ماذا لو أنّ شيئاً ما قد وقع لأنجيل ، ماذا لو أنّ أحداً قد قتلها ليلاً ؟ لو أنّها قد ماتت ؟

لو أنّها قد ماتت ؟ أرغمته هذه الفكرة على التوقف حتى كان يداً غير منظورة وجهت على نحو مباغت ضربة إلى صدره . كرّر السؤال بصوت عال ، من غير هلع ولا انفعال ، اتّما بذهول من يتلفظ بكلمات غريبة يصعب عليه إدراك معناها . استأنف السير بسرعة أكبر . لا يمكن لها أن تموت من قبل أن يحتويها بين ذراعيه . فهي ملك له . لقد وهبته

إياها الإرادة الخفية التي تنظم مصائرنا ، تلك القوة التي تسود العالم
وهبته هذه المرأة . فهي له لآله أحبها ولآله تعذب من أجلها .

حين بلغ جادة السوميانت أسرع خطوه ليفلت من انتباه فريق من
خمس نساء أو ست كن يتبادلن الأحاديث تحت أشجار الدلب . وها قد
بدأ يلوح الساحة التي خفق قلبه لدى مرآها . كانت أمامه امرأة تسير
في نفس الاتجاه . فتجاوزها ، لكنّها جرت وراءه ووضعت يدها على
ذراعاه .

سألته قائلة : « ما بك ؟ » .

إنّتها أنجيل .

وعادت تقول : « ما بك ؟ إلى أين أنت ذاهب ؟ » .

أزاحت بظاهر يدها خصلة شعر تدلّت على جبينها . واتّسعت
عينها وهما تلتصقان . نظر إليها لحظة ثم قبض على ذراعها بحركة
متشجّجة . وسألها :

— أين قضيت الليل ؟ — أجابت :

— أعاروني غرفة في المصبغة . أنت الذي دخلت إلى بيتنا إذن مساء
أمس ؟ لا ينبغي في هذه الحال أن تظهر بعد . عد إلى بيتك بسرعة .
اتركني .

— كلا .

— لنمض . لا ينبغي أن نظلّ هنا . أنت ترى أنّ الناس يمرّون .

— لن أدعك تذهبين . تعالي معي .

— أرخ ذراعي على الأقل . ما دمت أنا التي جئت بنفسك أكلتك . . .
كنت مروت بقربي دون أن تراني .

— أخبريني لماذا جئت تكلميني .

— لا أستطيع أن أقول ذلك لك إذا لم تتركني . إليك كيف يسير
الناس باتجاهنا وينظرون إلينا .

لا ينبغي أن نظل هنا .

— سأذهب إلى أي مكان تريدينه لكنني لن أتركك .

أدارت ظهرها للمطعم وبدأت تسير باتجاه الحرج . وتدلّى ذراعها
الأسير على جانبها .

سألته : « ألا تخشى أن استغيث ؟ » .

— كلا ، لا أخشى ذلك . — قالت بعد هنيهة :

— اصغ إلي ، ينبغي أن تعود إلى بيتك وتعيد ترتيب هندامك .
ثيابك كلها ممزقة . ستساور الناس الظنون وهم يروننا على
هذه الحال .

— هل تذهبين معي ؟

— كلا ، لا يسعني أن أقطع المدينة بصحبتك .

— ولم لا ؟ — توسلت إليه :

— أتركني . هيا أتركني . سأقول لك كل ذلك فيما بعد .

— أين أمضيت الليل ؟

- لقد قلت لك : في المصبغة .
- هذا ليس صحيحاً . بصحبة من كنت ؟
- لا ترفع صوتك كثيراً . ها هم الناس يمرّون .
- سكت هنيهة ، ثم استأنف يقول بصوت خافت من غير أن ينظر إليها:
- أخبريني فقط مع من كنت .
- لم أكن مع أحد .
- أعرف أنك استسلمت هنا للجميع . مع من كنت ؟ مع المسيو بلونديو ؟
- فجأة أجهشت بالبكاء وحاولت أن تملّص منه ، إلا أنه كان ممسكاً بها جيداً . وأضاف :
- كنت مع أحدهم . فمن هو ؟ لعله المسيو غروجورج ؟
- بقي السؤال بدون رد . سارا هنيهة في صمت . ثم سألها مجدداً وهو يهزّ يدها :
- قللي . أكان هو ؟
- لا هو ولا غيره . كنت وحدي . لم أشأ أن أنام عند ملام لوند . كنت واثقة من أنها ستأتي لتكلمني بشأن المسيو بلونديو .
- أعطيت وعداً بالخروج معه يوم الأحد .
- لم أعد بشيء . بل على العكس ، قلت إنني لن أخرج .

- أنت تكذابين . قال لي بنفسه إنَّ الاتفاق حاصل .
- هذا ليس صحيحاً . لكن دعني . حسبي ما أنا فيه من شقاء .
قلت لك أرخني . أنت توجعني .
- شدّها بكل قواد وأرغمها على ترك الطريق وتسلق التلعة . قال :
- ما دمت تخافين أن يرانا الناس ، فسوف نسير على الحافة .
- أما النبوة التي قيلت بها تلك الكلمات ، والنظرة التي صحبتها فقد
أفرعنا الفتاة . وأحسست بفتنة أنَّ التلعة التي تسلقّتها مرغمة شكلت
فاصلاً بينها وبين الحياة . وعبرت ذهنها مجدداً فكرة الصراخ «النجدة»
لكنّ غيره بدا كأنه قرأ تلك النية في عينيها ، لآته سلط نظره عليها
وقال لها :
- أنا هنا الأقوى . إذا ما استغثت ارتميت وإياك في الماء وغرقنا .
- فقالته وهي تضبط انفعالها :
- يا للأسف . فانا لا أفكر في الاستغاثة .
- لماذا تقولين : يا للأسف ؟
- لأنك في حالة . . . من يرك يحسبك مريضاً .
- إنّتها المرأة الوحيدة التي تراه فيها وهو يضحك ، منذ أن تعرفت
به . لكنّه استرجع على الفور هيئته الجدية .
- أراهن على أنّ ذلك يشقّ عليك .
- أجل .

فقال وهو يهزها من يدها :

— ولكن لا . فذلك لا يسبب لك أيّ غم ، لكنك تخافيني . فعبثاً
تقولين في نفسك إنه قد يمرّ أحدهم على الطريق بين لحظة وأخرى .
أنت تعلمين بأنني إذا ما رغبت في أن نفرق فلدي أربعة أضعاف الوقت
اللازم لذلك . لذا تقولين إنّ الأمر يحزنك . لكن احتفظي بحزنك هذا
لآخرين غيري .

أحسّت بحرارة لهائه تلامس بشرتها فأشاحت بوجهها قليلاً .
قال بفتة :

— قولي لي إنني أثير اشمئزازك .

فقالت وهي ترتعد :

— كلا ، كلا . بل على العكس . وإذا كنت تركت مدام لوند ، فمن
أجلك أنت . كنت راغبة أن أوضح لك .

فكرّر بقوة :

— قولي لي إنني أثير فيك الاشمئزاز . أمرك بذلك .

— إلا أنني أقول لك إن هذا غير صحيح .

فدفعها بعنف من غير أن يرخي يدها وجعلها تسقط على ركبتيها :

— قولي ذلك إن كنت متمسكة بالحياة .

فتأوتت مذمورة :

— أجل ، أجل .

— قولي : أنت تشير اشمئزاي .

فقلت بصوت لاهث :

— أجل ، طيب ، أنب ... تشير اشمئزاي . اتركني .

حاولت بذراعيها الأخرى أن تطال إحدى الأشجار الصغيرة التي تحدّ
السوميات والتي تشاهد رؤوسها من على الطريق بازغة من
فوق التلعة .

سألها :

— ماذا تريد أن تفعل ؟

— أنت ترى أني أريد النهوض .

كان واقفا حياها ، ملتهب الوجه ، يحجب عنها السماء بهيكله
السامق وكتفيه العملاقين . تركها لحظة تتخبط من غير أن يرخى ذراعيها
التي كانت تلتف واندور داخل قبضته . توصلت الى رفع ركبته ووضع
إحدى قدميها على الأرض ، وسعت لتلقي عيناها بعيني الرجل كأنها
تريد التوصل إليه ليسمح لها بالاستفادة من ذلك النصر . فدفع بها
على نحو مفاجيء فسقطت على الحافة . وانتزعت منها المباغتة والرعب
صرخة .

أمرها ، وهو ينحني فوقها :

— كفى .

لكن لم يعد بوسعها أن تتمالك نفسها : قلبها يخفق بسرعة فائقة .
وانطلق من حلقها على الرغم منها نداء رهيب ، جئير حيوان وقع في
الفخ ولم يعد له من ملاذ غير صرخات الألم واليأس . مشهد الهلع هذا

جعل غيره يخرج عن طوره . فصفعها باديء الأمر ثم أرخى معصمها ليأخذ رأسها بيديه ويدق به الأرض عدة مرات . فاخذت تلهث وتولول أيضاً . فوضع يده على فمها ، فعضت يده . فانتابته عندها نشوة من نوع خاص ، نشوة من الغيظ والالام . ادار فيما حوله نظرات امرىء سفت في البحر . ولوّح بذراعيه تطويحات كبرى فلامس أغصان الاشجار من حوله وفجأة أمسك بواحد منها ، فسعى وهو يتشبّث به على نحو مسعور لأن يقتلعه . اننى مرة فانتيتن ثم تمزق بقطعة هائلة ، كاشفاً عن شرح كبير أبيض في الجذع نجم عن اقتلاعه .

نهضت أنجيل في تلك الأثناء وأخذت تركض على حافة السوميانت . وعندهما اضحت على بعد عشرين متراً من غيره أرادت أن تصعد التلعة ، لكنها كانت في ذلك المكان على ارتفاع مترين من سطح النهر وبميل شديد جداً . فخذلتها القوة . فعادت الى الدرب الصغير واستأنفت عليه الجري .

لحق بها في بضع ثوان وأمسك بها من رأسها . التف شعر تلك الشقية الثقيل الأسود منساباً على ذراع الرجل . ظل ساكناً لحظة وهو يحس على ظاهر يده بنداة تلك الصفائر ووزنها ، ثم انقبضت أصابعه . صرخت وحاولت أن تستدير تجاهه ، لكنه رمى بفصنه جانباً ، ليقبض على الجسد المنتفض بكلتا يديه ، فيهوى معه على الأرض . كانت الفتاة تلهث وقد قهرها الإعياء والرعب . وفجأة شعر ، وهو في غمرة غيظ مسعور أفقده كل سيطرة على حركاته ، بدفقة من الحنان وهو ينظر الى بياض ذلك الجسد المهتز بلهات شاق فتتمم باسم أنجيل ، لكنها نظرت إليه من بين خصل الشعر المبعثرة فوق وجهها وعادوت الصراخ ، إذ أخرجها عن طورها الظن بأن هذا الرجل سيقتلها . وأمكن لها أن ترى السخط يعود الى عينيه كموجة بدلت لونهما ، فأغمضت أجفانها . فبض على عنقها ليخنق تلك الصرخات في حلقها .

ردد بنبرة توسل وسخط :

— أسكتي (١) .

وفيما كانت تحاول التملص وتصرخ ، ضربها على صدرها ووجهها ضربات عديدة . وبدأ له على نحو مباغت أن الثهر والاشجار والهواء تضطرب كلها من حوله ، وأن السماء امتلأت بهدير لا ينقطع . فأخذت القبضات تعلو وتنزل من غير أن يسيطر عليها . وأضحى همه الوحيد إسكات تلك الصرخات البهيمية المنطلقة من ذلك الغم ، وذلك الصوت الحاد الذي اخترق دماغه كخنجر وأخذ يمزفه . وتملكه رعب مفاجيء ، تملكه رعب ضحيته ذاتها . لم يعد يعرف كيف يهرب من نفسه ومن جريمته ، وكيف يمنع يديه من الضرب ، وكيف يسكت تلك الصرخات . لم تعد عينا الفتاة تنظران إليه ، لقد اضطرب نظرهما وانصرفتاهدبن تفادياً لمنظر الوجه المنحني فوقها ، فبدت في وضعها ذاك أشبه بعمياء أو بمعتوهة ، بل بدت أشبه بمسهد القتيلة على نحو ما تخيله في الليلة الفائتة .

وبفتة ، أخذ الفصن الملقى جانبا ، وكان في متناول يده . ورفع سلاحه وهو في سورة غضبه ليضرب أنجيل على وجهها ، على خديها ، على جبهتها إلى أن سكنت وحجب الدم عن عيني ذلك المنتصر تلك القسمات التي أحبها حتى العبادة .

* * *

١ — الخطاب هنا للمرة الوحيدة بصيغة المفرد .

- ١٣ -

هبت الريح طوال النهار وجالت بالأوراق الجافة ما بين جانب الطريق الرئيسية وجانب آخر أو بعثرتها فوق صفحة السوميات الساكنة . كان العنكب الكثيف على ضفة النهر يلتصق تحت أشعة الشمس وينبسط رافدا حتى كأن أجسادا منهكة استلقت فوقه لتعب من الندوة المتصاعدة من الأرض والماء . ونشرت الشمس ضياء ثابتا . فما من غصن إلا وألقى على الأرض خطا واضح المعالم ومتقلبا من غير أن تقوى الريح على محوه . ليس هناك ما بضاهي أوائل أيام الخريف هذه عدوبة . فالهواء المضطرب بتقلبات جبارة يبدو بحرا غير منظور تتحطم أمواجه بين الأشجار ، بينما الشمس المهيمنة على ذلك الصخب والاضطراب تمنح أصفر زهرة ظلا تجعله بدور عند قدمها حتى المساء . وينجم عن هذا الهدوء وذلك الجموح انطباع تمتزج القوة فيه بعدوبة تمجز لغة الانسان عن أدائها . فهي راحة لا تواني فيها واستثارة لا تلي أي أرهاق . فالدم يسري أكثر جدلا وانطلاقا ، وينتشف القلب بتلك الحياة التي تجعله يخفق . في تلك السويغات المغطاة تحمل الطبيعة السعادة ، لأولئك الذين لا يعرفونها ، مصحوبة بأريج الغابات وزقزنة الطيور ، وأناسيد الأوراق وكل الأشياء النابضة بالطفولة .

أمضى النهار بطوله يمتد في المنطقة بمحاذاة النهر . وأبصره أناس فتابعوه بنظرهم فخاف وأسرع في سيره ، لكنه كان يلتقي على الدوام بوجوه أخرى تستدير ناحيته ببطء ، وعيون تدقق فيه النظر بنفس التمعن ونفس الدهشة لما في هندامه من فوضى . ورجع قبيل المساء إلى المكان الذي ولى منه هاربا قبل بضع ساعات . إن السكينة التي

حلت الآن في قلبه تفند ما تقوله ذاكرته . فهو لم يعد يعاني أي قلق أو تعب ، بل يستمتع بالهواء المنعش وتلك الساعة التي يخفت فيها النور . حمل في رأسه اوقت طويل جداً ذكرى تلك الصرخات ، وذلك السكون المبالغ ، الذي أحس فجأة بعجزه عن تصديقه . إن ذلك لا يشبه باقي حياته في شيء حتى يكون صحيحاً ، ولم يتعرف على نفسه في تلك الحركات التي ظلت تمر على التوالي أمام عينيه . أو فص أحد عليه قصة العراك الشنيع قرب النهر ، لضحك من غير شك . فسار على حافة السوميانت ليتحقق من عدم وجود أي شيء ، وفتش عن المكان ليبرهن لنفسه على أنه غير موجود .

وعشر عله : هذه الأغصان المكسرة ، رآها في كابوسه . يمكن أن يكون قد لاحظ في سورة جنونه ذلك القدر من الأشياء الصغيرة والأزهار والأشجار والانعكاسات ؟ هناك شيء ما ظل في داخله متيقظاً ، بينما غرق كل ما تبقى من كيانه في شبه حلم فظيع تم فيه أعمال ما كان يحسبها ممكنة ، أعمال إجرام وشهوة . ولم يعد أمامه مجال للنك . وتبدت له الحقيقة بكاملها . لقد قتل تلك المرأة وافبل أناس فحملوها ، أناس تجمعوا حولها ، فتاملوا الفتيلة وتساءلوا ذلك الوجه المهتم ، ثم ألقوا على رأس الشفيرة قطعة ملابس أو كيساً أو أي شيء آخر ، لأنه روعهم . وماذا لو لم تمت ؟ لم يعد بوسعه أن يتذكر هل ظلت تتنفس أم لا ، كل ما يتذكره أنه شاهد بفتة بعد عدة دقائق ذلك الجرح الذي أحده في وجهها وأنه أصيب بالهلع فولى هارباً .

جری بمحاذاة النهر ثم ارتقى التلعة واستدار رغماً عنه ليراها أيضاً . كانت هناك ، ساكنة ، مستلقية على الدرب مبعثرة النسر . عندئذ استأنف الجري ليلتفت أبعد بقليل ، لكنه لم يعد بوسعه أن يراها من هناك . وعرف في تلك اللحظة بالذات أعظم راحة في حياته : لم يقع أي شيء مطلقاً ما دام لا يلمح شيئاً على الحافة . واستأنف الجري فدخل الحرج بما استطاعته ساقاه من سرعة وخوفاً من أن يراوده الاغراء فيرجع الى الدرب الصغير ليراها .

أما الآن وهو يقف كرة أخرى قرب النهر ، في مكان حدوث تلك الأشياء ، الآن والدرب الصغير فارغ ، فقد بدا كل شيء له واقعياً جداً حتى لكان جسد المرأة الشابة ملقى عند قدميه . منى بضع خطى يمنة ويسرة وهو لا يدري لم يلبث هناك بدلاً من أن يهرب . فالجلوس عند تلك الحافة يده بنسوة ، لا يجد في نفسه القدرة على التخلي عنها فوراً . ولو ابتعد لرجع لتوه . ولم يخلف عنفه من ندامة لديه . فقبل قليل كان يلاحقه الخوف مما جنته يداها ، ومع ذلك لم يكن ليصدق الأمر . أما ووعيه الآن يزوده بالدليل على جريمته فقد هدأ باله . كان يمعن النظر في العشب وبمكف عليه كأنه يريد العثور على آثار الجسد السدي أدماء . ويخفق قلبه لا خوفاً وإنما بفعل وجد جديد فلا يكبح جماحه ، وبفعل الغرابة الخارقة لكل ما يسبغ على ذلك المكان طابعه الخاص . رائحة النهر ، البرودة المتصاعدة من التربة ، وذلك الخفقان الدائم للأغصان من فوق رأسه . كان يكرر بصوت خفيض : « في هذا المكان » . وأغمض عينيه مرةً وأنتنيتين ونهد بعمق . ثم انتزع قبضة عشب ودسها في جيبه . وفجأه ارتدى على الأرض باندفاع مباغت ، واستلقى في نفس المكان الذي كان مستلقياً فيه قبل بضع ساعات . وسمع كما في الصباح صوت تدفق الماء عند الضفة ، وتمتة الأوراق . وألوا فتح عينيه لرأى السومانت من فوقه ، لكنه لم يكن يتبين ضفته الأخرى ولم يكن أمامه سوى الأعشاب التي تتقلب عليها الأنوار والظلال كما في الغابة وبعدها النهر عالياً ومستقيماً كالجدار .

كان ، ووجهه إلى الأرض ، يلتزم بسدينة تنبعثر فيها كل قواه شيئاً فشيئاً . وتهيأ له أنه يفقد وعيه بذاته . وأن عنصراً غير منظور يبسط سيطرته عليه ، إنه انبثاق غامض يتوارد من كل حذب وصوب ، ومن تلك النباتات التي نفدت رائحتها إلى أعماقه . وأحس في رأسه الذي أمسى خفيفاً ، بنبيء من الدهول جعل أفكاره مهوشة . وتلاشت ذراعه وساقاه وجسده كله ، وتمازجت مع كل ما كان يتنفس ويضج من حوله . وأغرق ، من غير أن يفدر على النوم ، في بحر من الانسداد حتى نسيب روحه بعض الوقت حقيقة وجوده .

بلغته جلبة حديث جعلته يشوب الى رشده . كان بعض الناس على الطريق يتكلمون بحماسة . توقفوا مرة فانتبين وبدوا وهم يتداولون في وجوب العودة الى الوراء أو منابعة دربهم . واذا كانوا لم يكفوا عن رفع أصواتهم فانه لم يستطع أن يفقه شيئاً مما قالوه . والكلمة الوحيدة التي استطاع التقاطها كانت « أبعد قليلاً » وتلك الكلمة أزعجته . كان أولئك الرجال يبحثون عنه . وليس عليهم لاكتشافه إلا الانحناء قليلاً من فوق التلعة التي تحجبه عن عيونهم . لذا عبرت ذهنه فكرة الهرب ثم استبعدوها فوراً . فأقل نائمة قد تفضح أمره . والأنسب له أن ينتظر ويتغلب على الرعب الذي جعل دمه كله محتبساً في صدره . إن مضوا في سبيلهم فخيئاً يفعلون ، وإن انحدروا الى الضفة ألقى بنفسه في الماء .

لقد ابتعدوا . وحملت نسبة اليه أصواتهم وهي تزداد حدة بفعل المناقشة . وبعد لحظات رحف باتجاه معاكس للاتجاه الذي سلكه حتى الآن فزاد المسافة التي تفصله عنهم قرابة عشرين أو ثلاثين متراً . استراح برهة هناك ثم نهض فتسلق التلعة ليستلقي بعدئذ في الخندق الصغير الموازي للطريق . كان يوسع أن يراهم وهو يتمد على مرفقه . إنهم ثلاثة بمشون ببطء لكنهم أمسوا على مسافة لا بأس بها ، واحد منهم قصير هزيل يسبه المسيو بانسو ، وهو الذي كان يسند زميله من ذراعيهما ليرغمهما على التوقف ، فيقوم بعدئذ بحركات واسعة من عكازه .

انتظر حتى ابتعدوا بضع خطى أخرى ، ونهض وفد خاف أن يعودوا على أعقابهم فقطع الطريق بكل اسنمجال . كان الموقع الذي اختاره ملائماً جداً ، فقد ظهر أمامه زقاق في الجانب الآخر من الطريق ، فسلكه وجهد ألا يعدو فمضى على الرصيف صعوداً باتجاه المدينة .

غاب النهار بسرعة . فهذا الجزء من لورج غير مضاء لبلأ . ولن تيسر الرؤية فيه بعد ربع ساعة . فأوحى اليه الحدر بالكوث هنا والانتظار ، لكن كيف السبيل الى الانتظار اذا كانت أطرافه لا تستجيب

لاية راحة ؟ . كان ينقل على الرغم منه بين جانب من الزقاق وجانب آخر ، وكان آمنه قائم على بقائه في حالة حركة دائمة . وكان الخطر سيحقق به متى ركن الى السكون .

ولما كان في حالة يستحيل عليه معها التفكير بشيء أو القيام بمحاكمة عقلانية مع نفسه ، فقد واصل تجوالاً كان من شأنه أن يجعله موضع ظنون المارة وشكوكهم لولا أن الزقاق مقفر . فحركانه كانت تنم على هلع مكبوت بمشقة كبيرة وأمسى ظاهراً عجزه عن السيطرة على نفسه إذ كان يديم التلفف من حوله ويتوقف على نحو مباغت ويقوم بكل مامن شأنه إثارة الشكوك . وبلغ وهو على تلك الحال شارعاً أعرض بقليل لكن الحركة فيه قليلة مثلما كانت عليه في الزقاق الذي تركه لتوه . فليس فيه شجرة واحدة والعشب ينمو بين الحجارة على قارعة الرطيق . تذكر كيف رأى هذا الشارع عند الفجر فمنعه مظهره المشؤوم من أن يسلكه . لكنه أمسى الآن يناديه . كان يمضي بين تلك البيوت الفقيرة ، بنوافلها المفلقة ، فركض على مرأى منها وقد استولى عليه هلع لم يعد يفوى معه على اختيار أفعاله ، فبات يديره كيفما شاء ، كان وقع خطاه يرافقه ويتزايد على ما يبدو مثلما تكبر باستمرار جلبه صادرة عن الجند . هل ينعطف عند نهاية الشارع يمناً أم يسرة ؟ إنه لا يدرى . فساقاه سوف تحملانه حيثما تشاءان وحينما تقدران . لم يعد له سوى الملاذ الأخير الذي يلجأ اليه اليأس باعتماده على إلهام المصادفة المفاجئة . والأهم لديه أن يجري رغم ضربات قلبه الرهيبة التي أمست ترعزع أركان صدره ، ورغم الدوار الذي ينقل رأسه ويتموش الرؤية أمام عينيه . كان يصدر عن حلقه المتشنج لهات أجش . وسمع صوت نافذة نفتح بعيداً من ورائه فركض بسرعة أكبر . أما حين بلغ نهاية الشارع فقد انعطف يمناً ، وما ذلك إلا لأن التوجه يساراً سيرغمه على الصعود ولم يعد يحس لديه القدرة على ذلك ، ورأى شخصاً يقف على مسافة قريبة منه فبدأ كأنه في انتظاره .

إنه رجل يرندي معطفاً أسود اللون ويعتمد على عكاز ، وينسدل أمام عينيه حرق قبعة عريضة ليزيد في جعله أشبه بعاجز مسنّ حصل على إذن بالخروج من المصح للقيام بجولة في المدينة . ذلك أنه كان أحذب بفعل السنين وكان في تفصيلة ملابسه ما ينم على مظهر عسكري .

أمعن كل منهما النظر في الآخر هنيهة وقارعة الطريق تفصل ما بينهما . فالحارب توقف في مكانه جامداً . كان يتخيل وجود من يلاحقه ، لكنه لم يحسب أن من الممكن ملاقاته وأنه سيجد أحداً في انتظاره . ماذا يمكن لهذا الرجل أن يفعل لو أنه واصل الجرى ؟ لاشك في أنه أضعف من أن يلجأ الى ملاحقته ، لكن في مقدوره أن يصيح فيدب الصوت في المدينة . من هو ؟ هل هو على علم بشيء ؟ ولم لا يتحرك ؟

حطم التعب أضلامه . فرفع يديه الى خاصرته وجهد لبسحب نفساً طويلاً . كانت كل حركة من حركاته موضع مراقبة العجز الذي لم يتح أي مجال للكشف مما يمكن أن يكون لديه من نيات . ومرت عدة ثوان وسط صمت مطبق . كان الشارع ضيقاً وطويلاً . يصعد يساراً فيتلوى عبر المدينة ، وينزل يمينا بانحدار سريع صوب النهر . وهذات الرياح حتى كأنها لم تهب منذ الصباح إلا لتطرد النهار خارج ذلك الجزء من الأرض . فالضياء يخفت من دقيقة الى دقيقة . وما من نامة تأتي لتحطم جدار الصمت . وبدت الحياة معلقة بسبب السكون التام الذي شمل كل شيء . شعر غريه بنوع من السحر يستولي عليه شيئاً فسيئاً فيسلبه حركته . مرت نانيتان أو ثلاث ، ما في ذلك من ريب ، لكن غريه ناء بحمل هذا الوقت القصير جداً والذي كان يسحقه . فالساعات المعدودات التي عاشها منذ الفجر ولدت في نفسه انطباعاً غريباً على أنها حياة داخل حياته ، حياة فظيعة ، ملأى بالعذاب والدماء ، لا هي بالقصيرة ولا بالطويلة ، ويستحيل قياسها استناداً لمواصفائنا البشرية ، لكنها متكاملة بذاتها، ومنغرسه في حياته هذه كموقع الحلم في ساعات اليوم الاربع والعشرين ، فلا تماثل حياته هذه في شيء بأكثر مما تماثل رؤى الليل ما تؤديه في نهارنا من حركات . وهي تؤكد أن تنتهي ، فهو

سيستيقظ ليسترجع الهموم المألوفة من سام في الصباح وضجر في
المساء . لكن ماذا لو استيقظ بيدين دامتتين ليجد أن كل تلك الفظاعة
كانت حقيقية ؟ أيمن للكاپوس أن يتحول بنفسه الى حقيقة ليمتزج
بالاشياء اليومية ؟

صاح على نحو مباغت :

— لم تنظر إليّ ؟

— أنا لا أبغي منك شيئاً .

كان الصوت الذي أجابه رفيقاً واهناً ، كان صوتاً بطيئاً لا يقوى
على نطق سليم للكلام .

قال غريه والهلع يستوطن قلبه :

— إن كنت تحسب أنك تخيفني ... وسكت ثم أضاف :

— ... بعكازك . أيها الواشي الهرم !

فهزّ العجوز رأسه وقد احمر غضباً وقال متلجلجاً :

— أنا واش ؟ أنا لا أعرفك . إنني اتجول في شارعنا . أنكون إذا
قد فعلت فملة سيئة حتى أمسيت تخاف الناس ؟

فكرّر غريه :

— أخاف !

أخذ ينتفض غيظاً . وبدرت منه الحركة العنيفة لرجل ينزع عنه
ملابسه وهبط عن الرصيف فتقدم خطوة وسأل :

— ماذا ، ايفيني واحد متلك ؟

ورأى العجوز يهر رأسه نائبة وقد فغرفاه ، فونب عليه بفتة وانتزع عكازه . وتدرج الاثنان على قارعة الشارع ، سقطت السيدارة لتكسف عن رأس ذي شعر أشيب واقف . أمسك المعتدي بالسيدارة وحاول أن يدسها في فم العجوز الذي كان يسرح بصوت واهن . وأحس بقوة خارقة تدعمه ، فتسري في أطرافه كالكهرباء ، متلهفة وجدلى . تنسجت ساقا العجوز بعد عدة محاولات التملص ، فالذراعان المقيدتان كفتنا عن المقاومة . وشل الدعر ذاك الجسد الذي تهاوى مثل شجرة جافة . الوجه وحده بقى محتفظا بوضع إمارات حياة ، لكنها حاة تدنت حتى حدها الأقصى بفعل خنسية رهبة من الموت ، فاعتصمت لا في العينين اللتين أمسّت نظرتهم فارغة ومستقرة ، بل في حركات يائسة للفكبن وهما ينفتحان وينطبقان على اليد الجانبية . انهالت العكاز المرفوعة بادىء الأمر على صدر الصحبة ، لتتحول بعنف مسعور على الجبين والصدغين حتى نفر الدم .

انتصب فجأة وقد رأى الخطوط السود تجري وتلاقى فوق ذلك الجلد المصفر . ما من صرخة أنذرته بأن الحياة ولّت هاربة ، وأن الموت أقبل وسط جلبة ، بلا صدى ، لوقع ضربات العكاز . عاين وهو واقف يلهث ذاك الرجل القصير الذي أجهز عليه بعضا . بعد هنيهة ابتعد لبضع خطى ونظر فيما حوله . إنها لمعجزة إلا يكون أحد قد رآه أو سمعه . مازالت يده تقبض على العكاز التي استخدمها فرمى بها سم التقطها ليلقي بها في فتحة كهريز كانت هناك . وسمعها ترتطم مرات عدة بالجدران الحجرية . إنها تطفو الآن على صفحة مياه قدرة متوجهة نحو السوميان الذي سيلفها ويحملها بعداً جداً حتى إنها لن ترى أبداً من بعد .

هبط الشارع من غير أن يستدير . باتت الظلمة تامة تقريبا . اضيئت نافذة ثم أخرى وهذه في لحظة مروره تحتها تماما . وعندها عاد

بركض . كان الانحدار شديداً حتى تعثر وكاد يقع . فخطاه تتلاحق رغما عنه . كان يعلم أنه بركض بسرعة فائقة ويحدث ضجة كبرى . ما عساه يفعل حين يصل الى الجادة التي تسير النهر ؟ فما قد بدأ يلمح أشجار الزيزفون ترتسم بسوادها على سماء لا لون لها . إنه يمضي الآن محاذياً لجدار أبيض فيضىء بياضه الشارع في ذلك المكان . تذكر وهو يركض أنه يعرفه ، فعجل في بلوغ طرفه ليفلت من ذلك الضوء المنتشر الذي كان يبلغ عنه . فبعد ثانيه يصل الى الباب الشبكي للمركم (١) . وبعد أن يصل الى هناك سيتوقف ليلتقط أنفاسه ولينتقي الطريق الذي سبسلكه ، لأن النهر لا يبعد سوى أمتار قليلة ولا يجد غيره في نفسه القدرة على السير في تلك الطريق مجدداً ، والهروب بمحاذاة تلك الضفة التي ترعبه ذكراها . وبرزت من قلب الفوضى التي غرق فيها عقله فكرة ظلت واضحة : إن ضفاف السوميات والدرب والخرج وكل المنطقة التي تألم فيها صباحاً أمسست محظورة عليه الآن بما فيها الشارع الذي نزاله لتوه مسرعاً . ويستحيل عليه الرجوع من حيث أتى مهما بدا له ما في الفكرة من جاذبية وتأثير . عليه أن يمضي قدماً ، حاملاً طاعون جريمته بعيداً . نحو شوارع لم تره البتة منذ بدء كابوسه .

كانت ساقاه ترتعدان بشدة حتى أخذ ينك في قدرتهما على حمله حتى التجويف الكبير المظلم الناشئ عن باب المركم وسط بياض الجدار . حاول أن يخفف من سرعته فيمشي ، لكن تبديل السرعة يتطلب منه جهداً لم يعد بوسعه أن يبذله . فالإنسان المنهك لا يكف عن الجري لكي يسير سراً ، بل يمضي في جريه قدماً الى أن ينهار . بدا له أن صدره يتفجر ، لعجزه عن احتواء قلب جنونه لينهال على جنباته ضرباً . أما لهاته فينسبه اهيباً يملؤه وينهشه .

(١) مركم : مكان يضع فيه التجار الحطب أو الفحم المعد للبيع . - ٢ -

تساءل على حين غرة : « مم أنا خائف ؟ » الواقع أن الشارع خال وليس ما يخطر الصمت سوى جلبة وقع خطاه فوق الحجارة . فتحير الفزع داخل نفسه في ظرف ثانية واحدة . ظهر في تلك اللحظة ، خيال رجل عند طرف الرصيف حيث يشكل الجدار زاوية مع الجادة . وكان هو الآخر يحمل بيده عكازا . وحين سمع صوت ركض في اتجاهه توقف جامداً وصاح : « يا هذا ! » لكن ندائه لم يلق جواباً . أضف الى ذلك الجلبة التي سكنت . انتظر الرجل هنيهة ثم قفل راجعاً وهو يحرص على السير في وسط الشارع . وحين تجاوز باب المرمم السبكي لم يعد يجرؤ على الذهاب أبعد ، فتوقف . وتأمل الظلمة من حوله فتوجس خيفة . ثم انتابه الفزع فهبط بسرعة زائدة نحو الجادة . رمى غييره بنفسه في باحة مرمم الفحم . ولو لم تكن النسبة الحديدية مفتوحة لكان انتهى أمر ذلك الشقى : كان سيسلم نفسه للمتجول الخائف ، رافعا عقيرته بالصياح : « امسكوا القاتل » ، كي يضع حداً لمحتنه ، أما وهو يرقد الآن على الأرض وراء الشبكة ، فقد بدأ جسده بالاسترخاء واخذ العرق الذي بلل أطرافه ، يجف في هواء المساء المنعش . ورأى ورأسه مرتد الى الخلف وعيناه مغمضتان ، سماء سوداء تدور فيها الكواكب .

حين فتح اجفانه كان قد مضى ربع ساعة وحل الليل . وشيئا فشيئا أخرجته بعض الأصوات من خدره . كانت صادرة حسبما يدل وقعها ، من البناء الذي يحتل ابعـد زاوية في الباحة . وفهم أن البحث يدور حول اضاءة فانوس الباب . أعاقه التعب عن النهوض ، لكنه استطاع أن يجبر نفسه بجانب كدسة كبيرة من الحطب فدار حولها ورقد وراءها . ولم يعد من شعور يهزه بعد أن غاص في حالة من البلادة . وسمع كمن هو غارق في حلم وقع خطى تقطع الباحة قطعاً مائلاً . وبلغت الباب فتوقفت . عندئذ طرق سمعه وقع حذاء ذي صفائح معدنية يتسلى أحد النصبين اللذين يحدان المدخل . أطلق أحدهم صفيرا . وبعد هنيهة قفز من فوق النصب الى الأرض وعبرت الخطى الباحة مجدداً ، وفتحت باب ثم أعيد اغلاقه .

ظل ينتظر . لم يكن ضوء الفانوس يصل اليه بسبب اكداس الحطب لكنه كان يتبينه من فوق رأسه . كانت رائحة التراب والخشب تعبق ندية ثقيلة من حوله فيعصب منها بنهم حتى كأنها سترد إليه قواه . عادت كفتاه تنرفان ثانية . وكان يسعر بذلك كلما أطبق أصابعه على راحتيه . لكنه لم يعد يفكر بالتهوض والهرب . لقد منحه الشعور بأنه بلغ بتشكيل ما حدود سقائه ، طمانينة جديدة . لانهم ولو اكتشفوه وراء كدسة الحطب وأوقفوه فلن ينقدّر له أن يعاني أبداً أكثر مما عاناه اليوم . لقد طفح به الكيل . وكان وسط الصمت لا يميز إلاّ بمشقة صوت انفاسه المنتظم . هذا الصوت الذى لعله كان يعدّ آخر ما تبهى أمامه من دقائق الحرية .

سمع دقات ساعة آتية من بعيد . لم يدر في خلده بادى الأمر أن يعرف الوقت . ولم يول انتباهاً إلا الدقات الخمس الأخيرة ، لكن لا بد أن تكون الساعة السابعة فالليل أظلم . كانت قطع الفحم أمامه تتلقى ضوء الفانوس فتبرق كالزجاج . تأملها بعينين مثقلتين ثم ألقى رأسه بعد أن رفعه لحظة ، ونام وخده على الأرض .

دام رقاده حتى منتصف الليل . أيقظه شيء يتحرك بعناد جيئة وذهاباً على مقربة من وجهه حتى ليكاد يلامسه . أحس وسط الأحلام المنوشة التي راودت خياله بيد كبيرة تريد أن تتكسش بشعره فيحاول أن يتفادى ملمسها بحركات متلوية تهز كتفيه . لم يكن في الحقيقة سوى واحد من تلك الجرذان اللماعة المتخمة التي كأنها والدت آتياً من قلب الفحم فتنام نهاراً وتسرح ليلاً في مركزها وكأنها في روضة مسحورة عابقة بالروائح القوية وملأى بمشاهات الماشي .

نهض فبلغ الجدار متعتراً وحاذاه حتى الباب الشبكي فوجده مغلقاً . كان الفانوس مطفأً لكن القمر ينشر ضوءاً قوياً وساطعاً فيرغمه بريقه على عرك عينيته . الباحة مستطيلة الشكل . وتفصل موقع الباب عن مكتب الادارة مسافة تعدل خمسة عشر متراً ، والمكتب بناء من طابق واحد على يمينه باب يفتح على الشارع . ويقوم على طول أحد الجدران

طنف ذو ميل قليل ومنبسط الى حد يكفي ليقى من المطر عربة ذات عجلتين وكدسة كبيرة من رزم الحطب مركونة بجانب المنزل .

ارتفعت في وسط المركم ثلاث اكوام من الفحم ، متساوية الاحجام ومنفصلة فيما بينها رغم انهيارات تؤدي الى تسوية رأسها وتوسيع قاعدتها لتتقارب أكثر فأكثر . وكانت الثلاث تمكس بشدة الضياء الذي يفمرها . ما كان لجدار من الجبس أن يبدو أكثر بياضا من صفحتها المواجهة للقمر . وإذا كان الجبس باهتا ، فان صفيحات الركاز^(١) الماسية تلمع مثل ماء يضطرب ويتلألأ . لقد أسبغ ذلك الجريان الساكن على كتل الفحم والأنترسيت طابعا غريبا . فبدت خافقة مثل كائنات وهبها الكوكب السحري طوال ساعات حياة غامضة ومذهلة . كان على صفحة إحداها شرح أفقي يشكل ثلما لا يطاله الضوء ، فيوحي بضحكة صامتة في وجه معدني . ونكاد ظلالها تتلامس من ورائها ، فتشكل هوات على شكل مثلث وبدو كأنها انبجست من داخلها فبرزت الى سطح الأرض لتبدو خارجة من الجحيم . أما الشكل الاعتيادي لوضعها ، كثلثة أشخاص تجمعوا للتساور فيما بينهم ، فكساها بمهابة كثيفة . وإذا ما امعن المرء النظر فيها مطولا ، وسط صمت منتصف الليل ، وتحت سماء سوداء بدا القمر مثبتا في كبدها الى الابد ، رآها مرعبة مثل الالهة تشهد مأساة يتقرر فيها مصير الخليقة .

ما في الجو من نسمة . وكل مظهر من مظاهر الحياة كان معلقا بين تلك الجدران كما في مكان مسحور . والأشياء المتحوّلة بفعل إنارة شديدة لم تعد من هذا العالم بل تنتسب لكون يجهله الانسان ، فيحسب المرء ذاته بين أنقاض حاضرة ، لكنها حاضرة غير أرضية ، لسدة ما خفق القلب لكل ما حفل به ذلك المكان من بهاء وخيبة .

(١) معدن غير خالص . وهنا الفحم الحجري .

نظر أمامه بعض الوقت من غير أن يفهم تماما أين انتهى حلمه ومتى بدأت مرحلة يقظته . فحين ألقى بنفسه جانبا قبل ذلك بخمس ساعات، حتى يتفادى الرجل القادم نحوه ، منعه التعب من ملاحظة طابع المكان الذي التجأ إليه . أما دماغه المنهك فلم يعد يتلقى أي انطباع . قطع ثلاث خطى أو أربعاً ، ورأسه ممثلىء وهماً فوصل كومة الفحم الأولى . لم تأت بعد أية ذكرى لتماماً نفسه اضطراباً . وقف متل ولد مندهشاً لرؤية ذلك الهرم المتألىء وهو قدّامه . وانحنى فغمس يده كأنما في تيار سيل فأخرج حجراً أسود ذا مكاسر ملأى بالسرور .

قطعة من الفحم . قبص عليها براحة كفه هنيهة ثم أرخاها . دار ببطء حول الهرم الأول ، ومر أمام الثاني ، ومشى حتى وسط الباحة كمن يمشي وهو نائم . كانت قدماه تصدمان الحجارة . أما نظره فلا يستقر على شيء بعينه ومع ذلك فهو يتعرف على المرمك ندرجيا ، لكن الفوضى المسيطرة على فكره لم تراجع . فتبرز أمامه صور مهوشة من غير أن يقوى على إحكامها وإسباغ شيء من الواقع عليها .

لم يعد في حلم وهو يقطع الباحة . فالحلم هو البد التي كانت تسعى قبل قليل لأن تتشبث بشعره ، أما الخطى التي تسير به نحو البيت في طرف المرمك الحقيقية . فهو يصفى الى وقعها . ويرى ظله يمشي أمامه صغيراً وأسود ، ثم أكثر طولاً ، بل أطول من نائية لأخرى ، فبدأ كمن كان متلهفا الى الوصول حتى يجره من قدميه .

حين بلغ البيت توقف . هناك ثلاث درجات تؤدي الى باب نرعت قبضته . كانت المصاريع الخشبية مغلقة . ارتقى الدرجات الثلاث فأسند ظهره الى الباب وأجال طرفه متأملاً المرمك بكل امتداده . الأهرامات الثلاثة بنسق مائل ، كدسة الحطب التي رقد في ظلها ، الباب الشبكي المغلق ، الجدران العالية البيضاء ، الطنف الأسود ، العربة وذراعها على الأرض كأنها غافية ، ذلك المشهد الغريب أثار اضطرابه . هبط الدرجات وتوجّه ناحية العربة . فرؤية تلك الأشياء عن كثب قد

تنزع عنها منظر الرؤيا الذى اكتسبه بفضل الاضاءة الانية الخاصة . مع ذلك تذكر الآن هذا المرمك . لقد سار بمحاذاة هذا الجدار ودخل من ذلك الباب الى ذلك المكان الذى كان معروفا لديه من قبل لأنه سمع كلاما بشأنه . أليس من هذا المكان عينه يأتبه الفحم الذى يشعله في بيته ؟ ليس ما يدعو اذاً الى خوف لا مبرر له . بل عليه أن يبحث عن وسيلة للخروج من هذا المكان المسور . فد لا يكون الباب التسبكي مغلقة بمفتاح ؟ بل قد يتمكن من تسلقه بكل يسر . لقد استطاع التسلق من قبل الى الطابق الأول من مطعم لوند .

أرغمته تلك الذكرى على التوقف كمن تلمى ضربة على وجهه مباشرة . فالحياة الواعية استأنفت نشاطها بعد أن هابت فيما يشبه الضباب . والذاكرة وجدت نفسها على حين غرة . لقد حاول المراهقة معها دون جدوى لأنها أقوى منه . وليس ما يقهرها إلا النوم أو الموت . وذلك ما كان يخشاه . لم يعد بوسعه أن يخدع نفسه ، فعليه المضي بحياته في الاتجاه الذي أعطاها إياه بدءاً من يوم أمس .

كان في متناوله قبل أربع وعشرين ساعة أن يتصرف مثل باقي الناس ، فيلبث في بيته أو يخرج منه ، يستلقي على سريره أو يخرج متجولاً في البرية ، يتحدث الى الناس الذين يلقاهم في الشارع أو يلوذ بالصمت . أما الآن فلم يعد بوسعه أن يمني خطوة واحدة إذا لم تكن تؤدي به الى مأمن من الناس ، ولا أن يتوقف من غير أن يتخفى . وإذا ما لبث في هذا المرمك فهو يقامر بافتضاح أمره . وإذا ما أفلت منه ، فسيعرّض نفسه لالقاء القبض عليه في الشارع أو على الدرب أو وسط الحقول . إنه لم يعد حراً . أي كان حياته في السجن قد بدأت . فأول عابر سبيل سيكون عنده كأنه المسجون . وإذا ما صادف عند زاوية الشارع امرأة أو والدا فستكون حريته رهن إشارة منهما ، هذا إن لم يحم بقتلها مثلما قتل الرجل العجوز . لكن يده لن تطاوعه من بعد . وهو يشعر بذلك . فالقدرة على القتل ، وهي نوع من أنواع الهبة قد أعطي إليه بالأمس ، وسحب الآن منه . وجد نفسه ، كما كان في الماضي،

ضعيفا وجلالاً ، لكن فكره متقل بذكريات يسمى دون جدوى لاستبعادها ،
فيثن لشدة هولها . شعر بالحر وبدأ العرق يسيل على ظهره فيلتصق
قميصه بجلده . وبدأت يداه بدافع من قنوطه تتحركان دون أي مبرر
فتتشبشان بسترته ، وتجوبان بشرة صدره كأنما ستمزقانهما . وقيدته
خوف بشع في ذلك الركن من المرمك ، وهو الخوف من أن يرى اذا
ما خرج من الظل الذي أنعم به الطنف عليه . وتولد لديه انطباع بأن
الضوء حين يسقط عليه يجار بالصراخ ليثني به فيجن جنونه . أما هنالك
وسط الظلمة فبمقدوره أن يفكر .

أول ما عليه أن يفعله بعد مفادته المرمك ، وهو عازم على مفادته ،
أن يصل الى بيته بأسرع ما يستطيعه . فالفتاح في جيبه . سيدخل
من غير أن يوقظ زوجته فباخذ كل ما في حوزاته من مال . ثم يتوجه
سيراً على قدميه الى المدينة المجاورة ليركب أول قطار عابر . بقي بينه
وبين الفجر أربع ساعات الى خمس . وهو وقت كاف بشرط ألا تنقصه
العزيمة .

سار بضع خطى في الظل محاذياً كدسة حزم الحطب ، وكان ذلك
الظل يشكل واقياً على حافة هوة هي الضياء . وتقلب جنبه حتى على
الغريزة التي تدفع به نحو الهرب . فهو يستطيع كل مسوَّغ يطيل
تلك اللحظات الخطرة من التردد . ولا بد من التفكير والتقاط الأنفاس
قليلاً .

اصطدمت قدمه على مفربة من العربة بدلو موضوع بين الدرامين .
كانت تطفو على سطح الماء قطعة من الاسفنج استخدمت أثناء غسيل
العربة . نظر الى الماء ، فخطرت بباله فكرة غسل يديه ليزيل بعض
البقع المسبوهة التي يمكن أن تلاحظ عليهما ، وحين انحنى نحو الدلو
استبدت به رغبة مفاجئة في أن يرى وجهه . فقد انقضى نهار وليلة
من غير أن يرى نفسه . وهذه أول مرة يفكر فيها بذلك الأمر ، وأصبحت
الرغبة أشد الحاحاً . فكيف أمسى بعد ما قام به ؟ إنه يريد أن يعرف .

بدأ على صفحة الماء شكل غير واضح المعالم ، أشبه بظل لم يميز فيه سوى معالم رأسه وكتفيه . وأخذ الظل يرتعش تحت لهائه لأنه ركم أمام الدلو ، لكنه لم ير شيئاً من قسّمات وجهه ونظّرتة .

عندئذ تناسى خوفه من النور ، الذي منعه من الخروج من تحت الطنّف ، فأمسك بالدلو من قبضيه وحمله الى تحت ضوء القمر . وتأوّه حتى كأنّ ثقل الماء فد أنهك قواه . ركم نائية وانحنى لكنه استقرّ في الموقع القلّط فمنعه ظلّه من أن يرى نفسه . فدار حول الدلو ورمى بقطعة الاسفنج جانباً وانتظر حتى تسكن صفحة الماء .

إذا هو لم ينحن كثيراً وإذا ما اتخذ وقفة شبه منتصبّة فيسبج في رؤية نفسه . لم يكن الماء صافياً . لكنّ القمر أحاله مرآة . خفّت شيئاً فشيئاً حدة التجاعيد التي تراقصت على السطح وبدأت الصورة التي ميزها تزداد وضوحاً . بات الآن ساكناً : فذلك الرجل الجامد هو هو .

لبث بضع دقائق بلا حركة . شعره مشعث . لحيته ترسم ظلاً على خديّه . ملابسه تبدّى فيها القوضى . كان يتوقع ذلك كله فلم تتوكله أية دهشة . إلا أنّه بدأ ، وهو راكع وذراعااه تتدليان ملاصقتين لجسمه ، في حالة انبهار فلم يأت بحركة . أما الرعشة الخفيفة التي تهزّ جسده ، فكان يتبيّن في الصورة المرتدّة اليه عن نفسه . قد لا يتمكن أبداً من تحويل نظره عن ذلك الانعكاس المذهل . أما وهو مغمور بذلك الضوء الجنازري فلم يكن خائفاً من القمر بل من النظرة التي تلاقى نظّرتة فتستوقفها كما يفعل السحر . أما عن الملاحظة فقد رأى تلك النظرة مراراً وتكراراً من قبل حتى لاحظها . والنظرة تلك مقبلة الآن عليه باحثه عنه ، بل هي تنطق وتنبض بالحياة مثل هذا القمّ الذي ترتعش شفّته وهما توشكان أن تنفجرا لتتلفظا بالنداء . بدأ على ذلك المحيّا الواقع في أعماق الماء أنّه يصعد فيرتفع بهدوء ليخرج من الدلو . لقد تعرّف عليه هنيهة ، لكنّ الرعب أحدث فيه على نحو

مباغتة تفييراً خارقاً فلم يعد هو نفسه . إنه يوشك أن يخرج من الماء ليخفق في الجو قبالة ويصرخ . توترت ساقاه على حين غرة فهب واقفاً من فوره وقلب الدلو .

أحدث الصمت من حوله جلبة تلقفتها أذناه ، وأطلق صوت انذار كأنّ الدلو المتدحرج على الحجارة قد ايقظ الليل . وضع قبضتيه على صدغيه وجرى وراء كومة فحم تم اندفع باتجاه الباب الشبكي فحاول فتحه مديراً القبضة بعنف في هذا الاتجاه ثم في ذاك ، وقد أخذ الهلع منه كل مأخذ بسبب ما أصدرته من صرير . كان الباب مغلقاً بالمفتاح . فصعد على الدعامة مثلما فعلوا من قبل لدى إضاءة الفانوس ، ليتبين له من هناك أنّ كل جهد لبلوغ أعلى الجدار كان بلا طائل . فنفد صبره وأحسّ بوهن في قوته وضيّق الوقت عليه الخناق . فالفجر لم يعد بعيداً . قفز الى الأرض وجرى نحو المنزل . فالقدرة المتبقية لديه تتبدد بسرعة وإذا لم يهرب على الفور فسينتهي أمره . قد يكون احتبس في ذلك المرمك عمداً . فربما توقعوا أنّه سيتوجّه الى هناك وانتابه الشعور بأنهم يترصدونه من وراء أكوام الفحم مثل الذين برعبه . صعد درجات البيت ثم نزلها وحاول فتح الباب الصغير فقاوم مثل الباب الشبكي .

أظلمت الدنيا في عينيّه وأخذت ركبتاه تصطكان . وبلغ به الخوف مبلغاً جعل دموعه نسيل على خديه . وقعت عينه على العربة فصعد فوقها من غير أن يدري ما هو فاعل . فتحرّكت ببطء رافعة ذراعيها . وحاول أن يرتد الى الوراء لكن الأوان قد فات . وأدرك أنّه سيهوي فونب الى أعلى كدسة حزم الحطب . فظلّت متماسكة تحت ثقله هنيهة ثم أحسّ أنّها بدأت تميد بقدميه ، لكنّ الجدار أضحى حينئذ في متناوله . ولم يبق عليه إلا أن يرفع ذراعيه ويتسلّق مستعيناً بركبتيه ، معرّضاً جسده للتمزق وهو يحتك بالحجارة . إلا أنّه كان يتسلّق سور سجنه .

تدحرجت الحزم من تحته على الأرض فأحدثت صوتاً سببها بصوت
سقوط البرد . لبث لحظة فوق الجدار وقد حطم الإنهاك صدره . ثم
شدّ على الحجر بذراعيه وانقلب الى الناحية الثانية من الجدار وقد
تدلت ساقاه فوق السارع . كم تبلغ المسافة التي تفصله عن بلاط
الرصيف ؟ إته لا يدري ولا يقوى على التفكير . تراخت أصابعه شيئاً
فشيئاً . عليه أن ينزلق ملامساً الجدار . عليه أن ينزلق ؟ كيف ؟ وبغثة
أطلق صرخة وسقط .

* * *

القسم الثاني

- ١ -

- يا له من طقس سيء ، يا مدام لوند . قد تقولين لي إن الألوان
لا يستحي من أوانه . لكنّ الشتاء لا يقبّل في بعض السنين بمثل هذه
السرعة . ويّلي من هذا البرد . . . ألا تشعرين به ؟

- أنت ، على عهدي بك ، برّيدة دوما ، يا مدام كوز . أما أنا ،
فحسبي أن أحسّ بالدفع في أطرافي . هل تفهمين ؟ لذا أشعر أني في
غاية النشاط بوجود مدفأة الأقدام وفتّازي العريضين .

أطلقت مدام كوز ضحكة باهتة وقالت :

- تقولين فتّازين عريضين ؟ هل تتخيلين شكلي وأنا أقوم بإعداد
الطعام ويداي في فتّازين عريضين ؟ لكن من حسن الطالع أنّ الجوّ في
مطبخي أدفأ منه هنا .

التزمت مدام لوند صمتاً ملبثاً بالمهابة .

فاستأنفت مدام كوز قائلة :

- قلت ذلك دونما قصد إساءة . اعتذر كثيراً إن كنت قد عكّرت
مزاجك .

- البتة يا مدام كوز . أنا أحافظ هنا على الحرارة التي أراها
تواتيني . وإذا عانيتُ منها فذاك شائي .

- ١٦٧ -

قال ذلك بصوت حازم وهادئ . وحدّقت في محدّتها لتؤكد عجزها عن نقد كلماتها الأخيرة . لكنّ مدام كوز ما عادت تفكّر بذلك : من السهولة بمكان لجم لسان تلك المرأة القصيرة ، التي كانت ترتجف وتفرك يداً بيد ، دون أن تجرؤ على رفع نظرها . لقد استهلك عملها الشاق جسدها وأنهكه ، فكانت تجلس مطوّية نصفين في حلّة فضفاضة من قماش النشاف الغامق ، قاعدة على كرسي بشكل موروب مثل ولد يخشى أن يحتلّ المفعد بحاله . وبدت بحدقتها البرّاقتين ، والدم المتجمّع في أديم خديّها وجبهتها ، كأنّها ما زالت قبالة فرنّها . ولو رايتها لقلت إنّ النار ، ذلك الوحش الذي لا تني الطباخات تستترنه دوماً بسطامهن^(١) داخل حفرته ، قد وثبت على وجهها ذات يوم ، إذ لم يكن لها أهداب ولا حاجبان وكان جلدها الصلب اللّمّاع يحتفظ بما يشبه اثر حرق .

قالت :

— ينبغي عليّ أن اذهب بعد بضع نوان . فالدنيا قد اظلمت .

لم تكن مدام لوند تهوى العزلة . فقالت بلهجة من يصدر أمراً :

— بوسعك البقاء لبعض الوقت أيضاً .

— بقي عليّ إعداد العشاء ، يا مدام لوند ، ناهيك بأنني لم اعد الآن أرغب في الخروج وحدي .

— عجباً ! أنت خائفة إذاً كالآخرين ؟ ممّ تخافن ؟

— للمرأة مبرّر خوف دائم وهي وحدها على الطريق .

(١) سِطام : حديدة تحرك بها النار .

— ربما للمرأة الفتية . اما أنت فعجوز بما فيه الكفاية ليدعوك
وشأنك .

— يمكن ذبحي بنفس السهولة من أجل سرقة حافظة نقودي ، كما
يمكن تحطيم دماغي بهراوة ، على نحو ما وقع لذلك الرجل المسكين ...

— حسبك حشواً لراسك بهذه الأفكار ، يا مدام كوز . فها هي ذي
البلد في حالة غليان واضطراب منذ ستة أسابيع ، بسبب عجوز بأفس
قتل عند زاوية شارع . ماذا ستكون حالك لو أنك في باريس حيث
يقتل ما لا يقل عن عشرة أشخاص كل ليلة ؟

— اسكتي ، يا مدام لوند ، فأنت تخيفيني . إنك تتحدثين على
ذلك بكل هدوء ...

— لست أرى ما يدعوني إلى القلق من أجل امر ضئيل جداً .

— قال المسيو غروجو للسيدة منذ ايام . إن العزم على اقتراف
جريمة ينتشر بالعدوى كالاصابة بالحمى ، لذا فإن الجرائم تقع دوماً
بوتائر متسلسلة .

— وماذا قالت السيدة ؟

— "لم تقل شيئاً . إنها لا تقول شيئاً أبداً .

— ها أنت تلاحظين انها لا تصدق ذلك .

— لست متأكدة من الامر . فقد كانت هيئتها غريبة حقاً . مثل
حالها مع الجريدة منذ بعض الوقت ...

— مع الجريدة ؟

— أجل ، إنها تتلقفها بلهفة .

— يا إلهي ! وأنا أيضاً ، وأنت أيضاً . إنها تريد معرفة الأخبار .

— أنت لم تريها مثلي ، يا مدام لوند . هل ترتعش يدالك وأنت تفتحين الجريدة ؟ كلا ، أليس كذلك ؟ أمّا يداها هي فترتعشان . وذلك فقط منذ حادثة الأنسة أنجيل .

— علام يدل ذلك ؟

— على أنها خائفة ، وحق العذراء .

— لو كانت خائفة لما خرجت ليلا .

— الواقع أنها ذهبت إلى المحطة لاستلام رزمة ، أمس الأول بعد العشاء ...

— أدري ، رزمة مرسلة من باريس .

— كيف بلغك ذلك .

— إنك لفضولية .

— كلا ، مطلقاً . لكن هذا ما قالته للسيد وهي داخلة . رزمة من باريس تحتوي جزمة قصيرة .

— أنت ترين إذا ...

— أنا لا أصدق أنك تخمينين . كان بوسعي فيما مضى أن استنتج بأن السيد يقول ذلك لأنجيل ، وأن أنجيل تتولى أعلامك من بعد ، لكن بما أن السيد لم يعد يراها ...

— دعي أنجيل وشأنها ..

— ايه ! عفوك ، يا مدام لوند . أدري أنه ما كان لي أن أتحدث معك بهذا الشأن . وأدرك أن الأمر يشق عليك . فتاة على ذلك القدر من الجمال ... ومثل ذلك الجرح في وجهها ... أي رجل ، بل أي وحتس هو غيره هذا ، يا مدام ! ويمكن القول إنه نذير شؤم لكل من يعرفه ، ولزوجته قبل من عداها . أتعرفين ماذا حل بها ؟

قابلت مدام لوند هذه الكلمات الأخيرة بتجهم : إنها لا تود أن تقول « كلا » ردًا على سؤال من ذلك النوع .

— قيل لي إنها رجعت الى ذوبها في مقاطعة بريتانيا . وقبل أيام ، سمعت الوصيصة السبد يقول للسيدة إن غريه ما كان له أن يقتن بواحدة مثل زوجته . وإن ذلك سبب كل البلاء .

— هكذا ؟ وبماذا أجابت السيدة ؟

— لا شيء . قلت لك إنها لا تقول شيئًا أبدًا . ولو لم تكن تتكلم لاصدار تعليمات ، لحسبها المرء بكاء . لكن ، يا الهي ، لقد استغرقت في الشريرة وهذا الليل أقبل . إني منصرفة الآن ، مثلما تعلمين .

— كما تشائين .

— الى اللقاء يا مدام لوند . سوف أمشي بسرعة وأسير في منتصف أرض الشارع . اذا ما سمعت صرخات فاعلمي أنهم يذبحوني أنا .

— لا تخشي شيئًا ، يا مدام كوز . انت تقولين هذا دوما . لكنك محظوظة بالبقاء في بيتك .

— هيا ، سأولي هاربة . الى اللقاء يا مدام لوند . لا تنهضي .

— الى اللقاء .

فالت بصوت خافت حين لبثت وحدها : « انهض ! إنها تتخيل الآن أن علي واجبات تكريم حيالها . » ثم أضافت وهي تميل صوب زجاج النافذة : « هيا أركضي ، أيتها المعجوز الخوافة » .

لقد نطقت بهذه الكلمات الأخيرة بصوت عال ، ومزيج من العداوة والازدراء ، حتى شعرت هي نفسها بالمفاجأة . نظرت فيما حولها بهيئة من الضيق وسعلت على نحو ما يفعل في أغلب الأحيان الأشخاص الذين يكلمون أنفسهم ، قاصدين من غير شك الى جعل الذين يمكن أن يكونوا قد سمعواهم ، يحسبون أنهم ينقون حلوقهم . وأن جلبة الكلمات تلك ليست إلا صوت نحنة .

لكن إذا كانت مدام لوند في واقع الحال تهمهم أو تتمعجب وهي وحيدة ، كنتيجة لمصيبة واحدة من مصائب الشيخوخة الصغيرة ، فإنها لمعدورة ، لأن أثر السن بدأ منذ أربعة شهور يسيء معاملتها . فبصرها أخذ يخف . لم يعد يوسعها ، من غير الاستعانة بنظارة حصلت عليها حديثا ، أن ترى على نحو كاف . لكنها لم تكن تجرؤ على استخدامها أمام الملأ . ما نفع شعرها الجميل الفاحم الذي ما زالت محافظة عليه إذا كانت ستشوه شكلها بذلك الأداة المهزونة ؟ وهي ليست أخيرا إلا في الخامسة والخمسين . وبصرها يكفيها تماما للتعرف على زبائنها ، أما إذا رغبت في القراءة أو الخياطة فبوسعها أن تنفرد في غرفتها . لكن ما يتسبب لها بأشد الضيق ، وقرّ جديد زاد مؤخرا في أذنيها . فنسبت ذلك بادئ ذي بدء الى عيب في النطق لدى محدثيها ، لتسلم فيما بعد بالأمر الواقع : فحواسها تخونها واحدة فواحدة . ولم يعد هناك سوى أنجيل التي استطاعت ، دون من عداها ، الأبقاء على صوتها مسموعا لديها على الدوام : لقد أتقنت الفتاة إتقاننا تماما المعيار اللازم لرفع عقيرتها ، حتى تخترق حجب ذلك الإصمم الناشء حديثا .

هزت مدام لوند رأسها وهي تتفكر في هذه الأمور ونظرت من النافذة
 بم نهضت . كانت بوشاحها الصوفي القصير الأسود ، وهو يقب كتيها من
 البرد ، ذات شبه قريب من أحد رجال الكهنوت الذين يلبسون الجبة .
 دارت في غرفتها بخطى ثقيلة وهي تفرك يدا بيد ، وحين توجهت صوب
 الأريكة عادت ذكرى مدام كوز الى ذهنها ، فقدمت مفتاة : « كلهن
 خائفات » .

ذلك الضرب من الذعر الذي ينتاب المدينة بعد غياب الشمس يثير
 القلق لديها ، فلو استسلم الرجال لجبن النساء القضي على مطعمها
 إذ لابد قبل الوصول اليه من نزول شوارع طويلة سيئة الاضاءة . وليس
 في النزهة شتاء ما يبهج .

توقفت الآن امام الموقد فاضاءت السراج وقالت بينها وبين نفسها،
 فيما هي تضع العاكس فوق ساعد السراج الزجاجي : « ما زلت أمسك
 بهم بحكم العادة . فهم لا يحبون التغير . ناهيك بأنني لا أزال وحدي في
 البلد أتعامل معهم بأسعار متهاودة . بل ينبغي القول كذلك إنني
 أفرضا عليهم . لكن، يحتمل الا يظل الوضع على نحو ما عرفوه سابقاً
 يوم كانت أنجيل تخرج بصحبته . » .

وقام فكرها بوبئة ناحية الأمور العامة ، كأنه يريد الإفلات من عذاب
 ذكرى محددة بعينها . فقالت بصوت عال :

« ما سبب كل هذه الهموم ؟ لم ناء القدر علي بحمله علي حين
 غرة ؟ قبل ثلاثة أشهر كنت أحسبني تيسة ، الكني كنت سعيدة ،
 أجل ، سعيدة . كنت آكل وأنام من غير انشغال بال . وبدأت حياتي
 منتظمة الى الأبد . » .

حملت السراج وقطعت الغرفة متجهة لفتح الخزانة . وأضافت
 وهي تدس ذراعها بين الأبواب والشنالات :

« انتهى بي المطاف الى الخوف حذر الغد . ولا يعلم إلا الله ماذا ينتابني كلما سمعت طرقة على بابي . لا أحد . ليس من أحد بالتأكيد في هذه الخزانة . بل كيف يمكن لأحد أولاً أن يقف فيها . ينبغي أن يكون طوله مئة وعشرين . ويلي من هاتيك العجايز وحكاياهن . . . إلا أنني قبل ثلاثة أشهر ماكنت أحسب لضرورة تفتيش غرفتي أي حساب »

أغلقت الخزانة وقصدت السرير فوضعت السراج على الأرض .

« لا ينسق علي تصديق ارتعاش يدي مدام غرو جورج حين تفتح الجريدة . وأنا أيضاً ! إن الدم لشيء فظيع . فالفكرة بأن أحداً يطالني برأس خنجر . . . »

ركعت كأنها ستؤدي صلاتها أمام صورة المسيح وهو باسط ذراعيه فوقها وفوق مخاوفها ، لكنها لم تره . وتأوهت : « علي وأنا في سني هذا أن أركع لأنظر تحت السرير ! لو وجدت أحداً لأمسك بي لأحالة . وهذا برهان على أنني غير مصدقة أبداً . ومع ذلك فلن أغادر هذه الغرفة قبل أن أثبت من أن أحداً لا يختبئ فيها » .

استندت براحتيها الى البلاط واتحنت الى أمام حتى لامست الأرض بشعرها . فأنحدر الدم الى رأسها محدثاً طيننا .

تنهدت قائلة : « إنني لا أرى شيئاً . كان عليّ أن أضع نظارتي . فالسراج لا يضيء حتى النهاية تماماً . ويبدو لي آخر الأمر أنه ليس من يستطيع التسلل الى تحت حتى لو كان نحيلاً جداً . لكن المرء لا يستطيع أن يجزم أبداً . فالبعض يصير في منتهى المهارة ، حين يتعلق الأمر بتعكير صفو الناس الاشراف » .

وضاع صوتها تحت السرير . فكانت وهي تئن على تلك الحال أشبه ما تكون بحيوان سمين يلهث بحزن تحت باب سجنه . كان غسق الشتاء يضيء النافذة بوهن من وراءها . لم تعد الآن تتحرك أو تنطق

بكلمة . فنظرتها المكفهرة تتحرك من اليمين الى اليسار . أما مؤخرتها
السائكة الضخمة المتلاثلة داخل غمد من الصرج اللامع لشدة الاستعمال ،
فكانت توجه شتيمة لآخر أشعة النهار .

حين أغلقت المطعم في ذلك المساء وضمت قبضة القفل في جيبها
وصعدت الى غرفة أنجيل . كانت الفتاة قبل وقت قصير قد رقدت في
سريرها وأطفاك النور . لذا فان زيارة مدام لوند باغتتها ، وجعلتها
تخشى أن يكون قد وقع حادث خارق ، فقالت من داخل سريرها :

— ماذا هناك ؟

التقطت مدام لوند أنفاسها ووضعت السراج فوق المدفأة . ثم
قالت بنبرة مرح مصطنع :

— ماذا تريدان أن يكون ؟ جئت أتمنى لك ليلة سعيدة . وآمل أنك
لم تكوني نائمة .

وضعت كرسيها عند طرف السرير فقعدت . واستأنفت تقول :

— في هذا المساء راودتني وأنا تحت أفكار مظلمة .

ثم قالت بغتة وقد رأت الفتاة تبقي الفطاء مسدلاً فوق وجهها :
« لم تتحجّبين على هذا النحو ؟ »

— لأن النور واقع على عيني .

— طيب ، ها أنت تقاطعينني دوماً حين أبدأ الكلام .

وقامت تدمدم متدمرة فوضعت السراج فوق الطاولة ، في زاوية
مغايرة من الغرفة ، على نحو يجعل سرير أنجيل يقع في الظل من جديد.

— قلت لك إن أفكارا سوداء راودتني . أجل . فكأبة أولئك الرجال استولت عليّ . ما عادوا يتحدثون كما في السابق . تلك حقيقة واقعة .

— ما كانوا في العادة كثيري الكلام إلا ساعة يتخاصمون .

— لكم أود أن أراهم يتخاصمون . ومهما قلت فلا بد من التسليم: ذلك البصمت لا يوحى بالخير . لم تكن لهم مثل تلك الهيئة قط مد أن عرفتهم .

— وهل في ذلك من ضرر ؟ ليس لك إلا أن تدعهم وشأنهم .

— يا لقلبك الطيب ! وماذا لو انصرفوا ؟

— من قال لك إنهم سينصرفون ؟

— لا أحد . لكن إذا كانوا صامتين فهم غير راضين . وإذا كانوا غير راضين فيمكن أن ينصرفوا . ولديّ ما يشبه الإحساس المسبق .

— لديّ أنا إحساس مسبق بأنهم باقون ، لأن السعر أرخص من أي مكان آخر .

فقالت مدام لوند بلهجة حارة مباغتة :

— والمسرة ، يا ابنتي . ألا تزال في رأيك من مسرة بالحضور للعشاء في لورج ، بينما كثيرون منهم يقيمون في شانتيليا ، وأن الجو في شانتيليا أكثر مرحا وملهي بالضياء والناس ؟ أما لورج فتسودها سمعة مشؤومة ، وشوارعها غير مضاءة . ولا يتردد أي واحد من أولئك الرجال عن دفع خمسة وعشرين فلسا إضافيا للعشاء في مكان يستطيع العودة منه إلى بيته دون أن يخشى من أن تحترق رقبته .

— لمْ تحدّثيني في كل هذا ، يا خالتي ؟ لقد وعدتني ...

فاستأنفت مدام لوند وقد امتلأت غيظاً لم تعد تقوى على كظمه :

— لكن دعيني . ينبغي أن أتكلّم وأن تسمعي . فالكيل طفع بقلبي ، هل تفهمين ؟ زارتني مدام كوز قبل قليل . إنها واحدة من اللواتي يقتلن الخوف حين يضمن قدمهن خارجاً . وذلك كله يفيظني . فحين يستبد الخوف بالناس في مدينة صغيرة مثل لورج تسوء الحالة بالنسبة للجميع . لا أريد أن يشعر المرء أنه يخاطر بحياته وهو قادم للعشاء في مطعمي . وها هو الشتاء قد حل . فالدنيا نظلم بدءاً من الساعة الخامسة ظلمة حالكة . حسبك ، أنت لن تبكي ، اليس كذلك ؟ لأنك بنوبات الدموع التي تعتريك تجعلين حياتي هنا مستحيلة . ناهيك بأن الحالة فيما مضى لم تكن بهيجة جداً ، يا أنجيل ! تسمعي يا أنجيل ؟

— أجل .

— سأطرح عليك سؤالاً من أجل صلاح أمرك وأمري وهو سؤال جاد . انت تعرفين اسم الذي اعتدى عليك . فمن هو ؟ قولي لي .

ارتدت أنجيل فارتمت فوق السرير ورأسها بين ذراعيها . فحالت دموعها هنيهة دون قدرتها على الرد . وبفتة صاحت قائلة :

— كنت قد وعدتني بعدم التعرض لهذا الأمر ثانية . هيا اتركني .

لم تتزحزح مدام لوند من مكانها . يمكن أنها تعودت مثل هذه الثورة . أخيراً قالت بصوت أخفض :

— لم أعد أقوى على الاحتمال . فبعض الناس يقولون أنك تعرفين اسم ذلك الرجل وأن واجبك يقتضي تعاونك مع العدالة . الا تعرفين أنك بصمتك تشيرين المدينة ضدنا ؟ وإذا ما تعرض امرؤ لاعتداء في

الشتاء فسوف يقال بكل تأكيد انه ما كان لذلك ان يقع لو انك ابلغت
عن الجاني ، عندئذ لا يبقى أمامنا الا الرحيل .

— لكنني لا أستطيع ان أقول لك اسم الرجل لاني لا أعرفه .

— الا انك لن تقنعيني بأنك أيضا لم تريه . فقولي ، كيف كان
شكله ؟

— كنت قرب الماء . فقدم من ورائي وضربني على رأسي . هذا
كل ما أعرفه .

— لكنهم شاهدوك معه على الطريق أيتها الشقيّة . فمدام كوب قد
رائك . ومن بعدها صانعة الكراسي عند سان جود رأتك .

— ينبغي اذاً توجيه السؤال اليهما لتقولاً بصحبة من كنت ،
لا سيما أنهما شاهدتاني .

وأعقب هذا الجواب صمت طويل ، تقطعه فقط شهقات انتحاب
مخنوق تصدر عن أنجيل ، وزفرات صاحبة من مدام لوند . لقد جهدت
هذه الاخيرة لتبقى منتصبة في جلوسها على الكرسي لتبدو دون شك
على جانب أكبر من الرهبة في عيني الفتاة ولتفرض عليها رأيها . كان
رأسها نصف مضاء بالسراج الذي وضعته وراءها فبرزت صورتها
الجانبية القاسية الطويلة كخيال محاط بما يشبه الهالة . فكرت بضع
ثوان . وبدت عيناها البراقة باحثة عن الشر الذي يمكن أن يتسبب في
أشد الاذى . وقالت أخيراً :

— سوف نرى بوضوح كيف سيكون ردك أمام محكمة الجنايات .
وصمت أنجيل . ثم أجابت بهدوء :

— لو كنا في غير هذا الوقت ، لآترت ضحكي . فما الذي يمكن
أن أخشاه من محكمة الجنايات ؟

— سيقولون أنك متواطئة مع أحد الجناة وانك أخذت مالا مقابل سكوتك .

— ينبغي أولا اثبات ذلك .

— المحامون يشبتون ما يرغبون في اثباته وسوف تدخلين السجن .

— اتتخيلين أنني في الثانية عشرة من عمري فتحاولين اخافتي ؟ ومتى كانوا يضعون المجني عليهم في السجن ؟

بعد توقف قصير ، استأنفت مدام لوند تقول بأناة حشرة ووحشيتها:

— أقول ان الجاني عليك سيعاقب ، اما أنت ، فسوف يجعلونك تدفعين ثمن سكوتك الذي منع العدالة من القاء القبض عليه في وقت مبكر . ومن يدري ؟ قد تكونين السبب في ارتكاب جرائم أكثر هولا أيضا ، لان ذلك الرجل الطليق ينسكل خطرا تاما . وهو طليق بفضل صمتك يا ابنتي . واذا ما رغب على سبيل المثال في أن يحتز عنقي هذا المساء ، الا تعرفين أنك ستتحملين جزءا من المسؤولية ؟

— أنا يا خالتي ؟ ولكن كيف ، كيف ؟

— برفضك اعطاء اسمه .

— أكرر لك قلبي اني لا أعرفه . أجهل كل شيء عنه . ولن اكون قادرة على أن أقول كيف شكل وجهه .

— الا انهم شاهدوك على الطريق وأنت تتحدثين اليه . وهناك شهود .

— الشهود يكذبون .

— ستوضحين ذلك امام المحكمة ، يا حبيبتي .

— آه ، دعيني اذن وشأني ، يا خالتي . فماذا تجنين من ازعاجي؟

— قولي لي فقط ، ان كان هو السيد غيرهه ام لا . فهناك شكوك تحوم حوله . واذا لم يكن هو ، فحسنا تعملين بقولك لي . فانت لا ترضين بان يتهم بريء ، أليس كذلك ؟ وزوجته ؟ فكري بزوجته . هيا ، اهو ذاك ؟ لا عليك الا أن تفولي نعم أو لا .

فجلست أنجيل في سريرها . وقالت بقوة :

— لن أجيب أبدا . دعيني .

نهضت مدام لوند وأتت حتى القرب منها قائلة :

— لن تجيبي أبدا . وأنا ، ماذا لو عيل صبري منك ، قولي ؟ ماذا لو طردتك من بيتي ؟ فيوم جاؤوا بك من هناك ، لم تكوني بهذا الزهو .

وارتفعت حدة صوتها فجأة فطفقت تصرخ وهي مائلة فوق الفتاة التي كان يظهر شكلها الابيض في وسط السرير .

— سينتهي الامر بالشمقي الى التوقيف ، أسمعين ؟ وانت ، انت سوف تنالين حسابك . انت متواطئة معه . لقد أخذت مالا من أجل أن تسكتي . كلهم يقولون ذلك والامر مؤكد .

أجابت أنجيل وهي تضطرب :

— ذلك غير صحيح . ولكنني أقول لك ان ذلك غير صحيح . كنت فيما مضى تصدقينني .

كان صوتها يشبه صوت امرئ يوشك أن يخنق :

— ولكن ألم تريني لتحسبي أنى لو كنت أعرف اسم ذلك الرجل
لما انتقمتم ؟ اتني أكرهه أكثر من كرهك له بكثير . واني لآتمنى أن تكون
المقصلة من نصيبه .

وزفرت قليلا ثم أرمت مجددا فوق وسادتها . وانتصبت مدام
لوندا وهي تلوذ بالصمت . كانت تقف بطولها في الظل وقد بداعليها
التفكير .

ابتعدت بعد لحظة عن السرير ومضت لآخذ السراج من على الطاولة
وبدا وجهها مضاء بشدة كأن نور مسرح قد سلط عليها . بدت التجاعيد
العميقة وقد انحفرت أخاديد في الخدين ، وبدت العينان الجامدتان
بنظرتهم المتوتره ، لتثبت أن السيخوخة انتصرت في النهاية . فأنفها
الطويل الثقيل وحاجبها السميكان يظهرانها بمظهر رجل ، أما نظرية
الوجه التي وضعتها يد مرتعشة ، فتجهد دون طائل لتعيد شيئا من
النداءة الى بشرة تبدو الحياة قد خلفتها وولت . تأملت السرير مليا
رغم أنها تراه بلا وضوح ، ثم تنهدت . شعرت بعبء في صدرها .
أما وهي تفتح الباب فقد هزت كتفها ، وربما بدافع من الغم أكثر من
عدم الاكتراث .

قالت كما على مضض :

— على كل حال ، طابت ليلتك .

وخرجت من غير أن تنتظر الجواب .

* * *

- ٢ -

يصعب على المرء الا يستمتع بجو القاعة الصغيرة التي أقامتها مدام غروج في الطابق الثاني من دارة « خلوتى » ، رغم فبح الاثاث والطنافس . ومرد ذلك الانطباع ، من غير شك ، نار الحطب التي تملأ جوها بدفء عذب في عصر ذلك اليوم المزمهر . فستائر القטיפئة الحمراء والسجادة الرمائية المزدانة بتسجيرات غامقة ، وقطع الاثاث نفسها من كنبات وأرائك بطابعها التركي ، تتشرب كلها تلك الحرارة المستساغة وتنم على متطلبات من تعودوا الرفاهية . لكن ذا الخبرة سيقول ان ذلك المكان بمجاله المحدود يضيق بمحتوياته ، كما سيميج التجميع المقيت للألوان ، والعدد الزائد من اللوحات التي تغطي الجدران . اما القادم لتوه من الخارج وقد ضرت جسده هبات كانون الاول العاصفة ، فهيئات أن تعدل بهجة جلوسه في تلك القاعة بهجة اخرى .

إلا أن مدام غروج التي دخلت لتوها لم تبد من تأثر بدفء الجو . فألقت بكنميتها^(١) فوق منضدة وجلست قرب النار ، من غير أن تخلع المعطف الطويل من فراء القضاة ، والذي يلف جسمها كله . ثم نهضت من فورها تقريبا لتمشي داخل القاعة . لقد جعل البسرد دموعها تسيل على خديها . فنزعت قفازيها ومسحت اجفانها بظاهر يديها المتصلبتين .

ظلت بضع دقائق نهبا لاضطراب جعلها تقطع القاعة بخطى كسيرة جيئة وذهابا . أخيراً ، وبينما كانت تمر أمام مرآة ملققة على الجدار ،

(١) كميمة : فروة اليبدين (غطاء اسطوانى طويل يكسوه الفراء لتدفئة اليبدين) .

شاهدت نفسها على حين غرة . وباغتت في عينيها نظرة بدت لها غريبة دون شك ، لأنها توقفت ثم مضت لتجلس فوق الكنبه .

نزعَت الآن طاقيه الفرو عن رأسها ومسدت بأصابعها الطويلة النحيله شعرها الأسود الذي بدأ يخالطه شيء من الشيب حول جبينها وخلف أذنيها . من يرها يقل إنها خجلت من الحركة التي بدرت عنها قبل قليل وإنها تجهد الآن لاستعادة هدوئها بحركات متزنه . نهضت ومضت فرنت الجرس وخلعت عنها معطفها .

قالت للوصيفة وهي تدخل :

— هل جاء أحد أثناء غيابي ؟

— لا أحد ، ياسيديتي .

— طيب . خذي معطفي وقبعتي . إن جاء أحد يسأل عني فلا تقولي إنني موجودة قبل أن تحيطيني علما . هل خرج سيدك ؟

— من بعد سيدتي مباشرة . خرج بالعربة .

— لا بأس . هذا كل شيء .

حين أمست وحيدة ، تمتمت قائلة : « ما العمل ؟ » فكرت لحظة وتوجهت الى النافذة . كانت الريح تهز أعالي الأشجار ، وتثير على الطريق الذي يشاهد فيما وراء الباب الشبكي ، غباراً أبيض يواصل الدوران على ارتفاع بضعة أمتار عن الأرض ولا يبدو سيستقر أبداً . مامن نبتة صمدت في وجه ذلك البرد . فحوضا الأزهار المتقابلان عند طرفي سهلة المرج الكبيرة ، لم يعودا أكثر من كومتين كثيبتين من التراب الأسود . ولم يعد ما يدخل شيئاً من التلوين على ذلك المنشهد المملق ، سوى مساكب المرج ، والسياج الذي تتوالى فيه شجيرات الفسار والمضاض .

عادت فأسدلت ستارة التول ومضت فجلست قرب النار .

في بعض الأحيان تبدو لها حياتها ، لا كتوالٍ من السنين ، بل مثل كائن حي ، مثل بدبل تكاد تمنحه وجهاً وحركاتٍ وصوتاً ، وهذا الكائن الخفي يبرز لها في ساعات العزلة القصوى أو على أثر انفعال شديد ، شبيه بما عرفته في ذلك النهار . كانت تشعر به الى جانبها يتكلم بصوت يهيمن عليه الصمت . كان انطباعها حينئذ أنها في حضرة مسافرة عائدة من بلاد بعيدة ، تقص عليها مشاهداتها . ولزمها بذل جهد للخروج من ذلك الخدر الذي انزلت بها اليه أحلام يقظتها الغريبة .

لم تكن يوماً سعيدة باستثناء مرحلة طفولتها . فالمال لم يعوزها ولا الصحة ، وبدأت الطبيعة سخية حيالها ، لكن قد يكون إغداق الهبات التي انهالت عليها ، قد تسبب هو نفسه بالحزن الذي يشاهد في أعماق عيني تلك المرأة . أبكون الحزن على عدم تمكنها من تمني أي شيء ؟ لقد حصل انفصام عرى تدريجي بينها وبين الأشياء ، حتى إنها قبلت بالرجل الاناني والهزاة الذي تميمت معه ، زوجاً لها ، ولم تظهر عليها أية حساسية تجاه دمامة الأشياء ، التي تحيط بها والتي يقع نظرها عليها طوال ساعات النهار . لكن قد يحصل أحياناً في داخلها انفصال غامض يتعذر تحديده ، بل ضرب من ضروب التوقف في مجرى الزمن ، كأنها فرصة تعطى لها كي تستدرك ذاتها ، وأن ترى نفسها على نحو ما كانت . بل أن ترى حياتها .

كان يجري في عروقها شيء من دم أجنبي ، اذ لابد لخلق امرأة باطنية مثلها وعنيفة مثلها ، طبائع مغايرة للطبائع الفرنسية من خلو البال والتعقل والرزانة . وإذا كانت تظهر أمام أعين الناس، غير الفطنة، في لبوس من البرودة والاتزان الشديدين ، فهي في الباطن قلق واضطراب نفسي ، وتنموه قلباً عاصياً تحت ظواهر حياة مستقيمة جداً . كانت تكره ، من غير أن تقيم للأشياء من وزن ، كل ما كان يعيق حياتها عن أن تكون أكثر غنى وأكثر جمالاً ، وتحقد على كل ما يذكرها أن :

« الاوان قد فات . بوسعك منذ الآن التكهّن بما ستكون عليه سنونك
الاحيرة ، فما من شيء سيتغير أبدا بعد » . الا أن ذلك الحقد غامض ،
وليس موجها نحو كائن بعينه أو شيء محدد . وتعتبر شبابها ، مع كل
الاحداث التي تركت فيها آثارها ، بمثابة جولات خسرتها من غير أن
تلحظ ذلك . ولم يتخلف لديها الآن سوى المرارة التي يعاني منها المقامر
وهو يسعى ليعرف نوع الخداع الماهر الذي لجأ اليه خصم غشاش
فسلبه ماله .

وانها لتشعر ، وهي في الخامسة والاربعين ، بأنها أكبر سنا من
امراة اخرى في الستين ، لانها انسأقت للوقوع في شرك العادات التافهة
لحياة ضحلة . وأن كل ما تبقى لديها من طاقة ، بدا مسلوبا منها على
نحو غير محسوس . واذا ما برز أحبانا جموح هوى مفاجيء ليثير
اضطرابها ، فان عقلها لا يتوانى عن الايحاء اليها بأنها غدت أكبر سنا
من أن تفكر الان في التحرر من القيود . فعلى أى شيء سترسي سعادتها؟
فجمالها قد زال منذ زمن طويل وثروتها ليست بين يديها . ناهيك بأن
العزيمية تنقصها . فقبل عشر سنين كان بوسعها أن تهرب . لكن هل
كانت تضمن قبل عشر سنين أنها ستغرق في مثل هذا السأم ، وفي النفور
من كل شيء ومن ذاتها ، هذا النفور الذي غدا ينفث سمه في كل ساعة
من ساعات نهارها ؟ وكم باتت تتساءل : « كيف يعيش الآخرون ؟ كيف
يفعلون للانتقال من اسبوع الى اسبوع وحتى آخر السنة ؟ »

كانت تهتاج لذلك الضرب من ضروب الترحال عبر الزمن ، والذي
تجد نفسها مرغمة على القيام به ، فالى أين يمضي بها ؟ ونحو أية
مسرة ؟ وأي تعويض^(١) سيجعلها تنسى عناءها ؟ لم يكن الايمان يوما
ذا تأثير يذكر على تلك المرأة ، فكل المذاهب بدت خاطئة ، وما من واحد

(١) نمويض : عملية نفسية يخفي فيها المرء شعورا بالنقص أو عجزا معيناً ، بالتفوق في
حقل معين .

استطاع أن يفسر لها سبب مجيئها الى الحياة ، ولا السبب الذي من أجله سيأتي يوم تحرم فيه من هذه الحياة التي وهبتها . كانت فكرة الموت تتر في نفسها ذلك الاضطراب الذي هو من علائم فتوة القلب . وليس حب الحياة هو الذي يعوزها ، انما موهبة القبول من غير تدمير بحياة تغاير كل الحيات الانسانية ، الا وهي حياتها الخاصة بها .

وهي تدرك بالتأكيد انه لم يعد هناك ما يقبل التعديل . وكل شيء بات يحملها على الاعتقاد بانها ستنتهي حياتها في هذه المدينة . فأصغر جولة من جولاتها كانت محسوبة سلفا . وكان شيء ينسب القدر يتحكم بكل حركاتها ، وبكل أفكارها تفريبا . حتى لتغوص في لحدها وهي تنبض بالحياة . وفي واحدة من حجات هذا المنزل سوف يأتي الموت ليلقأها ، سيأتي الموت الذي ليس لها فيه من رغبة لينزعها من قلب حياة لم تطلبها البتة .

اما الاحساس بانها فريسة لقوة متقلبة الاطوار فلم يفارقها قط : انها العوبة بيد المشيئة التي تسود العالم . أما حريتها فليست سوى أضحوكة . فما نفع التحسر في الخفاء على سماجة الحياة ورتابتها ؟ يلزمها روح أقوى من روحها لتفلت من سجنها . ومهما بدت مسيطرة ومهما أفزمت زوجها بقسوتها ، تظل ضعيفة ، بل أكثر ضعفا من أولئك الذين توههم بقوتها .

السأم والقنوط جعلها حادة الطبع . أما تعودها على تحطيم اندفاعات طبيعتها ، فقد جعلها تحبس على نحو أفضل ذلك السم الذي كان يفعل فعله فيها منذ أعوام . والعنف الذي تسيطر عليه بشكل دائم ، أدى الى زيادة القوة تدريجياً في قلبها حتى أمست لاتبالي بعذاب الآخرين . واذا كانت لم ترتكب البتة أية خطيئة خطيرة ، فقد يكون ضميرها مثقلاً أكثر من ضمير أشد المجرمات همجية . كانت وهي تضرب ابنها تنثني بالدموع التي تراها تتراقص في عينيه وتتمنى لو تأتي سهوة جديدة فتسوغ لها تكرار العقوبة . كانت تزدري ذلك

الولد الذي يذكرها بزوجها . فهو يجسد الرمز الحي لعبوديتها ، لأنها تحس بعجزها عن تركه ، بل عن الهروب منه ، ولأنه يشكل جزءاً من نظام الأشياء ذاك ، والذي فُرض عليها من دون أن ترضى به . وكلما مرض الوالد تولت رعايته بعناية ، لكن فرحاً طاعياً كان يستولي عليها ، حتى لا تكاد تعرف ماتمتناه .

ستنقضي قريباً خمس عشرة سنة على إقامتها في الدارة التي سُميت « خلوتي » من قبل مالك بليد ، ذلك أن ماهو مدعاة للسخرية كان إحدى السمات البارزة في حياة هذه المرأة . فكنية زوجها نفسها تثير الاستهزاء (١) . وعاداته تبعث على الضحك . وقطع الأثاث التي ملا بها بيته ثم بوضوح وجلاء على ضحالة تفكيره . ولم تكن من جانبها لتجاهد ضد ذلك كله . لأن استبدال أريكة بأخرى ليس من شأنه أن يجعلها سعيدة . فالقدر اختار إذلالها ، فاستسلمت لكافة أشكال ظلمه استسلام ضحية ساخطة لكن راضخة . ويظل مالديها من زهو كافٍ للابقاء على رأسها مرفوعاً .

يقال إن النلج يتراكم على سفوح جبال الالب . وتكدس كتلة متماسكة بتوازن عجيب حتى يمكن لرعدة هواء أن تخلخله . ويكفي حينئذ أن يتجاوب في المنطقة صوت إنساني واحد ليتهاوى ذلك الجدار . فيولد بسقوطه انهياراً تلجياً يزيل قرية بكاملها من الوجود . ومنتهى أمانها أن تطلق تلك الصرخة ، أن تهتف بذلك النداء الذي يحطم انتظام الثلوج الجامدة .

يوم رأت معلم ابنها لأول مرة شعرت بذلك الانطباع المدهش الذي كان يتجدد كلما استحضرت في ذهنها ذكرى ذلك اللقاء . لم تكن تهوى ذلك الرجل . فتصرفاته الوجلة وتزلفه الآخرق ، أثار نفورها . إلا أنها استطاعت ، رغم قدرتها المحدودة على الحدس ، أن تتبين منذ

(١) غروجورج تمنى جورج السمين ، بل جودج المنفوخ . م .

الوهلة الاولى انها تتقاسم وإياه الكثير من الضغائن والأوهام . لا جرم أن السن وتسيئاً حاداً في طبعها ، سارا بها أبعد منه بكثير على طريق وقائع الحرمان القسرية ، لكن كان يكفيها أن تدقق النظر في سحنة غريه القلقة ، وأن تعين تصرفاته الخرقاء ، وتلك النظرة الانفعالية المهمة ، لتدرك على نحو ثابت ، أنه يتخبط في متاعب مماثلة للتي عانت منها فيما مضى . فهو أيضاً لم يكن يعرف كيف يتحكم بزمان حياته ، لكنه كان ينم على ذلك ، بينما توفر لديها من الغرور والشجاعة ما يكفي لاختفاء قصورها . وترتب عليه ، مثل ما ترتب عليها سابقاً ، أن لا يلحظ هفواته إلا من بعد ارتكابها وأن لا يستخلص منها أية عبرة نافعة .

إن موهبة الاستفادة من الفرص والمناسبات قد بنت فيها بالنسبة للآخرين . أي لنفوس أكثر طواعية . فكثير من الناس يتعلمون السعادة ، مثلما يتعلم المرء حرفة من الحرف . ويستسلمون فرحين للقبول بالضلل تفادياً للأسوأ . وما الزيجات الخصبة وآخر أيام العمر الهنية ، وحفلات العشاء التي تجمع ثلاثة أجيال يعمها الرضى ، إلا حصيلة لمثل تلك الحكمة . لكنها كانت حيال رجل ما بشئت له تلك الفبطة قط ولا ابتسمت . فهو قد لا يعرف الراحة أبداً . وقد ينزل به القدر ضربته من غير أن يعلمه شيئاً ، حتى رباطة الجأش ، وحتى تقليد وجه رجل واثق مما يفعله . ويظال جهله المهنة التي اختارها نفسها : كان بوسعه مثلما أصبح معلماً أن يصير موظفاً في مصرف أو ساعياً أو بستانياً : فليس له من موقع أو مكان .

كانت ترى ذلك بكل وضوح . فينتابها الألم حيال نفسها لا حياله هو ، لأنه يمثل في نظرها المشهد الخاص بشقاؤها . كانت من غير أن تزدرية - أنى لها أن تزدرى امرأة يماثلها من نواح عديدة ؟ - تحقد عليه بسبب قدومه إليها ، لكنها تجنبت إيقاف زيارته . كان يشق عليها أن تراه ، ويشق عليها أكثر من ذلك بكثير الاستغناء عن حضوره . كانت تتحرق شوقاً لأن تسأله يوماً عن أحواله وأن تعرف كيف يتدبر الأمر من جهته لكي يفسد مستقبله .

لا جرم أنه كان ضعيفاً وهي ما كانت تحب إلا القوة . إلا أنها تحتسب له قصب السبق في واحدة : كان أقل منها صبراً . لذا سيعمد ذات يوم ، بدافع نرق في سورة غضب ، بوسعها أن تكبحها لو كانت مكانه ، الى ارتكاب حماقة أكبر من كل ما عداها ، فيفسد نظام الاشياء . بل سيتوصل الى القيام بما لم تجرؤ قط على القيام به ، لأن الحظ أحياناً قد يسعف الأغبياء .

لذلك حين علمت بوقوع جريمتين في لورج في ذات الأمسية وفي مكان واحد تقريباً ، لم تكن بحاجة لأن يقول لها زوجها حول من تحوم الشبهات . وعاشت ساعات عديدة بحالة من الرضى التام ، حتى اضطرت للانسحاب الى غرفتها كي لا ينكشف أمر المشاعر التي غمرتها . لكن شيئاً ما في داخلها كان يشجب غبطتها ، وهو نسيج من ذكرى تربية متروكة كان للمؤلفات الصالحة وقراءة الكتب الدينية دور هام فيها . وفكرت داخل نفسها تقول وقد علت نغرها ابتسامة لا إرادية : « ألا كم أنا شريرة ! » لكن تلك المعرفة التي تمتلكها عن ذاتها ما كانت لتخفف شيئاً من حماسها في قراءة القصة المفصلة للاكتشاف الفظيع واستمادت قراءتها في الجريدة مراراً وتكراراً . وكانت تتجاوز بعينها النهمتين كلمات وسطوراً . ورغم استعانتها بنظارة ذات مقبض ، فإنها لم تفهم إلا بشق النفس ما تقع عليه عينها ، لشدة ما سببه لها الانفعال من اضطراب في النظر . لقد تراءى لها أن لها حصة في ذلك الجرم المزدوج . استبعدت في بادئ الأمر تلك الفكرة الحمقاء . فهل همست على الأقل في أذن غريبه بكلمة واحدة من شأنها أن توحى إليه بارتكاب مثل تلك الجريمة ؟ لذا كانت تحرص ، وهي تقرأ الجريدة على أن تدحض داخلها كل الافكار التي تولدها في نفسها تلك القراءة . لكنها كانت تفتقر الى الصلابة اللازمة من أجل أن تحلل بكل هدوء ما يعتمل داخل دماغها . فتبدأ يدها ترتعس . وترى على نحو يزداد وضوحاً ، ورغم إرادتها ، علاقة غامضة تنشأ ما بينها وبين جريمة ارتكبتها شخص آخر .

وفجأة تنهض وهي تهتف : « آه ، كلا ، ما أعجب هذا ! » وترمي بالجريدة أرضاً . إنهم يضعونها أمام الأمر الواقع بكل قسوته . فيثور كل ما بداخلها ، من استقامة وتمسك بالاعراف ، ضد فكرة تواطؤ ممكن مع القاتل . وتتلبس لبضع دقائق لبوس ملهاة الفضيلة . وبالسعادة نفسها وهي تشعر بالبراءة من جريمة على مثل تلك الفظاعة ! ومن ثم تطمئن نفسها . لكن معرفتها بذاتها تعود الى عدد كبير من السنين مما يحول دون استمتاعها طويلاً بتلك البهجة الزائفة . لم تكن تلك الجريمة لترعبها ، بل تثير دهشتها وتستأثر باهتمامها . وهي لا تبالي في نهاية الأمر بأن تصيب المجتمع جائحة عنف من هذا الطراز . بل لا ينتابها تجاه ذلك المجتمع المرتعد ذعراً إلا شعور بالازدراء والحقد . من بعد جاء رجل شعر بمزيد من الحقد وواتته جرأة أكبر . فبأي حق تلومه ؟ إن ذلك الشكل من الرياء لا يتلاءم مع سننها . وخير لها أن تنظر الى نفسها دون مواربة . وتنتهي دوماً الى ذلك الاستنتاج الذي يكتسب في فكرها قيمة مبدأ ، فيخفف من تحسرها لأنها ليست فاضلة .

ليس في نهاية الأمر ما يضر إذا ما أحست بروحها آئمة بعض الشيء ، حين اختار القدر لها أن تفتن حياتها بحياة رجل مثل المسيو غرو جورج ، الذي يتألق فيه الاحتشام البورجوازي الزائف بكل مظاهره . وكانت في أحاديثها الثنائية مع زوجها تسلم دون مواربة بعدم نقاء قلبها . حسبها أن ترى على أي نحو من السخط ، كان ذلك المعجوز الفاسق الموه ، يعلق على مصرع السيد سرسينا ، رغم أنه هو نفسه يمكن أن يتركه يموت جوعاً . وعلى افتصاب امرأة أرغمها هو نفسه فرضخت لما ربه مرات ومرات ووافقت بتعس فقبطت الثمن دريهمات معدودات . تلك إذن هي الحقيقة : جهل المرء لذاته يؤدي به الى موقف هزلي يقوم أثناءه باستعراض محترميته .

كانت وهي جالسة قبالة المسيو غرو جورج تصغي إليه من غير أن تقاطع حديثه المحتد . وتتحرك في نفسه نوازع الشفقة على غيره فلا يطالب بتعليقه بحبل المشنقة ، بل يهبه الحياة ، لكن بشرط أن يمضيها

تحت سماء جزيرة غويانا^(١) التي لا ترحم . فلكل امرئ حقه في الحياة . وكان يتقدم بتلك البديهة كثمرة تأمل عميق . فتبدو له كأنها نهاية التنازلات القصوى . ثم يعود لسيتدرك تساهله بتأن شدة العقوبة التي سيطلب بها لو كان مكان النائب العام وفيما لو ألقى القبض على الجاني . أما الأسباب التي توغر صدره على ذلك الرجل فعديدة وإن كان يتحفظ كثيراً دون البوح بها . أولاً هو خائف . لقد هزه نبأ الجريمة التي ارتكبها معلم ابنه هزة رهيبة ، وكان الموت قد مسه على حين غرة . فأمضى يومين في حالة من الفزع يرئى لها ، من غير أن يجرؤ على مغادرة بيته ، متفحصاً بعناية مجموعة مسدساته ليتأكد من صلاحيتها . كان يرى من جهة ثانية أن غريبه قد أساء استخدام الثقة التي منحه أياها يوم أدخله الى بيته . وقد يكون ذلك مأخذه الأكبر عليه . على أي حال ، لم تكن الأفكار التي تعتمل داخل ذلك الرأس العتيق المهووس بقراءة الجرائد ، واضحة كل الوضوح . فالمجرم يتمثل له كمريض مصاب بداء معد . وعليه أن يمتنع عن التجوال ونقل العدوى الى بيوت الناس . وإذا كانت نفسه تحدنه بارتكاب جريمة ، فعليه أن يلبث في بيته ، لا أن يمضي ليدير نظراته الزائفة في صالات عليية القوم . ذلك أن السيد غروجورج يتذكر جيداً كيف بدا غريبه بعيون زائفة صباح آخر يوم رآه فيه . وسوف يذكر ذلك حين يذهب للدلاء بشهادته . ويبقى شيء آخر وإن كان لا يقل منسقة في نظره عن باقي الأسباب : ما هو رأي غريبه فيه ؟ فالحديث الأخير الذي دار بينهما تناول فن الرسم والحب . لا بد أن ذلك البائس قد سخر في نفسه منه ومن إيضاحاته . ومن يدري إن كان يضحك الآن من اللوحات التي تلتطف السيد غروجورج فأراه إياها ؟ إن هذه الفكرة لأقسى من أن تحتمل . ولو أنه عرف ، أو لو أن الشك خامره لحظة واحدة في أنه يستقبل تحت سقفه وغداً على تلك الشاكلة ، لأبهجه أن يطرده من بيته شر طردة . أما الآن فيالمشقة الاحساس بأن

(١) مقاطعة فرنسية صغيرة في أمريكا الجنوبية قرب البرازيل . اظلت أفرونا منفى المحكومين بالاشغال الشاقة المؤبدة . م.

تكون موضع احتقار مخلوق كان بوسعك أن تصفعه ، وأن يكون قابلاً في مخبأ ما يزدريك بكل خساسة ! تلك هي الجريمة الحقيقية في نظر السيد غروج . وما اغتصاب أنجيل وقتل ذلك العجوز بأكثر من مادة تجسد سخطه ، بسبب ما لحق بغروره من امتهان خطير .

مع توالي الأيام تنافس تدريجياً حديث الصحف على موضوع الجريمة . كما أن الجاني لم يلق القبض عليه . وجرى توقيف عدد من الأشخاص فاستجوبوا ثم أطلق سراحهم . وبدأ أن التحقيق الذي جرى بحماسة في البداية قد توقف دون إعطاء نتيجة . إلا أن الهلع كان أقوى بكثير من أن يجعل الطمأنينة تعود سريعاً إلى لورج . فالأبواب تغلق بالرتاجات في ساعة مبكرة . وإذا كانت مدام لوند تنظر متوجسة تحت السرير فليست متفردة بهذا السلوك . لقد انتشرت اشاعات رهيبة . حتى إن النساء لم يعدن يفامرن بالسير على الدرب الموازي للسوميات . وما إن يهبط الظلام حتى تتخذ المنطقة المجاورة لمرم الفحم بكاملها ، شكل منطقة مسكونة بالاشباح . وكان القاتل قد عاد إليها ليرتكب جرائم جديدة . بل إن بعض الزوايا في الشوارع كانت تهجر نهائياً بعد غروب الشمس . ولم يعد من يجد الجراة على الخروج ليلاً إلا مدام غروج .

كانت تعلم حق العلم أن ليس هناك من تخشاه . كما أنها لم تصدق الشوائع التي راجت بأن جريمته غيريه هما من فعل عصابة من الجناة . ومنذ بعض الوقت أضحى المكوث في البيت أمراً شاقاً جداً عليها . فغالبا ما تأمر بأسراج العربدة لتركبها وتجوّب بها المناطق الريفية المجاورة كيفما اتفق . بل تمضي أكثر في جولات على الأقدام فتجوب ضواحي لورج ، والطقس بارد وجاف ، فتمشي مشية سريعة ثم تقفل عائدة إلى الدارة ، وقد هدّتها تعب عذب فتهدأ منه أعصابها وتنعم بنوم عميق . وتسلك مرار خط سير لا تعقيد فيه ، فتسير بمحاذاة السوميات حتى تبلغ أولى بيوت المدينة المجاورة ، وإذا لم يكن الجو جو صر ، كانت تجلس على الحافة تأخذ قسطاً من الراحة وهي تتأمل جريان النهر .

لقد خلف في نفسها الحادث الضخم الذي وقع فجأة فزعزع الحياة في لورج ، ذكرى كان يروق لها أن تنعم باسترجاعها . فتذكر احتياجاتها في الدقائق الأولى ، وتذكر وجه زوجها وصوته وهو يخبرها باكتشاف الجريمتين ، ثم البهجة التي اضطرت أن تخفيها . وما أعقبها من إحساس قصير بالخجل . والنتائج التي خرجت بها من المشاعر المتنوعة جدا ، والشديدة العنف ، التي تنازعها طوال أيام عدة . فأخذت تستطيب استرجاع الدراما الصغيرة الداخلية بكافة مراحلها ، فتعيشها مجددا في ذاتها ، لكنها كانت بحاجة للعزلة من أجل ذلك التمرين الفكري . فكانت تختار الابتعاد عن البيت والذهاب بعيدا في الريف حتى لا يدخل أحد يعكر عليها صفو تأملاتها .

من المرجح أيضا اتجداها لبعض المشاهد من غير أن تخمن مدى تأثيرها عليها . فهل كانت تتوجه عن عمد لجلس على حافة النهر قريبا من الأشجار التي عثروا على أنجيل تحتها ؟ أم أن المصادفة وحدها كانت تقودها الى هناك ؟ فأي فضول كان يدفعها وأي أمل كان يداوم أحلامها ؟ لكن عالمها عالم خفي جدا . فالتربية المترتبة التي نشأت عليها أقامت حواجز عديدة ما بينها وبين قلبها ، فلم تعد بقادرة على النطق بحكم دقيق على أعمالها . فالاندفاعات الهوجاء التي لا تقاوم هي التي تملي عليها سلوكها . ولا تساورها في ذات الوقت من رغبة لاستجلاء النتائج التي يمكن أن تترتب على ما ستقوم به . جل ما يعينها يتمثل في ما تسمر به من رضى ، وهي تعثر في هذا المكان أو ذاك ، على ما كانت تبحث عنه من ذكريات وانفعالات . فيحلو لها على سبيل المثال أن تتجول في ذلك الجزء من المدينة حيث عثروا على جثة السيد سرسينا . إلا أنها كانت تعرف سلفا ذلك الفتور الذي ستخلفه ، بدءا من الغد ، تلك الجولات الافرادية ، بعد أن تردتها ساعات النوم الطويلة الى حياتها المبتدلة ، البادئة منذ الصباح . وبعد أن يكون توقد الأمس العذب قد خبا فهوى الى الحضيض .

أما رغبتها في الحركة فما كانت تستبد بها إلا في الأصال . وينتابها الميل لأن تشعر بحجارة الشوارع تحت قدميها وتحس بصلابة أرض الطريق . وتتوالى تلك الانارة توقداً في نفسها ، من غير أن يظهر ما ينم عليها في محياها ، حتى يأتي المساء . فكانت تندفع بخطى رشيقة حتى لا يكاد وقعها يسمع . ولا تستسلم إلا حين يهدأ التعب في نهاية النهار، فترتمي أحياناً بكامل ملابسها متهاكة فوق السرير مثل تلك الطيور التي تشاهد وهي تحوم في السماء بلا هدف محدد ، فتأتي طلقة مباغتة قاتلة لتضع حداً لطيرانها المضطرب .

عادت في أصيل أحد الأيام . كانت قد مرت شهور وبقيت ثلاثة أسابيع حتى عيد الميلاد . كانت عودتها في ساعة مبكرة أكثر مما هو مألوف . كان قلبها يوالي الخفقان . لقد ركضت ، لا لأنها في عجلة من أمرها كي تلج الصالة الصغيرة التي تمتكف فيها عادة ، بل لأنها بدت عاجزة عن السيطرة على ذاتها . ونال جسدها نصيبه من الاضطراب الرهيب الذي اجتاحت نفسها . فقبل قليل ، وبينما كانت تمشي بمحاذاة الخط الحديدي متوجهة نحو جادة السوميانت ، شاهدت غريبه . كان يمشي بسرعة متوجهاً نحو لورج . كان ينوي من دون شك أن يجتاز العبارة . توقفت مدام غروجورج . هو ذا الرجل الذي تبحث عنه على نحو غامض في كافة جولاتها . إنه على بضعة أمتار منها . سوف يراها بعد لحظة حين يصير فوق العبارة ، لأنها الآن تقف متخلفة عنه قليلاً وإلى الجانب الثاني من الخط الحديدي . عبرت ذهنها أفكار عديدة حتى إنها لم تأت بحركة . وبقيت ساكنة . هل تختبئ ؟ ولم ؟ كانت على العكس من ذلك ترغب في التحدث إليه . هل تناديه ؟ سيخاف ويولتي هارباً . قد لا يكون هو . لكن بلى . فالثياب البائسة التي يرتديها لم تغيره البتة . لكن حتى وهو في كامل هندامه ، يبقى في سحنته شيء يوحي بالتشرد ، وما الحركة التي كانت تراه يقوم بها ليرفع ياقة سترته سوى دليل يشي بحقيقته لديها . وحالت المفاجئة ونوع من الغبطة المشوشة دون قيام تلك المرأة بأية حركة . وبغطة استدراك .

ربما شعر بنظرة تلاحقه . أول حركة بدرت عنه ، قيامه بسحب يديه من جيبه . ثم توقف . وأدركت أنه عرفها وأنه يسعى ليتبين نياتها . فوضعت إصبعها على شفيتها لتثبت الطمأنينة في نفسه ثم رفعت يدها فأومات إليه بأن يأتي نحوها ، لكنه ظل يحدث فيها وبعد ثوان من التردد ، حوّل وجهه ونكص على عقبيه .

حين مر من أمامها وقد طفق يجري صاحبت به بصوت مخنوق :

— توقف ! أنا لا أريد بك سوءاً .

لم يصغ إليها . بعد دقيقة سيبتعد كثيراً . إلا أنها ظلت حاضرة البديهة . وبدأ الطلب اليه بالعودة ثانية بلا طائل البتة . فجرت لبضع خطى في ذات الاتجاه وصاحت به فجأة من فوق الخط الحديدي :

— سأكون هنا غدا مساء في الساعة السابعة ! لا تخش شيئاً !

ذلك المشهد على قصره يكتسي في فكرها ، وهي تجلس الآن أمام نار الحطب المتوقدة ، مظهرًا متفردًا . فقبل عشر دقائق كانت تجري على الطريق وتصيح برجل هارب منها وغير راغب في الاصغاء لما تقوله . هل ذلك ممكن ؟ وتراودها نفسها أن تجيب بالنفي . فالساعة لما تبلغ الثالثة والنصف . قد تكون أغفت وسط حرارة تلك الحجرة الصغيرة فحلمت بكل ذلك . لكن ها هي آثار التراب على جزماتها الصغيرة وأطراف ثوبها . كما أن ساقها ما زالتا ترتعشان بسبب الحركة المفاجئة التي قامت بها . ذلك أنها جرت بكل قوتها . وتذكرت صوت وقع أقدامها على الأرض ولهاثها وصيححتها وحركتها . واستعادت منظر ذلك الرجل بملابسه القدرية . والوجه القلق والمتوحش الذي أداره إليها على حين غرة . لقد انتابته لحظة من التردد قبل أن يولتي الأدبار ، ذلك أنه فكر : « ماذا تريد ؟ هل ستفدر بي ؟ هل عرفتني ؟ » ثم قفل راجعا وهو يجري ، ويجري أسرعًا أكثر فأكثر . أيكون قد سمع ما صاحبت

به وهو يمر من امامها ؟ ماذا كان يعمل في لوريج في وضع النهار ؟ هل سيعود غدا مساء ؟

تلك الاسئلة التي طرحتها على نفسها بشكل متوال جعلتها في حالة تلهتف جنوني . كان عليها أن تصيح به قائلة : اليوم مساء ، وليس : غدا مساء . فهي لن تقوى على الانتظار حتى مساء الغد أبداً . وجهدت عبثاً لتسيطر على نفسها فتلبث قاعدة ، لكن تلك السكينة كانت عذاباً ليس في مقدورها تحمّله . وأين تعثر على الطمأنينة اللازمة من أجل أن تجتاز انتظاراً يطول أكثر من يوم ؟ ذلك أنها لم تخلق للانتظار . بطء الوقت كفيل بالقضاء عليها . ولن يغمض لها جفن هذه الليلة بكل تأكيد . فالساعات التي لا تنتهي توشك أن تبدأ وعليها أن تتحمل عبثها . هناك أولاً فترة الأصيل ، يليها العشاء مع زوجها - لن تتعشى - ثم عتمة الليل ، والصمت السائد في غرفتها والمصباح الذي ستضيئه ربع ساعة بعد ربع ساعة ، وساعة الحائط التي ستصفي الى دقائقها حتى مطلع الفجر . وبدأت لها الفكرة تفوق كل احتمال . فنهضت وضمت يديها على صدرها كأنها تريد أن تمنع قلبها من الانفجار .

وكررت بصوت خافت : « لا أستطيع ، لا أستطيع . »

وبعد أن فكرت بضع ثوان ، توجهت بفتة نحو الباب وخرجت .



- ٣ -

في ذات النهار ونفس الساعة تقريباً ، دقت فرناند على باب الغرفة الواقعة فوق مطعم لوند . فردت أنجيل وقد عرفت الفتاة من وقع خطاها : هذه أنت ، يا فرناند ؟ بوسمك أن تدخلني .

— طاب يومك . الا نشعرين بالبرد هنا ؟ كان عليك أن تأتي لتتدفئي عند المدفأة في القاعة الكبرى . ليس هناك من أحد . لقد خرجت مدام لوند لتتسوق .

— انا هنا على خير ما يرام ، فلا تقلقي يا فرناند .

كانت جالسة في ركن الحجرة قرب النافذة وقد أسندت الكرسي الى الجدار . وما إن دخلت فرناند حتى وضعت فوق منضدة صغيرة ثوبا كانت تخطيه وأسدت على وجهها ذيل خمار رمادي يلف رأسها . وأضافت وهي تلمس الجدار بظاهر يدها :

— هاك مدفائك . ما حاجتي لأن أنزل إليها اذا كانت تمر من هنا .

كان خط المدخنة يمر في الواقع من قلب الجدار ، فيشيع شيئاً من الدفء حتى إنه أدى الى تشقق في الملاط ينساهد على شكل شرخ طويل في ورق الجدار .

قالت فرناند وهي تجلس على حافة السرير وعلى بضع خطى من أنجيل :

- لا بأس . لكن الجو هناك أفضل ومدام لوند قد خرجت .
- يمكنها أن تعود بين لحظة وأخرى . لست راغبة في رؤيتها .
- سوف تظان هكذا لا تتبادلان الكلام أبدا ؟
- نتبادل الكلام في حده الأدنى ، يا حبيبتى فرناند . لم تطرحين عليّ هذه الأسئلة كلها ؟
- وما أدراك ؟ اتحسبين أنني غير مطلعة على شيء لأنني ما أزال في الثالثة عشرة والنصف ؟ إنك على خطأ . فكثير من الفتيات يكبرنني سنا لكنهن لا يعرفن مثل الذي أعرف .
- قالت تلك الكلمات بنوع من الزهو وهي تحديق بأنجيل . فأشاحت هذه بوجهها وقد تملكها الضيق ، من تلك العينين السوداوين اللتين كأنما تسعيان بحثاً عن قسماتها تحت تخاريم الخمار .
- واستأنفت فرناند بعد توان من الصمت : « إن كنت لا تصدقين فما عليك إلا أن تسالي مدام لوند . » ثم أضافت تقول بمكر : « لكنك لا تكلمينها . لقدنسييت . »
- أنصحك بالأ تائي كثيراً لرؤية مدام لوند هذه . فأنت ، يا حبيبتى ، تلتزمينها على الدوام . وسوف تأسفين ذات يوم لأنك أصغيت إليها .
- ولماذا ؟ أنت لا تعرفين ما نتبادلله من أحاديث . إنها لطيفة في معاملتي . وتدعني أفعل ما يروق لي . ليتك تعرفين مدى ثقتي بها .
- بى ! فهي تقول لي على الدوام أنني صرت بالغة فلم أعد بحاجة لمراقبة . وإنني أضحيّت المسؤولة الوحيدة عما أقوم به من أعمال . وأنا أفضل ذلك .

— وأمك ؟

— أمي مسرورة جداً . فهي تأخذ نصف ما أكسبه في خدمة مدام لوند . وتودع الباقي في صندوق التوفير . وحصيلتي بلغت أكثر من خمسين فرانكا .

فقلت أنجيل وقد خفت حدة نبرتها بشكل مفاجيء :

— هذه من حسن طالعك . فأمامك للمستقبل عمل كثير .

— هذا عين الكلام الذي قالته لي أمي قبل أيام . ومدام لوند تعلمني فوق ذلك أن أخيط وأن أغسل الأواني . وهذا مفيد جداً كما تعلمين .

— جداً . وماذا تطلب إليك أيضاً مدام لوند ؟

— ايه ! أكنس غرفتها وأسوئ سريرها . ألا تعرفين ذلك ؟ إنما اتولى بنفسي ترتيب غرفتها صباحاً . ثم أحمل الفحم إليها . لا يملك أحد غيري الحق في لمس مدفأة الأقدام : فأنا أعدها لها على الدوام ، صباحاً ومساءً .

— يا لك من فتاة بالغة ! وأراهن على أنها تكلفك بتنفيذ مهامها .

— بكل تأكيد . فساقها تؤلمانها كثيراً ! هذا الطقس فقط يسمح لها بالخروج : إنها تحب الطقس البارد والجاف .

— الحمد لله . لا بد أن تكون اليوم مبتهجة . لكن أخبريني ، يا فرناند ، بأية مهام تكلفك ؟

— إسمعي . ترسلني أحياناً إلى بائعة الخردوات وأحياناً إلى دكان البقال . لكنني لا أذهب إلى محلات التموين الأخرى أبداً . فهي

تخشى من الباعة أن يفتشوني . والآن . . . إيه ! ولكن هذا سر وقد وعدتها بأن لا أبوح به لأحد .

— بوسعك أن تخبريني بكل شيء ، يا حبيبتي . فانت تعرفين أن من يأتمنني على شيء ، لا أفرط به على أية صورة .

— على كل حال سوف أخبرك بالأمر لأنني أعرفك حق المعرفة با أنجيل . لكنني على ثقة من أنها لو عرفت بأنني أخبرتك ، فسوف تنتهي العلاقات ما بيننا .

— لا تخشي شيئاً .

— طيب . قبل أيام أرسلتني الى محل رجل .

— ماذا تقولين ؟

— أجل . أرسلتني لأوصل رسالة الى المسيو دومين . وهو صيدلاني في شانتيلتا . قالت لي : « هل أضحيت كبيرة لابعث بك الى أحد الرجال ؟ » فقلت : « نعم » ، طبعاً . عندئذ سلمتني رسالة فحملتها الى المسيو دومين .

— ثم ماذا ؟ هيا ، تكلمي .

— ولكن ما بك ؟ ألسنت مسرورة ؟

— بلى ، يا حبيبتي فرناند . فقصتكَ تروق لي . وأرغب في معرفة تتمتها . فماذا قال لك المسيو دومين ؟

— كان في غاية الكياسة . فأعطاني شيئاً من العناب وكيساً صغيراً مليئاً بكرات العلكة . ثم أدخلني الى القسم الخلفي من محله . وهناك شرع يكلمني ويكلمني ! سألني إن كنت أحس بالبرد في

ساقى . لأنني أضع جوارب قصيرة فقط في هذا الشتاء . وأنت تعرفين أن مدام لوند لا ترضى بأن أضع جوارب نسائية طويلة . وتقول إن على المرء أن يخشوشن .

— أجل ، وبعدئذ ؟

— ثم سألتني إن كنت ألبس كنزة ، كنزة جيدة ودافئة . فقلت له نعم ، لكنه لم يشأ أن يصدقني . وأراد أن يدس أصابعه تحت صدري بأي ثمن . هل تصدقين ؟ وأغرقت في الضحك لأنه كان يدغدغني . حتى اسقطت كيس كرات الملكة من يدي . وفي تلك اللحظة سمع أحدا داخلا الى محله . عندئذ أعطاني قطعة نقود من فئة الفرنكين وقال لي إن ذلك مقابل عنائي ، ولأنني عرضت ساقى للبرد . ثم لما رأى أنني عازمة على التقاط كرات الملكة ، قال لي بأن أضعها على الأرض وأعطاني كيساً آخر . وبعدئذ أخرجني ، لكن ليس من باب المحل وإنما من باب صغير ينفتح على دهليز . فتمضين الى نهايته لتجدي نفسك في الشارع .

— وهل قصصت كل ذلك على مدام لوند ؟

— آه ! لكنني لم أقل لها بأنه قبلني ...

— لقد قبلك !

— أجل . ألم أخبرك بذلك ؟ أما الباقي فقصصته كله على مدام لوند . حتى أنني أريتها قطعة النقود فقالت لي إن بوسعي الاحتفاظ بها . وإنه ليس ما يدعوني لاجبار أمي . أما الرسالة فلو علمت ؟

— الرسالة ؟

— أجل ، الرسالة الموجهة للمسيو دومين ؟

— طيب . إنه لم يلق عليها أية نظرة . واقد دسها هكذا في جيبه من غير أن يقرأها . لقد ذهب عناء كتابتها سدى !

تلا هذا الكلام فترة قصيرة من الصمت ، لبثت أنجيل أنناءها ساكنة ، مطرقة الرأس ، مستفرقة على ما يبدو في تأمل عميق ، لم تقوْ على إخراجها منه إشارات القلق التي ظهرت على وجه فرناند . ثم قالت بلهجة بدا فيها تغير مفاجيء :

— سوف تقصين في نهاية الأمر ، تلك القصة كلها على والدتك . اليس كذلك ؟

— لماذا ؟ فمدا م لوند قالت أن لا داعي لأن تعلم أمي بالقصة .

— وأنا أقول لك ، على عكس ذلك ، إن المسألة خطيرة جدا .

فكانت فرناند بحماسة :

— كنت على خطأ حين أخبرتك . لكنك لن تعرفي أبداً ما قالته مدام كوز عنك وعن عسيقك .

فهتفت أنجيل ، وهي تهب واقفة على حين غرة :

— ماذا ؟ مدام كور قالت شيئا ...

— أجل . وأنا سمعتها . فقد كنت في الغرفة المجاورة منشغلة بالخياطة ، وكانت تتحدث الى مدام لوند . لكنك لن تعرفي ماذا قالت .

— فرناند ، لا يحق لك أن تصمتي . أنت تعرفين أن في ذلك القضاء علي . ينبغي أن تقولي كل شيء ، أتوسل اليك . فرناند ، ألا تسمعين ؟

— أقسمي لي بادىء ذى بدء ، أنك لن تذكري قصة المسيو دومين لاحد .

— نعم ، نعم . أقسم لك .

وجلست الى جانب البنت الصغيرة على السرير وقبضت على كفها بيديها المرتعشتين .

قالت البنت التي بدت متلهفة للبوح بأسراها :

— كنت جالسة جانبا أخيط . فطلبت الي مدام لوند أن أخرج بسببها وجود مدام كوز ، ولانها لا تريدني أن أبقى بجوارها حين تستقبل أحدا من الناس .

— أجل ، أعرف ذلك .

— قالت مدام كوز بادىء الامر انه لم يعد أحد براك ، وان زبائن المطعم يأسفون لغيابك دون ريب . عندئذ أجابتها مدام لوند قائلة : « تضيع واحدة فنعثر على عشر » . ولم يبد عليها الارتياح لأن مدام كوز انخرطت بالضحك ، ثم أضافت قائلة بعد أن رفعت صوتها : « على كل حال وضعت عيني على واحدة لتأخذ مكانها » .

— قالت ذلك ؟

— نعم . فضحكت مدام كوز مجددا وسألتها ان كنت البديلة . أنا ! فكري كم كانت دهشتي . لكن مدام لوند اغتازت منها على الفور وطلبت اليها أن تسكت . فسكتت مدام كوز فترة لا بأس بها ، ثم سألت مدام لوند ان كانت تعتقد ، أنه سيلقى القبض في نهاية الامر على الرجل الذي قتل السيد سرسينا ، والذي اعتدى عليك أنت أيضا .

— أجل ، وبعدئذ ؟

— لم يرق ذلك أيضا لمدام لوند . فقالت لمدام كوز انها ليست الا جبانة . وانها بلغطها وثرثرتها تسببت في الخوف الذي يعم جميع

الناس في لورج . عندئذ عارضتها مدام كوز قليلا وردت عليها بأنها ليست وحدها في المدينة تعتقد بأن القاتل هو ... خميني من ؟

— لا أدري . قولي بسرعة .

— المسيو غريه ، الذي قدم الى هنا مرتين والذي توارى غداة الجريمة .

— يا الهي ، ما هذا الذي تقولينه يا فرناند ؟ وبماذا ردت مدام لوند ؟ أخبريني ، قولي !

— قالت ان ذلك غير صحيح . وان عصابة من الجناة قد فعلت ذلك . وردت مدام كوز بالنفي .

وبدأتا تتصايحان . فلم اكن بحاجة للالتصاق بالقفل كي اسمعهما

— وماذا كانتا تقولان ؟ هيا ، اسرعي .

— تمهلي . لا استطيع الاستعجال اكثر . قالت مدام كوز ما يلي : « الكل يعلم ان الجاني هو عتيق أنجيل . لاسيما وأن الشرطة تبحث عنه بينما هو لا يجرؤ على الظهور . وما ان سمعت مدام لوند ذلك حتى صرخت بها قائلة : « اخرجي من هنا ! » قالت ذلك بصوت أخافني . لكن مدام كوز لم تتوقف ، مع أنها تبدو في العادة وجلة جدا ، فظلت تغمغم . وظلت مدام لوند تصرخ بصوت أشد وأقوى ، حتى نعدت عليّ أن أفهم ماذا تتبادلان من أقوال . من ثم ، شرعت مدام كوز تصيح بصوت أقوى من صوت مدام لوند فقالت : « من الجلي والواضح أنك منحازة الى جانبه . » وقالت شيئا آخر أيضا ، شيئا سبب رعدة في أوصالي .

— طيب . هيا . قولي بسرعة .

— قالت لها : « ما من سبيل الى الخطأ . فهو مختبئ هنا ! »

ارخت أنجيل يد الفتاة الصغيرة وتنحّت قليلا من غير أن ينطق بكلمة . لكنها كانت ترتعد بعنف جعل البنت تنفعل .

— ولكن ما بك يا أنجيل ؟ هيا ، فذلك غير صحيح .

ورغبت في أن تحيط بذراعيها الفتاة ، التي بادرت الى اسدال الخمار على وجهها بحركة غريزية . مضت بصع نوان دون أن تفوى أنجيل على التفوه بكلمة . ثم تحررت بتمهل من ضمة فرناند لتقول أخيراً :

— وهل قالت شيئاً آخر ؟

— كلا ، بل انصرفت من ساعتها . ألسنت على مايرام ؟ أودين أن نتمددي ؟

فأجابت أنجيل بصوت خافت :

— أودّ لو تتركيني ، يا فرناند .

— لو كنت أدري لما رويت لك كل ذلك . الا أنني ترددت . فقد خامرني الشك في أن ذلك سيسيء اليك .

— ليست الغلطة غلطتك ، يا صغيرتي . لكن لا تكرري أمام أحد كل ما رويته لي .

— كلا ، بكل تأكيد .

بعد صمت قصير قالت الفتاة بصوت أكثر حدة :

— يا فرناند ، انني شقية ، شقية جداً . فهل تساعدني اذا ما احتجت لمعونتك يوماً ؟

— ولكنك تعلمين حق العلم أن ذلك مؤكد .

— مضت ثلاثة شهور وأنا أعيش حياة شاقة ، يا فرناند . لم أجد
أقارب أحدا . لقد اعتقدوا بادئ الأمر أن جراحي ستشفى خلال
خمسة عشر يوما . لقد اندملت تماما . لكن سيتخلف عنها شيء بشكل
دائم . وأنا لا أجري على الظهور في هذه الحال ، لكن علي أن استأنف
عملي . إلا كم كنت سعيدة وأنا أعمل في المصبغة من غير أن أدرك ذلك !
هل تذكرين كم كنت جميلة ؟

— ماذا تقولين ؟ لكنك مازلت جميلة .

وهزت أنجيلر أسها .

— أنت لم تريني منذ ...

وكفت عن الكلام وبدأت متفكرة . ثم قالت بعد لحظة :

— أخبريني ، يا حبيبتي فرناند ، هل تحبينني ؟ إلا سبب لك شيئا
من الخوف ؟

— الخوف ، يا أنجيل ؟

— أجل . فأنت لا ترينني أبداً إلا وهذا الخمار يلف رأسي . وهذا
وضع محزن جدا . ويتراءى لي أحيانا وأنت تحدقين بي أنك تأملين
رؤية وجهي من خلال التخاريم .

فردت فرناند وقد بوغتت :

— ولكن لا .

فواصلت الفتاة قائلة بصوت عذب :

— بلى ، بلى . أنت تعرفين أنني لا أحدثك على هذا الأمر أبداً . وكم يحز في نفسي التفكير بأنني قد صرت بشعة . مع اطلالة كل صباح انظر الى وجهي في المرآة ، وأقول لنفسي أحيانا إن الحال أصبحت أفضل . وتأتي من ثم أيام يكون انطباعي فيها بأن الحال أسوأ . ولكثرة ما رأيت نفسي على ذلك النحو ، ولشدة تفكيري بالأمر طوال النهار ، آل بي المطاف الى نوع من الجهل الكلي بحالي .

فقالت فرناند وقد اقلقتها لهجة تلك الكلمات :

— لا ينبغي أن تطيلي التفكير في ذلك .

— يسهل مثل هذا القول . لكن يلزمني على وجه الدقة ، أن يقول لي شخص ما الحقيقة ، وأن لا يكون قد رأى وجهي منذ ثلاثة أشهر ، كي أظهر أمامه .

— مدام لوند ستقول لك ذلك على الفور .

فقالت انجيل بنبرة سخط :

— مدام لوند . سوف يسعدها كثيرا أن ترى ما الحقته بي من اذى . وامتقع لون البنت فقالت :

— بل على العكس . فقد قالت لي إنها تأمل أن تراك وقد سفيت قريبا كي تعودى لاستئناف حملك :

— الكنها هي العلة في كل شيء ، يا فرناند . ولولا أنني أعرف تلك المرأة ، لكنت الآن جميلة كما في الماضي .

ثم أمسكت بالبنت من يدها ونهضت فجأة لتأتي وتجلس قبالتها . وقالت بعزيمة :

— لدي طلب أتوجه به إليك . ولن ترفضني على ما أعتقد ؟ قلت إنك تحبيني كثيرا . أصني الي . سوف أرفع خماري . وتأبين أنت الى جانب النافذة وتنظرين إلي . اترضين بذلك ؟ هل ترفضين ؟ وأجهشت فرناند بالبكاء .

قالت أنجيل وهي ترتدي على ركبتيها أمامها :

— ماذا دهالك ؟ أنت خائفة ؟ أنت خائفة مني ؟ كنت تعانقيني بقوة فيما مضى ، أما عدت تذكرين ؟ كنت تطوقين عنقي بذراعيك وتقولين إنك لن تدعيني أنصرف . أما الآن وقد أمسيت وحيدة ، والناس كلهم يزدرونني ، فأنك تقفين ضدي ، أنت أيضا ؟ أتوسل إليك ، يا حبيبتي فرناند ، كوني طيبة معي . أؤكد لك أن ليس في الأمر ما يفرع . أتخسبن أنني كنت نظرت في وجهي كل صباح ، لو كان ذلك يخيفني ؟ هناك ندبة ، هذا كل ما في الأمر . إلا أنني أشعر بالخجل وأنا أذكر أنني ، لثلاثة أشهر خلت ، كنت أفضل من اليوم .

— متى ستخرجين الى الشارع ؟

— متى ؟ سأخرج غدا إن قلت لي أنني لم أنغير كثيرا . أترين ما يمكن أن تقدميه لي من عون ؟ لقد سلمتك نفسي . ذلك أنك أصبحت فتاة بالغة . ألاحظين ؟ هيا .

ثم نهضت وجذبت البنث بهدوء صوب النافذة . وتراجعت لتقف عند الركن على نحو يدع بضع خطى بينها وبين فرناند :

— انتبهني . إن الانطباع الأول هو الأكثر أهمية . حاولي أن تنسي كيف كان وجهي فيما مضى وقولي لي بكل صراحة إن كنت أستطيع الخروج غدا . لكن لا تتخذي هذه الهيئة يا حبيبتي . كأنك تتوقعين

رؤية عفريت ! هيا ، لا أريد أن تكوني كئيبه على هذا النحو ،
هاك ، تخيلي أنك في المسرح .

وسكتت هنيهة ثم قالت بلهجة خطابية كمدير مسرح يعلن عن
بداية العرض :

— العرض سوف يبدأ . سيداتي ، سادتي ، الستارة سوف ترفع .
انتبهوا !

تلك الكلمات التي نطقت بصوت مخنوق تلاها صمت ثقيل . ثم
ندت من البنت صرخة ، كأن شيئاً ما قطع عليها أنفاسها بغتة . ذلك أنها
كانت تتوقع أن ترى جروحاً منفرة تملو وجهها مألوفاً لديها رغم كل
شيء ، لكنها رأت أمامها امرأة لا تعرفها البتة ، لها عينان زادهما القلق
اتساعاً ، واحتفظتا وحدهما بشيء من حسن ولى الى الأبد ، مفارقاً
وجهها جرى التشكيل به تنكبلاً بشعاً . إلا ان تناسب القسمات لم يتبدل
قط ، فالشكل المدهش الجبين والمحجرين والأنف هو على حاله ، لكن
شرخين عميقين ، بل لعمين عريضين ، بحواشي بيضاء ، يشيطان ذلك
المحيا الداعي للرائء أبداً . الأول يبدأ من الصدغ الأيمن فيحتفر الخد
ويقطع الشفتين كأنه يفرض الصمت عليهما . ويفتك الثاني بجانب من
الفك والدقن ويتوارى تحت الأذن . فكان يداً لا تعرف الرحمة نقت
على الصورة التي صنعتها . فارادت محوها ، فخلقت بشطبات من قطعة
طبشور ، تلك الشروخ المتهاجة التي حملت قرار إدانتها .

أخيراً قالت أنجيل بتنهيده متوجعة :

— طيب ، لا ينبغي أن تبقي هكذا ، يا فرناند ، دون أن تقولي شيئاً .

فهمست البنت من غير أن تتحرك : « أجل » . فواصلت الفتاة
كلامها قائلة :

— لقد تعودت ، كما تلاحظين ، على فكرة أنني لن أعود أبداً كمثل ما كنت سابقاً ، اكنّني اعتقد أنّ الوضع سيتحسن ذات يوم ، رغم كل شيء .

وبعد توقف قصير سألتها : « ألا تعتقدين ذلك ؟ »

— بكل تأكيد ، يا أنجيل .

حين خاضت الفتاة بفرورها ذلك الاختبار ، خفّ شيء من العبء الذي رزح تحته قلبها ، وبدلاً من أن تدرك البطلان المأساوي لأفكارها ، استأنفت الكلام وكانت حريصة على عدم سماع ما كانت البنت الصغيرة ستقوله لها :

— حين شاهدت نفسي على هذا النحو اعتقدت بادئ الأمر أنني سأقضي خجلاً . لكنّ المسألة مسألة تعود . لقد احتفظت بعينيّ سليميتين ، وهذا شيء أساسي . أوّاه لو تمكّن إزالة تلك العلامات البيضاء ! يتراعى لي أنّ تورّد الجلد تقدّم بعض الشيء من حولها . لاحظت أنها تساهد في النهار على نحو أضعف وقت سطوع الشمس . ولا تبدو دميمة جداً إلّا حين أولي ظهري للنافذة . لكن ما عليّ عندئذ إلا أن اطرق رأسي ، هل تفهمين ؟

وأطرقت على نحو ظهرت معه قمة رأسها ومفرق شعرها الاسود الكثيف . أما البنت فالتزمت جانب الصمت . كانت شاحبة اللون . وبدت وهي تضع يديها وراء ظهرها أنها تخشى القيام بأيّة حركة .

قالت أنجيل :

— هيا اعترفي بأنّ الوضع ليس رهيباً بقدر ما كنت تظنين . فالمرعب هو منظر الدم ، أليس كذلك ؟ أما الندبة ... على كل حال ، هبي أنّك صادفتني في الشارع ، فهل سيتوالى لك الخوف ؟ هيتا ؟

ـ كلاً .

ـ هذا من حسن الطالع ! بوسمي إذن أن أخرج ؟ لو تعرفين مدى ما غمرني من غبطة وأنا أجد نفسي على هذا النحو حيالك من غير حاجة لأن أحجب وجهي بخمار ! ذلك أنني صرت في النهاية أخيف نفسي بنفسي . وتبين أنني كنت بحاجة للكشف عن رأسي لأمسي مسرورة تغمرني البهجة ! مضى زمن طويل من غير أن يغمرني مثل هذا الشعور . إعلمي أن ما قلته لي قد عاد علي بهذه السعادة .

كل ذلك الكلام تفوهت به بلسان ذرب ثم انفجرت بالضحك على نحو مفاجيء . فقد أضاعت بهجة مباغتة نظرها وتدفق الدم الى وجهها ، مما زاد من حدة البياض في نديانها . فأية آمال تلك التي دأبت أحلامها حتى نسيت هكذا على حين غرة أياما عديدة من العذاب ؟ ثم أمسكت بالبنيت الصغيرة من يدها ومضت لتجلس وإياها على السرير قائلة باتزان اكبر :

ـ وعدتني أن تكلميني بصراحة ، يا فرناند . أصغي لما سأقوله لك . في ذهني للمستقبل مشاريع عدة . وليس في نيتي كما تعلمين أن أستمع على هذا النحو في عيشة أشبه ما تكون بعيشة السجون . ولم أعد أطيع الاستمرار في غسل ياب مدام لوند وترقيع بياضاتها سدى . غداً سوف أخرج . هذا قرار قد اتخذته . لكن يبقى لدي الآن سؤال أطرحه عليك وهو سؤال جاد . فكري جيداً قبل أن تجيبني .

ـ نعم .

ـ أنت ما زلت فتية . لكنك قلت لي إنك تدركين الأمور مثل فتاة بالغة ، أليس كذلك ؟ طيب انظري إلي جيداً . لو أن رجلاً رأيني على ما أنا الآن عليه ، فهل تحسبين أنه سيجدني دميمة ؟

— دميمة ؟ كلا .

— هل أنت متأكدة من أنك لا تقولين ذلك لارضائي ؟ وهل تعتقدين أن ذلك الرجل نفسه يمكن أن يقع في حبي ؟

— أجل ، يا أنجيل .

— في هذه الحال ، سوف يقترب مني ويقول لي : « يا آنسة ، أنا أحبك ! » وبعدئذ ؟

— بعدئذ ؟

— أجل ، ماذا سيفعل من بعد ؟ سوف يمسك بيدي ويعانقني .

أليس كذلك ؟ أليس هذا ما تريدين أن تقوليهِ ؟

— بلى ؟

وأعرفت الفتاة في الضحك . ثم أضافت :

— هل تظنين أن المسيو دومين كان سيعانقني لو كنت مكانك في ذلك النهار ؟

فأحنت البنت رأسها .

فهبت أنجيل واقفة أمامها على نحو مباغت قائلة :

— عانقيني ، أنت .

كانت تقف منتصبّة ما بين النافذة وفرناند ، مترصدة الوجه الصغير الذي أمتع لونه لتقرأ فيه تعبيراً يطمئنها كل الطمأنينة . لكن نظرها لم يقع إلا على فم متشنج وعينين تفيضان بالدموع . لقد أحكم

مشهد ذلك الهلع عليها الخناق . لا يسع أية امرأة ، مهما يكن وضوحها أو شراستها ، أن تريها بشماعة مصيرها بوضوح أكبر مما رآته في نظرة الدعر النبي تبدد في عيني قرناند . وشعرت أن قواها تخونها وأن ركبتيتها ستثنيان . ذلك أنها تأرجحت طوال شهور بين الأمل واليأس ، ثم وجدت نفسها فجأة أمام حفيضة فظيعة . أن منظرها يثير الرعب . وهذه البنت نرفض أن تعانقها . فأدارت لها ظهرها على نحو مفاجيء ومشت الى النافذة من غير أن تنطق بكلمة . كان الناس يقطعون الساحة الصغيرة ، فيهم امرأة عجوز غصنت السنون فقط محياها ، وصبي صغير ذو بكرة ندية . أكانوا يخمنون أنها واقفة هناك وأن قلبها يتفطر حزناً ؟

ثم تفكرت قائلة في نفسها :

— ربما لم تفهم . سوف أسألها من جديد .

ورجعت ناحية البنت التي ظلت تلتزم الصمت ولا تجرؤ على الاتيان بحركة . فتحت أنجيل فاها لتتكلم لكن الاسى أخرسها . وبدت مندهلة هي نفسها من عجزها عن النطق بما ترغب في أن تقوله من كلام . يا للمسكينة المروعة التي كانت تخيم على الغرفة ! كان بודהا أن تصرخ : وأن تجار بالصراخ حتى تنقطع أنفاسها ، وحتى تفارقها آخر نسمة من الحياة ، لا سيما وأن الموت هو الوسيلة التي ما من سبيل سواها للافلات من هذا الجحيم ؟ وبغثة خانتها ساقاها فهوت على ركبتيتها ، واحاطت بدراعيها ذلك للجسد الذي يهم بالنهوض ، مرتعداً تفرزاً من ملاسستها ، فوضعت رأسها في حضن البنت الصغيرة وتبعثر شعرها فوق مريلتها وأجهشت بالبكاء كالمجنونة ، مطلقة عويلا متفجراً كتفجر مظاهر بهجة فظيعة .

* * *

- ٢ -

جلست مدام لوند تنتظر زبائنها في القاعة الطويلة الكئيبة وقد تشابكت أصابعها فوق مكتبها ، واستندت قدمها الى المدفأة . لم تكن تأتي بحركة . كانت تلف كتفها العريضين ، اللذين ازدادت استدارتهما منذ فترة قصيرة بوشاح صوفي محاك باليد . أما عينها الساكنتان واللتان بدت نظرتهم كأنها متوجهة داخليا ، فقد بدتا مستقرتين على رؤية باطنية ينعكس أساهما في قسماتها . كان الاناء الصغير أمامها فارغا . الا أنها أبقت عليه بفعل خوف وتطير من أن ينعكس على مصبرها تأثير أصغر تعديل على عاداتها اليومية . وإذا كان الفصل قد حرّمها من الأزهار فهل في ذلك ما يضرها ؟ ان لديها على كل حال هموما أخرى كثيرة . فالشيء الذي يجري خطير جداً ، بل على درجة من الخطورة جعلت مدام لوند ، وقد وجدت نفسها أمام موقف لم يسبق مثيل ، تفقد كل جراءة لديها فلا تفكر حتى بالتحرك قيد أنملة أو مناداة النادل . فأين هي من الزمن الذي كانت فيه تأمر باحضار الحساء لأرغام أولئك الزبائن على الحضور ؟ أما الآن فلم تعد تجرؤ على ذلك . لقد فقدت كل ثقة بتلك الوسيلة التي كانت تستخدمها أيام عزوها . ألم تشهد بأم عينها قبل اسبوع مضى ، أحد عشر طبقاً يتصاعد منها بخار الحساء الساخن ، ثم تتبرد تدريجياً بانتظار وصول زبائن تأخروا في المجيء ؟

بلغت الساعة السابعة وخمساً وعشرين . وهي تعرف ذلك . فقد أحصت الدقائق ثمانية فثانية وهي تصغي لتكات رقاص الساعة الجدارية السوداء . وزاد القلق والغضب من امتزاج الصفراء في دماها فامتقع لونهما من تحت طبقة المسحوق المتورّد الذي طلت به خديها .

فليس في قاعة الطعام من أحد سواها . لكنها فكرت في أنها ستلبث جالسة ، تنتظر أن ترى 'الباب يفتح واحدهم يدخل ، حتى لو دفعت حياتها فوق مكتبها منما ذلك الانتظار .

لم تكن المدفأة تتوقد بعيداً عن المائدة الكبرى فتسمع تمتعتها التي كانت تجدها فيما سلف بهيجة ومريحة . هذه الحرارة تتبدد الآن سدى وسط ذلك الجو الدافئ . وها قد داهمها توعك صحي فزاد في اضطراب فكرها ، ودفعا لان تتسأل بهلع عما ستفعله من أجل أن تبقى جالسة بلا حراك مدة ساعة ونصف وربما أكثر . فمن أين جاءها ذلك الاحساس بالغنيان الذي شرع يضايقها ؟ ذلك أنها لم تأكل شيئاً في الساعة الرابعة لاحساسها بالتقزز . وها إن قلبها الشقي الذي فعل اليأس فيه فعله قد بدأ يترنح .

تساءلت في نفسها : « لمَ كل هذا العذاب ؟ » لقد عرفت ، طوال سنين بحالها ، طمأنينة حياة سهلة وعادية ، بدا كل ما فيها منتظماً على نحو دائم ، من النظطة الى النوم الى الوجبات ، بل حتى الأفراح والأفراح . وبغثة حصل خلل هائل . وبدأت مرغمة على إعادة النظر في أقدم العادات ، وشمل الانقلاب وجودها حتى غاص الى أعماق أغواره . فكل ساعة تحمل في طياتها انفعالا جديدا . وكل نهار يشرق مندرأ بنكبة . لقد أقبل أحدهم حاملا معه المصيبة . ذاك هو غريه . فمئذ أن تناول العشاء في المطعم وكل شيء يسير نحو الأسوأ . كان ينبغي أن يحدثها قلبها بأن ذلك الوجه المفلق ، وذلك 'الصمت' ، لا يشيران بأي خير . فها هي أنجيل قد أضحت بسببه تحتجب عن الأنظار كمن به برص . وبسببه أمست مدام لوند لا تدري بشيء مما يجري في لورج . وبدأ التأثير الذي اكتسبته على أولئك السادة يذوى شيئا فشيئا . اضطربت سكينه الايام المنصرمة ، ولم يعد الفضول الظاهري ينطق له من غليل . تنامى احساسها بالمهانة وشعورها بالنقمة وهي ترى الى صرح حسبته صامدا يتهاوى . وراة نفسها حيال تراكم من الآلام التي من شأن كل واحد منها أن يرهقها بمفرده ، فمن هو السبب في كل ذلك غير ذاك الوحش الذي حشته

وشجعته على القدرم إليها ؟ ايه لو كان بوسعها أن تعرف ، أو لو أن
السماء قد أندرتها رحمته بها ! بيد أنها لم تكن تؤمن بعون الدين في
ساعات المنقة التي على شاكلة هذه . فهي لا تفكر في السماء إلا في
ساعات مزاجها الرائق . ففيما مضى على سبيل المثال ، حين كانت
انجيل تأتيها بشيء من المال ، مصحوبا بأقاصيص صغيرة حول هؤلاء
وأولئك ، كانت مدام لوند تشعر بالحاجة لاضافة متعة أخرى على بهجة
وضع خمسة فرنكات في حافظة نقودها ونشوة الاطلاع على أخبار
جديدة ، الا وهي متعة الشعور بأنها شريفة . أما الآن فتعتبر نفسها
مخدوعة ، مخدوعة من قبل العالم ، ومن قبل ذلك الاله الذي يصفونه
بالعدل والذي كان يتسلى بتعطيل آلة حياتها البورجوازية المنسقة
بكل براعة . وعليه فلن تعتمد على أحد من أجل قهر عذابها وتفادي
الكوارث الني باتت قريبة ، بل ستكون وحيدة ، جالسة الى مكتبها
مثل إلهة ضربتها الصاعقة فوق أنقاض معبدها . بلغت الساعة السابعة
والنصف . كان بודהا لو تكون الثامنة أو التاسعة كي تبلغ النكبة مداها
الاقصى ، ويثبت جور العناية الالهية بالدليل القاطع مرة واحدة والى
الابد .

ثم تحولت من تخوف متطرف مما يخبئه الغد ، الى متعة تخيل
أسوأ ما يمكن أن يقع . فرأت نفسها وقد انفض جميع زبائنها من حولها
فأفلست وأضحت في حالة فقر مدقع ، ثم أصبحت تحت رحمة الدين
كانوا يتهمونها بإيواء المجرم في منزلها . ذلك أن تلك التهمة الحمقاء التي
ساهم الخوف في إشاعتها القيت أذانا صافية أكثر فأكثر . وبدأت
الاحقاد ومساعير الحسد المتجمعة ضدها في الخفاء منذ زمن طويل جدا
تنذر بالانفجار دفعة واحدة ، مثلما تنتشر جائحة الوباء بعد حضانة
تلوم سنين عدة . فكم حافت بها البغضاء بسبب المكانة التي احتلتها ،
والمطعم الذي كان كل واحد يتمنى زواله ، والدراهم التي وضعتها
جانبا تحسبا لأيام شيخوختها ! لكنها ظلت تؤمن بتماسك الأشياء
وديمومتها وصدق الأيام وبفوتها الشخصية . فأي أمل تضعه في الحياة
الآن ؟ كانت الساعة تشير الى الثامنة إلا خمس وعشرين .

أما الحد الذي بلغته فبدت لها الاتساع فيه متسabee كلها من بعد . ولم يعد في نظرها من فارق بين أن يأتي أحد أو لا . وبين أن يتناول الزبائن الحساء ساخنا أو أن يترك وشأنه حتى يبرد في آئينه . ذلك أن الضربات الناجمة عن السدائد والمحن لا تعود تؤلم إذا ما تجاوزت الحد . هذا ما كانت تناقشه بينها وبين نفسها حين فتح الباب . وندت عن يديها ، على الرغم منها ، حركة دهسة كتبتها لتوها . لقد دخل ثلاثة من الزبائن تلاهم واحد فلانة أيضا . قد يقول قائل إنهم كانوا خارجا ينتظرون عمدا ، وراء أشجار الساحة ، من أجل إثارة مخاوفها والثأر مما ألحقته بهم من أهانات . وترع قلبها يخفق بشدة ، أما حين حيوها قبل أن يجلسوا ففد ردت عليهم التحية بكل مظاهر المهابة ، بل وبشيء من اللامبالاة التي تطلبت منها جهدا كبيرا .

لو انها رضخت فوضعت نظارتها لحظة من الزمن ، لشقيت بقراءة مظهر من الثقة على وجوه الزبائن لم تعرف البتة مثيلا له من قبل . كانوا يحدقون فيها دون أن يطرف لهم جفن . فهل السبب أنهم ما عادوا يخشونها أم أنهم باتوا مدركين أن بصرها أمسى شحيحا . وأنها لن تلحظ على وجوههم سيماء الوقاحة ؟ بعد ذلك ببضع دقائق كانوا كلهم منهمكين بتناول الطعام . وشعرت في حرارة نفسها أنها تولد من جديد بفعل وجودهم فقط ورغم الامتهان الرهيب ، الذي لحق بها لوصولهم متأخرين ، فاضطرت لتقبله من غير أن تنطق بكلمة واحدة . صحيح أن عددهم ليس كاملا . حتى أن عيني مدام لوند وقعتا على الفراغ الكبير القائم في أعلى المائدة إلا أن الفرح عاد يداخلها بوجل . فما ضاع كل شيء . وأمسى من العذب ، بعد الأهوال التي خاضتها ، أن ترى القاعة تستعيد مشهدها المألوف . فالنادلان يتحركان الآن حول المائدة فيرفعان أطباق الحساء بحركات مباغتة لا سبيل إلى تفويمها أبدا . لكن مشكلة بدت مطروحة على بساط البحث . ولا بد من إيجاد حل فوري لها : هل تترك أطباق الغائبين في الأماكن المخصصة لهم أم ترفع وتعاد إلى المطبخ؟ وأي الموقفين سوف تختار ؟ فالإعاز بترك الأطباق هو تصريح بأمل

سوف يبدو مضحكا اذا ما خاب . لكن الن تكون الاشارة بردها الى
المطبخ بمثابة اعتراف بالهزيمة ؟

أحست بوجنتيها تتوقدان نارا حين خطرت على بالها فكرة
الازدراء الذي ستثيره كلماتها . ذلك أنها شعرت بما يثبئها بسوء
مزاج الطاعمين من غير أن تراهم بوضوح أو تدرك فحوى ما كانوا
يتبادلونه من كلام . فمئذ أسابيع وهي لا تدري شيئا مما تمتلىء به
حياتهم من هموم ومباهج . فهم يتوارون وسط الغموض كأنهم يغيبون
في ظلمة تزداد سماكة شيئا فشيئا ويعجز نظرها الشحيح عن النفوذ
اليها . وكلما ابتعدوا عنها ليصبحوا مجهولين ، تلاشت سلطتها عليهم .
فما هي حقيقة كيائها في واقع الامر ، من غير عيني أنجيل وأذنيها ؟ وهل
تفيدها قدرتها على الحدس الا في تعذيبها ؟ اليس استشمام وجود
سر ، مع العجز عن اكتناء أدب تفصيله ، أشق على النفس من الجهل
المطلق لدى امرئ لا يشك في شيء أبدا ؟ كانت من ناحيتها تشك في كل
شيء ، لكن بحق السماء ، أليست الظلمة التامة بأفضل من هذا الخيط
من نور ؟ كانت تعود بشريط مصائبها القهقري ، تحت وطأة عاداتها
كعجوز تشوش دماغها بعامل السن وفعل الاشجان ، فتنسب أصغر
الخيالات الى مصدر مشترك . واذا كان عليها أن تحسم المعضلة الصعبة
المتعلقة بثلاثة أطباق صغيرة من الحساء ، فلأن زبائنهم أخذوا العادة
السيئة في الوصول متأخرين . لماذا امسوا يصلون متأخرين ؟ لأنهم ما
عادوا يحترمونها . وما هو السبب الكامن وراء قلة احترامهم هذه ؟
لأنهم أخذوا يشعرون أنهم اضحوا في مأمن من فضولها ، فطفقوا
يستردون استقلالهم تدريجيا . أما أنجيل التي كانت تدهن أولئك
الرجال لتنتزع منهم أسرارهم الصغيرة ، فلم يعد لها من وجود .
فيا للمرارة التي تحس بها حين تنكر بأنها هي مدام لوند قد أوصلت
الامور الى ما وصلت اليه بفلطتها الشخصية ! أجل ، أنها تتحمل في
نهاية الامر كل التبعات . لأنها بالحاحها جعلت ذلك الشقي يعود الى
عندها بينما كان عليها أن تركله وتطرده شر طردة . ربما فكر بجريته
وخطط لها وهو جالس هناك الى المائدة تحت قدميها ، بينما قامت

هي الحمقاء من غير أن تدري بتقديم المأكّل اليه ! آه ، فلترفع أطباق
الحساء هذه . ولأن تسكب في قصعة الكلب أو تدلق على قارعة الطريق
خير من أن تقدم لرجال !

كانت على وشك الإيعاز برفع الأطباق الثلاثة الملأى حين فتح
الباب ليدخل منه السيد غونسولان (غونسولان ! كان أول من يصل
فيما مضى) والسيد باريزيه . دخلا بهيئة من الزهو ، وكل منهما
يضع قبعته على رأسه . استولوا على مدام لوند انفعال عنيف . لابد
من حصول أمر ما ، فهذان الرجلان لا يريدان بها خيرا . كانت واثقة
من ذلك فوضعت يديها على قلبها ، كأنها تريد كبت ضرباته التي هزت
صدرها . لكن لا . فقد استدارا شطرها وسلمتا عليها بوقار . ردت
عليهما السلام آلبا وقد بعضن وجهها بتأثير الخوف ، وتعرق كفاها
داخل قفازيهما الأسودين . هل يسخران منها ؟ علام يهزان رأسيهما
هكذا وهما بنظران إلى الباب ؟ والآخران ، مم يضحكون ؟ أصاحت
السمع فلم تلتقط إلا متممة تنير الغيظ . وبغثة نقزت ، فالسيد
غونسولان الذي اختار مكانا له بين بلوندو وفيرديه لم يجلس بعد .
السيد غونسولان ينظر ناحيتها ويتوجه إليها بالكلام .

ماذا يقول ؟ هذا الصوت الذي يتردد كأنه وسط الضباب ،
ميزت فيه طابعه الخفيض بعض الشيء ، ولكنته الريفية ، دون أن
يلفها منه شيء محدد ، فلم تسمع أية كلمة واضحة . أياكون قد تعمد
عدم النطق بشكل أوضح ؟ أحست بحبات العرق تتجمع حول جبينها
وتسيل ببطء فوق بشرتها . فالصقت ظاهر يدها فوق حاجبيها سعيا
لحماية المساحيق والحمرة التي طلت بها وجهها وخديها من المسيل
الجاري الذي بات يتهدهدها . تم سكت السيد غونسولان وأخذ الطاعمون
ينظرون إليها منتظرين دون شك جوابا على السؤال الذي طرح عليها .
نشوتت الرؤية أمام عينيها . وبدأ لها على حين غرة أن القاعة غرقت
في نور يفوق كل احتمال . باستثناء الثريا الغازية التي بدت وحدها
سوداء . وبدأت نياها تلتصق بجسدها . وأوشكت أن ترد قائلة

« طيب » كيفما اتفق حين رأت السيد غونسولان يحيط فمه بكفيه على شكل بوق ويصيح بها بصوت قوي ومتقطع :

— لا تنتظري المسبو لبون ، لانه ان يأتي !

فردت قائلة « طيب » لانه لم يكن من كلمة سواها في ذهنها ، وقد افلست منها مثل صرخة غم . وأرغمها دوائر موجع على أن تفض طرفها ، بعد أن لمحت السيد غونسولان يفرد فوطته ويجلس وسط ضحكات متعالية . لقد سقطت وانتهى أمرها ، أما ما عجز العرق عن فعله فقد تولت دموع اليأس الآن انجازه ، فأخذت بكل أناة ، ترسم دربا لها داخل مساحيق التبرج والوانه بدءا بمآقي العين وحتى زاوية النغم . وما عاد أحد يلقي اليها بالا . فبات بوسعها الاستسلام للعذاب حتى تنتشي حزنا . ورأت بشكل مشوش عبر قطرات الدمع الكبرى التي كانت تتراقص على حوافي أجفانها ، اناء الازهار الصغير والدفتر الاسود ، اللذين يذكرانها بأشياء وأشياء . فاية فائدة ترتجى من العجري وراء الاوهام ؟ السيد ليون لن يأتي من بعد ؟ وسيجيء غدا دور واحد آخر . وبعد اسبوع سبتوجب اغلاق المطعم وركل القدر وربما الرحيل . فهي ترى بوضوح أنهم يكرهونها . وانهم سيحبسون حياتها الى جحيم . كان عليها أن تستشم المصيبة التي ستحل بها يوم سدد السيد ليون كل المال المترتب عليه . دفع لها قرابة أربعين فرنكا . قسما ، لقد استدان ذلك المبلغ من بعض الاصدقاء او من رب العمل . وحسبت انه مازال في قبضتها ! وها هي كقايض على الماء !

أما الآن وقد رضخت لمواجهة الحقيقة ، فقد أدركت ما يأخذه هؤلاء الناس عليها . إنهم حاقدون عليها لأننا حرمتهم من انجيل . فقد ظلوا يسألونها طوال أسابيع : « كيف حال انجيل ؟ هل شفيت تماما ؟ » . وكان جوابها هو نفسه على الدوام : « لم تتحسن الى حد يسمح لها بالخروج . انتظروا » . وهل تخاطر بانارة نفورهم من انجيل باعادتها إليهم قبل الاوان ؟ صحيح أنها لم تقم بتفحص قسما الشقية منذ وقت

طويل ، لأن الفتاة تتحجب منها مثلما تتحجب من سائر الناس ، لكنها تتذكر جيدا منظر وجهها المريع يوم حملوها الى المنزل . ولم تكن لتجرؤ من ناحية أخرى على أن توضح لربائنها إن جمال أنجيل قد ناله التسويه . وإن نصيبها من الشفاء التام متروك للزمن . لذا كانت ترى وسيلة للتخلص ، في الحديث عن نوبة عصبية أعقبت الاعتداء . لكن ها هي النوبة العصبية قد طالت لتدوم بلاسة شهوور حتى لم يعد أحد منهم يعتقد بصحتها .

يبقى أيضا أن مدام لوند لم تكن الوحيدة التي شاهدت ابنة اختها في الحالة المحزنة التي تركها عليها الجاني . لقد كان هناك شهود . وكل من يتخيل أن السنتهم لن تدور بما وقعت عليه أعينهم ، إنما ينم على جهل بالطبيعة البشرية . كان يقال إذن ، وفي كل مكان ، إن أنجيل اذا كانت محتجبة عن الظهور ، فلأن أخايد جروحها باقية . وإنها أضحت دميمة الى حد يمكن أن ينير الخوف في قلوب المارة . وعشا حاولت مدام لوند أن تقول العكس . لقد تمكنت في بادئ الأمر من إشاعة الحيرة في الراي العام . ذلك أنها كانت حتى فترة قصيرة ماضية ، ما تزال تتمتع بلسطة كبيرة . أما الآن فلم يعد يتساق على المرء أن يكتشف أحابيل لعبتها . كانت العجوز التعيسة خائفة على مصير مطعمها . فطفقت تسرد ترهات آملّة أن تتفادى المصيبة التي تتهدده . لكن الدليل بات قائما ، على أن ثروتها وصيتها ، وكل ما بدا واقعا في حوزتها على الأرض من موجود ورأسخ ، إنما يستند على أكثر شيء في الدنيا تقلقلا وتبدلا : استلطاف عدد من الرجال لامرأة . كان الجميع على علم بخفايا تلك القصة المنسبوهة . وليس من يجهل أن مطعم لوند كان في حالة يرئى لها ، قبل أن تبدأ مدام لوند بتمهير أنجيل . وما من شك في أن القوادة العجوز استطاعت بعدئذ أن توفر مبلغا طائلا . لكن يبدو أن العدالة الالهية لم ترضَ بتسليمها عرش وضع مزدهر ، إلا لتعدلها سقطة أكثر إيلاما وإذلالا .

كانت المرأة التعيسة تعرف أن الألسن تنوشها دون رحمة . لكنها لم تكن تخمن حدة الكلام وقسوته . ويقع في الخطأ كل من يحسب أنها جئعة . لأنها ، وبعد كل حساب ، خسرت مالا أكثر مما كسبت من نظام الطعام بالدين ، على النحو الذي اعتمدته . أما الطريقة الفوضوية التي كانت تمسك بها دفتر حساباتها ، فتتم على فكر يتغلب فيه الوهم والخيال على الحس بالوقائع . كانت تبدو دقيقة . لكن دفترها لا تتعدى تسجيل عدد الوجبات التي يدين لها بها كل واحد من زبائنها . ونحل نهاية الشهر لتسجل على الدوام عجزاً يتراوح بين عشر فرنكان وخمسة عشر فرنكا . فهل كانوا يسرقونها ؟ هل كانت تنسى أن ندون كافة نفقاتها ؟ إلا أنها لم تلق بالاً لذلك التبذير الذي كان ينبغي أن يقلقها . فقد قالت في نفسها إن من يدير أول مطعم في المدينة ، لا بد أن يتدبر أمره في نهاية المطاف . ويضيف صوت قائل في ذلك الجزء الغامض من ضميرها . حيث تختبئ أشياء كثيرة فلا تبوح بها : « لا سيما حين يكون لديه فتاة حسنة مثل أنجيل ، يضعها في متناول الزبائن . »

لكن هذا السند سلب منها على حين غره . فالدار بدأت تنهار لأن رجلاً معتوها ضرب أنجيل على وجهها . فيا للشراسة التي أبدتها تجاهها القدر ، ويا للحقد على ما ينعم به البشر من طمأنينة ! يا ليتها كانت تستطيع تلاوة الصلوات على نحو ما تقوم به العجائز المتزلمات في كنيسة سان جود ، لطرقت بلغظها وتخريفها سمع الله الذي يسمح بكل تلك الأهوال ! ويفودها تفكيرها إلى فتاة في مقتبل العمر قد جرى تشويهها أبداً . أما المرأة الصالحة التي آوتها في بيتها فترى نفسها مهددة بفقدان كل ما تملك ، وذلك دون شك جزاء ما قدمته رحمة وإحساناً . فهاكم ، هاكم ما يدعى بالعناية الإلهية !

لا ريب في أن مدام لوند قد فكرت في كافة الوسائل الكفيلة بانقاذ وضعها المهدد . فما هو فحواها ؟ وسيلتها أن تجعل زبائنها يتجملون بالصبر إلى أن تتحسن حال أنجيل تماماً ونستعيد جمالها الضائع . أما وهم في حاجة لفتاة ، فهل من الصعوبة بمكان العثور على واحدة فتية

حسناً تقبل القيام بدور البديلة ؟ إنهم بأمر الحاجة للتنافس على نيل حفلة لدى صبية جميلة . لقد عودتهم أنجيل على ذلك النوع من الخصومة الغرامية . ويبلغ غرورهم أقصى مداه في تلك الحرب الصغيرة الشرسة التي يخوضونها منذ زمن طويل . فهل يهون وشايات بعضهم البعض الآخر ، ونصب المكائد وإنارة الفيرة . وهل للهوى في واقع الأمر من متعة تفوق في حدتها متعة الايقاع بالخصم ؟

واحدة فتية حسناء . . . لقد أمعنت مدام لوند بحثاً ، وقامت بحملتها متخذة كل ما يلزم من حيلة ، لكن دونما كبير أمل : فالأقدار لا تسوق إليك بيتيمة فائقة الحسن والجمال مرة تلو مرة . وليس بوسع واحدة متهتكة من غايات شانتيليا أن تحل محل أنجيل . حددت مدام لوند اختيارها في نهاية المطاف . كان اختياراً غريباً وقد يكون مبالغاً . وهي لم تنته إليه من فورها ، رغم أن فكرته كانت تراودها منذ وقت طويل .

كان عليها كمهمة أولى أن تختبر نوعية الطعام الذي نوت أن تقدمه لزبائنها . وفي سبيل هذه الغاية بعثت بفرناند الى الصيدلي في شانتيليا ، الميسو دومين . وقد أضحى معلوماً أن النتيجة جاءت على أحسن ما يرام ، وأن مدام لوند شعرت لدى نجاح تلك التجربة الأولية بأنها تعود للحياة من جديد . بيد أن فرحتها لم تطل : فالميسو دومين ناهز الستين عاماً ، ورغبات المرء في مثل تلك السن بسيطة جداً ، حتى يصعب على امرأة عاقلة أن تخرج منها بنتيجة عامة . وأعادتها تلك الفكرة الى قلقها مجدداً .

ترددت في أن تعرض فرناند على زبائنها . سوف تبدو مثار هزئهم وموضع شكوكهم لو جاءت تسألهم إن كانت لديهم من رغبة في بنت صغيرة ترافقهم في نزهاتهم . فالبعض منهم أضحى معباً ضدها ، مثل الميسو غونسولان على سبيل المثال . وبوسع اثنين أو ثلاثة من الحاقدين على شاكلته أن يستغلوا الفرصة ليشيعوا عنها في المدينة تلفيقات مروعة حتى

ليمكنهم ان يشوا بها . ثم كيف لها ، من جهة أخرى ، أن تفوض أمرها الى فتاة رعاء مثل فرناند ؟ وهل تدرك هذه على الأقل كنه ما هو مطلوب منها ؟

بعثت المعلمة بالبنية الى عدد من زبائننا ، من بعد ارسالها الى المسيو دومين ، متعلقة بذرائع واهية من شأنها أن تدلهم على القصد . لكنهم بدوا كأنهم لم يفهموا ، أو أنهم كانوا يخشون بدورهم أن يتورطوا في قضية مشينة . وسعت مدام لوند عبثا لأن تسبغ على الفتاة مظهرا لائقا جدا . كانت تتوالى بنفسها تمشط شعرها ، وتدريها على التسم برقة . كان هناك جانب من البراءة القصوى تحت مظاهر صارخة ووقحة ، نقابله جانب آخر بتجلى فيه الجبن وعدم المبالاة .

رأت مدام لوند نفسها أمام مسروع خطر ، يحسن بها ألا تصر على التمسك به . سوف تدع الأمور تأخذ مجراها بنفسها . وذات يوم ، قد تراود أحد أولئك السادة فكرة الاهتمام بفرناند على نحو تلقائي . ليس على مدام لوند حينذاك إلا أن تتصنع الغباء وتغض عينيها ، على نحو ما فعلت يوم بدأ المسيو ليون يحوم حول أنجيل .

لكن الوقت أخذ يمر . وإذا كان ينبغي انتظار فرناند حتى تنضج ، وانتظار أنجيل حتى تسنعيد جمال مجيهاها القديم ، فإن مطعم لوند سيصاب بالافلاس ، ويجعل كل تعاون بين مدام لوند وهاتين الفتاتين دون جدوى . إيه ! ألا ليتها كانت أصغر سنا من الآن بثلاثين عاما ، بل بخمسة عشر ! لو كانت أصغر بخمسة عشر عاما لتدبرت أمرها بكل يسر : أصغر بخمسة عشر عاما يعنى أن تكون في الأربعين تماما . عندها كانت ستصرف تلك القاصر فرناند دونما أسف ثم تلحق بها تلك الحمقاء أنجيل التي تخاذلت فتمرضت للعنف والتشويه في وضح النهار . كانت ستتصدى بمفردها ، هي مدام لوند ، لادارة مطعمين ، بل لثلاثة مطاعم مثل ذلك الذي يسبب لها الآن كل هذا العناء . وتذكرت سنين عديدة مضت ، كان الرجال فيها لا ينظرون اليها من غير أن يجبسوا تهيدة في الصدور .

ذلك ان شعرها آنذاك كانت صفائره الغزيرة السوداء تتزاحم فوق غرتها
وصدغيتها . كانت ما تزال ندية رائحة اللون ملساء العارضين . كان ذلك
كله يبدو لها حديث العهد وجد قريب ، حتى أن تلاشي كل تلك الأشياء
الرائعة يتراءى لها الآن مثل كابوس سوف ينتهي قريباً . لكن عقلها يتدخل
دونما تأخير ليزيل ذلك الأمل الكاذب : ما الكابوس إلا حقيقة واقعة .
لقد أضحت عجوزاً دميمة ومقعده . فكل خطوة تخطوها تكلفها تأوهة
وتفضنا في الوجه . أسنانها شدت متسوسة تنذر بضرورة اقتلاعها .
صوتها أصبح متهدجا وشعرها يتساقط خصلا خصلا . البصر غشي
منها وسمعها بات ثقيلاً ولم تعد الحياة راغبة فيها .

أخرجتها من أفكارها تلك قرقة قوية للكراسي المزاحة فنقزت .
انتهى الطاعمون من تناول عسانهم . قد تكون هذه آخر وجبة لهم هنا .
لقد لبثت على مدى نصف ساعة جالسة أمامهم ، تحديق في تلك
المجموعة من الرجال فتلمحهم كأنهم وسط الضباب ، فهي لم تنتبه
مرة واحدة الى ما كانوا يفعلونه أو الى أين انتهوا في طعامهم . وها هم
يهيئون بفتة واقفين ليسددوا ما عليهم وينصرفوا . وراودتها الرغبة
في أن تنهض هي أيضاً لتلوح بيديها على نحو ما يفعله ممثل على خشبة
المرح يؤدي دوراً ترااجيدياً ، وأن تطلق صرخة كخاتمة لمشهد درامي ،
حتى لا تحتبس لفترة أطول حزناً لايزال يعتمل في قلبها منذ أسابيع .
إنها تود أن تعيش وأن تكون سعيدة . فما الذي يدفع بالناس لازدراؤها
لاسيما وأن ضميرها لا يثقل عليها بشيء ؟ لم لا تكون شيخوختها
محترمة كشيخوخة الآخرين ؟ إنه الظلم بعينه . أما الشتائم الصغيرة
التي لحقت بها والمهانات التي تعرضت لها بصمت ، والضغائن التي
جابهتها على هذا النحو أو ذاك ، فيبدو أنها قد تكدست وتخمرت
حقداً . ثم اختارت هذه اللحظة كي تنتش وتبدأ بالنمو . أخذ الزبائن
يهيئون من أمامها الآن ، واحداً في إثر واحد ، ليسددوا قيمة الوجبة
نومقدارها فرائكان و نصف ، فكلهم في هذا المساء يدفعون . وليس هناك
من حسابات للتدقيق أو كلمات يجري تبادلها . كل ما عليها أن تبقى

ساكنة تصفي لوقع القطع النقدية على رخام المكتب وهي تتكدس بين وعاء الأزهار الفارغ والدفتري المغلق .

اندفع الدم الى وجهها مثل موجة من الغضب ، وأحسست به وهو يخفق تحت بشرتها ، في عنقها وحول أذنيها ، كأنما لحشها على الدخول في معركة والدفاع عن نفسها . ومع ذلك فقد ظلت صامتة ساكنة . كانت ترى الى القطع النقدية وهي تتدحرج فوق المكتب ، من غير أن تقوى يدها على التحرك ، أو يقدر فمها أن يفتح . أما تلك الوجوه الماكرة أو الساخرة التي نمر من أمامها ، فهي لم تكن لتراها . فاختلط كل ما هو واقع تحت ناظريها وغرق وسط ظلمة متعاضمة تتراقص فيها الشريا . وشعرت أن كل واحد من أولئك الرجال يلبث أمامها ساعة يزديها .

وبدؤوا ينصرفون . سمعهم يتمنون لها ليلة سعيدة من غير أن ترد عليهم .

أما وقد دقت ساعة الحائط فوق رأسها معلنة التاسعة فقد أمسكت بدفترها بحركة آلية ووضعت داخل أحد الدروج . كان النادل يطفىء الأنوار . فنهضت وغادرت القاعة بالمشية المترنة التي علمتها إياها الشيخوخة . أما حين بلغت أول الدرج فقد وضعت نظارتها ، وشرعت ترتقي الدرجات ، وكل واحدة تثن من وطء حذاءها الواسع . كان مصباح غازي مضاء في الطابق الأخير ، ينشر شيئاً من الضياء فوق رأسها وكتفها ، ليعكس على الجدار ظلاً هائلاً ، وباهتاً فيبدو كأنه يمازحها مزاحاً مشؤوماً .

كانت تصعد دونما استعجال فتلهث قليلاً ، وهي حريصة على التثبيت من وضع قدمها فوق الدرجة التالية . وحين بلغت الطابق الأول وصارت أمام باب أنجيل ، توقفت كأن إلهاماً مباغتاً قد جاءها ، ودقت الباب بقبضتها دقة قوية . ولم يأتها الجواب بسرعة على نحو

ما كانت تريد . قد تكون أنجيل نائمة . فدقت من جديد . فجاءها صوت :

— ما هذا ؟

فقالت مدام لوند وهي تفتح الباب :

— أنجيل ، أنت هنا ؟

— بلى . — فقالت المعلمة بجذل كاذب :

— لقد سَوَّيت الأمور يا بنيتي ، وقرر هؤلاء السادة أن يقبلوا بك على ما أنت عليه .

بوسعك غداً أن تخرجي . هل تسمعينني ؟

— أجل يا خالتي .

— هيا إذن . طابت ليلتك . نوماً هنيئاً ، يا صغيري .

* * *

- ٥ -

انقضت قرابة ساعة وهدام غروج وجرج واقفة على الطريق، تفكر في الانصراف من غير أن تتوصل إلى اتخاذ قرارها رغم أنها فقدت كل أمل تقريباً . كانت نريخف بتسدة وهي ترتدي معطفاً من فرو القضاعة أما يداها فمنجهدتان داخل كميهما . فالتلج قد تساقط طوال النهار وبدأ الطريق الأبيض وهو يضيئ شيئاً من البهاء على ظلمة الليل.

لم يأت من أحد . ولم يكن ذلك مفاجأة لها . فمنذ ساعات النهار الأولى وهي تقول في نفسها إن من المبعث لها أن تقف على قارعة الطريق، تنتظر قدوم رجل تلاحقه الشرطة ، وقد جاء مخاطراً بحريته وربما بحياته ، تلبية لرغبة امرأة لا يحبها . إذ لم تكن تساورها من أوهام حول ما في نفس غريبه من مساعر نحوها . وهي تتذكر بكل وضوح نظرات السخط التي لمحتها في عينيه مرات عديدة . وتعلم حق العلم أنها في نظر تلك النفس المستعبدة تمثل الغنى وكل ما يصحبه من أوزار . إلا أنها سمضي رغم ذلك لتقف في المكان الذي حددته . وعبثاً يقول لها عقلها إنها ستضيع وقتها سدى . لكن متى كان العقل سيد الموقف في ساعات الحياة الحاسمة ؟

هذا ، وكل ساعة إضافية تمضيها داخل البيت ، تعني مزيداً من الغم ونفاد الصبر والاشمئزاز ، حتى لتوشك أن تفقد صوابها . فكلما تفكرت في نظام الأشياء الذي لم تقبل به ، وكيف حدد لها مكاناً خاصاً بين تلك الجدران وقطع الأثاث والتحف ، استبدت بها سورة من الغضب ، تزداد عنفاً مع معرفتها الأكيدة ، أن كل تمرد ليس وراءه

- ٢٢٨ -

من طائل . ولم يكن التعمود مجديا . فهو لم يروضاها . ولا تزال بعد
سنتين عديدة من الزواج ، أشبه ما تكون بوحش لم يستطع الإذعان
لوقوعه في الفخ . وظل يدفع برأسه المدعور قضبان الففص ، كأن
عليها أن تنفرج ذات يوم بمعجزة .

كانت قد خرجت في البسوم السابق دون أن تدري أين وجهتها
فضربت في البرية وهامت لتبلغ أحيانا حد البكاء إعباء ، ولتحملها أحيانا
أخرى فكرة سعادة محزنة ، فد يخبئها لها الغد كإحدى العجائب .
فتودع نقتها كلها ، بسادجة طفلة ، في مستقبل قوري ، رغم أن هذا
المستقبل يكذب يومياً وعود الأمس . فتفقر كل شيء للقدر المسؤول عن
ماضي بلا بهجة ، وحاضر كله تعاسة ، على أن يدع لها ذلك الأيمان
المحموم الذي يعمل على تناقل الأيام فسلم الأحد للآتين ، والآتين
للثلاثاء ، وهكذا دواليك إلى أن يأتي يوم يضعونها فيه داخل تابوت
أسود ، ويحكمون الإغلاق عليها ، وعلى الأطوار الشاذة قلبها التعيس .

رجعت منهكة من لعب رمى بها فوق سريرها من غير أن يمنحها
النوم . فأعصابها المتوتره نأبى الاسترخاء . وصمت الليل ملئاً بشكال
الحفيف . والظلمة الحانكة تخترقها بقع كبيرة نسع ضياء فتعجز
أجفانها المغلقة عن حمايتها منها . فامب أخيراً فأضاءت المصباح وجلست
قرب النافذة ، على أمل أن ترى السماء من دقيقة لأخرى ، وقد بدأت
تنجلي من وراء أشجار الحديقة . ودخلت في صراع مع نفسها فصارت
تؤخر لحظة النظر إلى ساعتها . وتمني النفس بوقت يتقدم ساعة عما
كانت تخمنه فتسعددها المفاجأة . ثم أبعدتها الإحساس بالبرد عن
موقعها ، فمادت إلى دفع السرير ، وأطفأت المصباح . وأخذت تضد
حتى مثنتين . ثم اشتعلت عود نقاب لتجد ، وهي تتنهد خائبة ، أنها
قد أخطأت بساعة كاملة ، وأن وقت العناء مازال أمامها طويلاً لا ينتهي .

باغتتها الفجر وهي بكامل ملابسها ، وافقة عند النافذة ، شاححة
الوجه ، غائرة العينين . فمل تلك اللبالي تقودها نحو النسيخوخة

بأسرع مما يفعله الإعلان عن مصيبة كبرى . أما الآن وهي ترى النجوم قد بدأت بالأفول في أعماق السماء ، وترى الدرب وهو يتراءى من وسط الظلمة ، فقد أخذت تسترد شجاعتها شيئاً فشيئاً ، كأن داخل ذاتها يطلع النهار . رأت نفسها كأنها قطعت فراسخ عديدة وأنها أضحت عند نهاية مرحلة شاقة . بفى أمامها عبور فترة صباحية وفترة مساءية . لكن الدرب غدا أقل وعورة . وهناك ألف تسلية تقلل من طوله . بيد أن أياماً من مثل ذلك اليوم كانت تجعلها تشعر بفراغ وجودها . فمن بعد أن تصدر الأوامر المعهودة للخدم ، وتفتح كتاباً ثم تفلقه ، وتحلل بترائح رموز صفحة من الموسيقى ، تكون قد استنفدت كل ما في جعبتها ، لتفوص من بعد في لجة ذلك السأم الرهيب الذي يعتبر لعنة الأغنياء . لقد تلاشى أول أمل للصباح : فبعد أن تمتت بزوغ ذلك البهاء الذي تعاضم تدريجياً من فوق رؤوس أشجار الزيزفون ، أضحت الآن لا تني تتلف على قدوم الليل ، ليلفها بوشاحه من جديد . ويا لعذابها وهي تجد نفسها مرغمة على متابعة الساعات في رحيلها الذي لا ينتهي ، بينما كل ما فيها يشب ويود الانطلاق .

انفضت فترة الضحى بطيئة ثقيلة الحركة . وراودت ايها غروجور نفسها مرات عديدة بأن تخرج للتجول ، لكنها كانت تعرف كيف ستكون في حالة مهلهلة حين تعود ، إذا ما خطت خطوة خارج الدار . فهي سوف تمضي بعيداً ، وتستنفد كل القوى التي ستكون في أمس الحاجة اليها بعد الظهيرة ، حين يتوجب عليها أن تكبح جماح نفسها ، وتسير على الطريق بتمهل في الاتجاه الأول ، ثم في الاتجاه الآخر ، وهي تنتظر رجلاً لن يأتي . لأنها كانت على يقين من أنه لن يأتي . لكنها ظلت راغبة في أن تثبت لها الوقائع أنها على حق ، حين لا تعلق على الأشياء أي أمل . وقد تجد من بعد شيئاً من الراحة ، حتى وهي تفكر بأن الحدث الذي تمنته بكل شغف لن يقع . ومن شأن ذلك أن يضع حداً للاضطراب الذي استولى عليها منذ أن رأت غريبه . وسوف تستأنف حياتها ، التي تستتت لحظة ، وتحول لحظة عن خط سيرها الاعتيادي ، نفس

المجرى الذي تسلكه منذ عشرين عاما . وقد يكون ذلك أفضل ، بل أي شيء أفضل من ذلك الغم وذلك الخفقان في القلب وذلك التناوب ما بين الفرح والقلق .

كم يتنق عليها أن يقول ما الذي نأمله من حديث يدور بينها وبين غيرهه . وكانت تحترز من التفكير في ذلك الامر طويلا ، بدافع من خوف متطير من أن يؤدي توقعها المسبق الى منع الاشياء من أن تحصل . وكما لاحظت من مرة أن المستقبل يتغير مظهره دوما حين يتحول الى حاضر ، أما بعبء يقصر دون ما كان يؤمل منه ، وأما بالوقوع في خطأ حول نوعية السعادة المرجوة . وتكون الحصلة كومة من الاشياء البائسة بدلا لما قام الخيال بنسجه . ليس من الحكمة اذن الالتزام الكلي بالصمت ، وقبول ما تحمله الساعات في طياتها من سام أو متعة بكل طاعة ، دون التصرف مطلقا بسام الغد ومتعته ؟

يبدو أن القبول متعذر عليها . فالقبول يعني الموت . فكان يستحيل عليها مثلا أن ترضخ للمحنة اليومية المتمثلة في تناول وجبات الطعام مع زوجها . فهذا الزوج هو الاصل في كل ما تحمله للكائنات من ازدياء وهي تبفضه بغضا مهر قلبها وهيمن على حواسها . فالاضطراب قائم في رأسها حصرا . حتى أنها لم تستوعب تلك الاغراءات التي لم يخضع لها جسدها . وكان أن اعطتها العفة بمارها وهي في الخامسة والاربعين من العمر ، فحملت اليها هديتها المفزعة المتمثلة في عشق متأخر لا طائل وراءه . وأضحى الفكر لدى هذه المرأة التي اساء قدرها معاملتها ، يثار من كل ماعداه .

كان المسيو غروجورج يمثل في نظرها صورة الشراة البسرية في أحط شكل لها . فكل حركة من حركاته ، وكل تأمة تصدر عنه ، تشير وتغذي في نفسها مقاما متزايدا ابدا . فذلك الوجه الممتلئ الذي يضج سعادة ، وذلك الجسد السمين الذي لم يعبأ بالمرض قط ، والذي ارتعته الحياة بملذاتها ، لا يستخدمهما القدر حسبما يتراءى لها الا

للاستهزاء بها وبعذابها ، بها وبالجوع المتصاعد الى رأسها ليسبب لها
الدواز .

كلما تفكرت فيما كان مهيا لحياتها أن تكونه ، وهي تتذكر كيف
جاءها شاب وسيم ذات يوم ، من بعد زواجها بوقت قصير ، فارتمى
مولها عند قدميها . وكيف صدته بدافع هو مزيج من الفزع والنزاهة
في آن معاً ، وهي تفرق في الضحك ، أحست أن لديها القدرة على قتل
ذلك الهرم الذي اغتصب منها شبابها ، وقضى الى الابد على مذاق النشوة
الوحيد . وبينما كانت ذاكرتها تستعيد بدقة تفاصيل متهدد لن تنساه
أبداً ، كانت تتساءل بمرارة ، وهي على بعد عشرين عاماً ، من كان
أكثر مدعاة للضحك : شاب راكع أمامها ، أم هي التي صدت الهوى
وقامت الآن تناديه وقد أمست على أعتاب الشيخوخة ؟

لم حاق بها ذلك الظلم كله ؟ وهل تعاني النساء الاخريات
ويشقين مثلها ؟ وما فائدة الثروة والجمال ان كانت ستبقى محرومة
من السعادة ؟ لقد اكتشفت أخيراً ان الذي مقتته وازدرته ، أن الحب
اياها قد اشتتهته طوال حياتها . لو انها عرفت ، لو أن أحداً قال لها ،
لو أن أحداً قام بأصغر عمل بر وإحسان نحو مصبرها ، لكان بوسعها
أن تتذوق السعادة ، ولكانت في وضع أفضل على كل حال . أما عن
فسوة قلبها فهي تعرف الحركة بل النظرة التي تسببت في ذلك .
وتعرف أن هذه الكلمة فعلت في نفسها ما لا يفعله العنف الذي تشعر
نحوه بالهول . لقد كرهت الطفل ، كمره لحالات القهر التي تعرضت
لها ، منذ اللحظة التي أحسب به يتحرك داخل أحشائها ، ورافق حقدتها
عليه سني طفولته الاولى ، فكانت تمنلىء نفسها وهي تعاقبه بلذة
النار اللام التي أصابته من ولادته ، وأدامت نعيقه حتى جعلت منه
عبداً صغيراً ينوء تحت نير الخوف ، وقلبه ممتلىء ضغينة . كانت
متحجرة العاطفة وما كانت لتجبل ذلك ، الا أنها لم تكن قادرة على
الاحساس بما يمكن لمنل هذه المعرفة بالذات أن تسببه من تأنيب .

الضمير لدى امرأة أخرى ، ولديها على كل حال من الاعذار ما يكفي لتبرير موقفها ، في نظرها هي على الأقل - لأنها بطبيعتها أشبه ما تكون بأرض قاحلة وعصية ، لم تهبط السماء نعمة الغيث ، فلا تخرج من نبات الا ومعه عشب سام يمتزج به على نحو ما - فالمشاعر الأكثر بساطة تنحرف عن مسارها - وكل بهجة تسمي متبوهة ، وكل حنان يتسرب اليه الفساد من منبعه - كانت في انفصامها عن كل نعميات العالم لا بدافع من فضيلة ، بل لان تعاستها تحول دون تمتعها بها - رغم استهجانها لفكرة سعادة لا يكون للحواس فيها من نصيب - تستهلك قوتها وحياتها وسط الصحالة ، وتسعى ، وهي تأكل بعضها وراء سكينه تأبى أن تفيئها بظلها .

يسبغ لمس اعماق البأس على النفس ارتياحا غريبا ، ويمنح النقاء الاقصى نوعا من الطمأنينة . فيغدو ميناء نعمى للروح الفريقة التي لم بعد تجرؤ على الايمان . ومنل هذه الاستغاة الاخلاقية هي الملاذ الأكثر أمنا ، ومثل ذلك الاستسلام هو الراحة . ليست من أجل هذا تتجول على الطريق وقد تجمدت أطرافها على الرغم مما يغطي جسدها من فراء ، وهي في لهفة لبلوغ السابعة التي سننقلها من اضطرابها وبعيدها الى يقين مصرها ؟

أما الآن وقد حل الليل وذنبت اللحظة الموعودة ، فما نفع هذه الدموع التي تسيل على خديها ، وتلك التنهيدة الخفيفة الموجهة التي حرصت على خنقها داخل كميها ؟ كانت أنانية وقاسية لكنها جريئة على الأقل . وقد تستسلم لما تخلفه تلك الانفعالات من تعب . سوف نعود بعد هنيهة الى بيتها وتصدر الى الصالة . فتخلع معطفها بحركة هادئة ، وتزيد النار وقودا . ثم تجلس فتقرأ أو تعزف على البيانو الى أن يأتي من يقول لها ان العشاء جاهز .

نظرت الى ساعتها . انها السابعة وعشر دقائق ، بل السابعة والرربع تقريبا . المسألة واضحة . لن يأتي . لقد ساوره الخوف وهذا امر طبيعي وانتظرت ايضا دقيقتين أو ثلاث ، كنوع من تبرئة الذمة ، ثم توجهت نحو الدارة .

سمعت على الفور تقريبا قرع الجرس الذي يعلن عن الزيارات : كان أحدهم عند الباب الحديدي المشبك ، وقد قرع الجرس لتوه .



- ٦ -

- هذه انتِ ! ماذا تفعلين هنا يا أنجيل ؟
- يا الهي ، لقد أخافتني سيدتي !
- من الذي تودين رؤيته ؟
- جئت اطلب عملا من سيدتي .
- يا لهذا النبا ، اقد فرونا^(١) أخيرا أن نعود الى العمل ! لكن لا تختبئي على هذا النحو يا ابنتي . يبدو لي أنك كنت أكثر وقاحة فيما مضى ، اليس كذلك ؟
- كلا ، يا سيدتي .
- بلى ، يا سيدتي . أي نوع من الاعمال تطلبين ؟
- أي نوع كان ، يا سديني ، شيئا من الخياطة .
- ألا تريدان إذن أن تعودا الى المصبغة ؟ صحيح أننا^(١) رأينا اسمنا مطبوعاً في الصحف ، فلا يسعنا أن نتواضع من بعد الى مستوى إيصال الغسيل الى الزبائن في المدينة ، اليس كذلك ؟
- لعل سيدتي تتحلّى بالشفقة .

١ — هذه المصبغة في الكلام تعني الاستهزاء والازدراء . (م)

— الشفقة ! لا ينقصني إلا أن تعطيني درساً في الاخلاق ! بل قد تحسبن أنني لم أكن مطلعة على ما كان يجري هنا في بيتي .

ثم سمعت وقع خطى خادم جاء ليرد على قرع الجرس ويفتح الباب فصاحت به بلهجة جافة :

— لا داعي لأن تفتح ، يا جان . قل لسيدك أنني سأتخلف بضع دقائق عن موعد العشاء .

نوقف الخطى وعادت أدراجها . فاستدارت هي نحو أنجيل بنوع من النهم الذي يظهر على وحش أمامه فريسة . وتحركت في داخلها على نحو مباغت ، طاقة جديدة لرؤية الفتاة التي أحبها غريه ، فلاحفها وضربها . ويا لتسقيتها ، وهي نصب بدورها كل حقد لها ، على رأس تلك المرأة المهانة ، وتثار من كل ذلك الحب الذي كان موجهاً إليها !

— لم أعد أسمح بدخول أيّ امرئ كان إلى بيتي ، كما ترين . لقد تفاضيت أكثر مما ينبغي عن السفاهات التي كانت ترنكب تحت سقفي . لكن تفضلتي الآن وارفعي هذا الخمار الذي يغطي وجهك ، ثم انظري إليّ نظرة مباشرة .

— لا أستطيع ، يا سيدتي .

— لا تستطيعين التحديق في وجهي ؟ لا أستغرب ذلك . سوف تقومين ، على كل حال ، بالكشف عن وجهك . وإلا فسوف أدخل واحظر عليك دخول بيتي من بعد .

— ليت سيدتي تصغي إليّ لحظة . فقد جئت لأتحدث إليها في ذلك الشأن بالضبط . وسوف تدرك سيدتي وهي تراني أنني لم أعد بقادرة على الظهور علناً . لذا كنت راغبة في أن أطلب من سيدتي . . .

— هيا ، قولي . ما حقيقة الأمر ؟

— لم أعد أستطيع العيش هنا . يجب أن أرحل عن لورج .
سأذهب الى أي مكان ، حتى الى باريس . النبي شقية الى أبعد
حدود الشقاء .

— يا لها من فكرة . لكنّ الناس كلّهم تعساء . ولو كان على المرء
أن يرحل كلّما وجد نفسه تقيساً ، لحققت شركات السكك الحديدية
تروات طائلة . انت ما زلت طفلة . هيا انزعي هذا الخمار ، وتعودي
منذ الآن على لظهور في الشارع . سوف تنسين كلّ هذا في
فضون أسبوع .

— ذلك أن لديّ حاجة يستحيل أن أطلبها من سيدتي .

— لا بأس . هيا ، قولي بسرعة .

— لو تكرّمت سيدتي وافرضتني شيئاً من المال .

— شيئاً من المال ؟ وما حاجتك به ؟

— من أجل أن أرحل .

— لقد تلبّستك الفكرة . قلت لي قبل قليل إنك جئت تطالبين
عملاً . كنت إذن تكذّبين ؟ من هو الذي جئت ترينه هنا ؟ أنا أم المسيو
غروجورج ؟ إنني أنذرك بأن نقولي الحقيقة من أجل مصلحتك .

— لكنّ سيدتي لن تضنّ عني .

— إتما جئت إذن لرؤية المسيو غروجورج ، من أجل أن تبتزّي
منه شيئاً من المال . . . أنا واثقة من ذلك . وكنت تثوين أن تنفّجني
أمامه ، مثلما كنت تفعلين من قبل ، أليس كذلك ؟

— إئتني أقسم لسيدتي ...

— أستنتج إذن أنه ما يزال لديك شيء من الحسن الذي كنت
تباهين به كثيراً . هينا نرَ ذلك .

— هل يعني على الأقل أن أعقد الأمل على أن سيدتي سوف
تتكرّم وتساعدني ؟

— إنها مساومة ؟ هذا مستحيل ! فيما أن تطيعيني وترفعني هذا
الخمير على الفور ، أو نفترق منذ اللحظة . واحظر عليك في هذه الحال
أن تقرعي على هذا الباب من بعد . أمّا عن المعونة التي تطلبينها فسوف
نرى . فانا لا أعدك بشيء .

— إئتني مستعدة لأن أطيع سيدتي .

— لا بأس . هينا ، حلّي عقدة هذا الخمار .

— هذا ما أفعله . هاك .

— لكنني لا أرى شيئاً . لا شيء أبداً . هلمتي نحو ذلك المصباح .

— لو تجرات قليلاً لطرحت سؤالاً على سيدتي ... لم هي راغبة
في رؤيتي ؟

— لم أمتد على أن يستجوبني أحد ، يا ابنتي .

— ذلك أئتني أتساءل ما إذا كانت سيدتي ستصاب ... بالفزع .

— أنت تحسبينني امرأة هشة . لو كانت حدود مصائبي تتوقف
عند الأثر الذي تخلّفه ضربة عصا على الوجه ، لكنت راضية عن الحياة
على نحو مغاير .

— قد تتذكر سيدتي أن لون بشرتي كان متورداً دوماً ، لذا فإن الندوب تظهر بشكل واضح في مثل هذه الساعة من المساء . فالضربات انتزعت حاجباً بكامله .

— لا تطيلي الحديث وارفعي رأسك . هل نويت أن تطيعيني أم لا ؟ أحذرك من أنني أزدري الدموع . هيا ، ارفعي رأسك وانظري الى المصباح . طيب ... لقد رأيت . إن الوضع أقل بشاعة مما كنت أحسب . فالتناس يغالون كثيراً ! ما من شك في أن التأديب قد نفلته يد حازمة . فبعد عدة سنوات من حياة الفجور ترتبت عليك ديون ، وكان لا بد من تسديدها ، يا ابنتي .

— هل تعتقد سيدتي أن هذه الندوب سوف تنتهي بالزوال ؟

— كلا .

— كلا !

— ما بك ؟ يبدو أنني أرميك بطلقة الرحمة . كنت تمنين النفس بزوال كل ذلك ؟ دعيني أوجه إليك نصيحة مفيدة : لا تأمل شيئا ، لا تأمل أبداً . كنت مثلك ساذجة ، قبل وقت قصير . أما الآن فقد شفيت .

— لكن سيدتي تدرك أنه لم يعد يسعني الظهور في لورج وأنا في هذا الحال .

— ولم ذلك ؟ غطي رأسك إن كنت لا تريدين أن تصابي بالبرد . ينبغي ألا تبقى هنا . وعلي أن أدخل الى البيت .

— لم يكن في حساباني أن أقترض مبلغاً كبيراً من سيدتي . مئة فرنك على أبعد تقدير .

— لا ينبغي أن نعود إلى هذا الموضوع . هل لديك شيء آخر
تطلبينه مني ؟

— سوف أكون شديدة الامتنان لسيدتي .

— لسبب حاجة لامتنانك .

— ليت سيدتي تسمح لي على الأقل بأن أطلب من سيدتي .

— من سيدك ! لقد طفق الكيل ! لا بد أن تكوني قد فقدت صوابك .
فالسيد أولاً ! ان يرضى بأن ينظر إليك ، ووجهك على ما هو عليه .
فالسيد لا يعرف الشفقة .

— سيدتي طيب جداً .

— يا غبيّة ! هل نحسب أنك تبهجينى بفولك ذلك ؟ لبس في
قلب السيد من المروءة أكثر مما في قلب هذا الباب . وأنت التي جعلته
هذه الحال ، أنت وأمثالك . آه ! لا أقصد أنك أنت التي تسبب في
كل ذلك ، فقد بدأ في الواقع من قبل أن تولدي . على كل حال .
طاب مساءوك .

— يا سيدتي !

لا تلمسيني ، أرجوك .

— أتوسل إلى سيدتي أن تصفح عني . لقد أسأت إلى سيدتي
فيما مضى ، وأنا أعرف ذلك ، لكن إذا لم توافق سيدتي على معونتي
فسوف أقتل نفسي .

— طيب ، هيا ، إنها الأغنية الأبدية التي يكررها ذوو النفوس
الضعيفة . أنت إذن تعيش إلى هذه الدرجة ؟

— ليس لدى سيدتي ابنة فكرة عن ذلك ، فمند شهوور وأنا أشعر
أنني سأفقد صوابي .

— إنني اتساءل حول حقك في كسب عطفي . لكنني أوافق على أن
افكر في وضعك ، لأبرهن لك على أنني أقل مسوء مما يحسب بعضهم .
سوف أرى . غداً سيأبون لأخذ غسلنا . وسوف أبلغك شيئاً بواسطة
الصغيرة فرناند .

— آه ، يا سيدتي !

— كلا ، دعي يدي . قلت لك إنني لا أريد أن تلمسيني . لكن
لا تعلقني على الأمر آمالاً عريضة جداً . وتذكري نصيحتي .

— أجل ، يا سيدني .

مررت لحظة من الصمت ، بدت مدام غروج مترددة أثناءها ،
فقد وضعت يدها على قبضة الباب ، لكنها سألت على نحو مباغت :

— لكن ، فولي ، لم تلم تساعدي الشرطة في تحرياتها ؟ فانت مصرّة
على القول إن الذي اعتدى عليك ليس غيره ، في حين أن عدة أشخاص
قد رأوكما معاً على الطريق . أجيبي . وإذا كنت راغبة في أن أهتم
بوضعك فينبغي أن تخبريني بالحقيقة .

— ليس غيره .

— من هو إذن ؟

— لا أدري ، ولم أره . فقد ضربني من خلفي فغبت عن الوعي .

— وأولئك الشهود ؟

— الشهود يكذبون .

— لكن هيا ! فكري ، يا ابنتي . هناك مكافأة بانتظارك ، إن قلب لي الحقيقة . وإلا فسوف نفترق على الفور ، عليك بعدئذ أن تفقدي كل أمل في استدرار عطفى أو حتى في دخول بيتي . لماذا لم ترغبي في الإبلاغ عن الذي امتدى عليك ؟

— هل يسعى أن أتأكد من أن سيدتي لن تقول ذلك لأحد ؟

— ومن بحسبيني ؟ وهل تريننى أشبه من يتي بسر ؟

— طيب ، لم أبلغ عنه لأنني كنت خائفة من انتقامه . وحتى لو ألقوا القبض عليه فإن بعض السجناء يهربون . فهل من ضمن لي عدم عودته الى هنا لكي يقتلني ؟

— آه ، آه ، آه !

— يا إلهي ، هل تجد سيدتي الأمر مضحكاً جداً ؟

— أجل ، فخوفك هو الذي يضحكني . وليس من شأنه أن يرفع من قيمتك في نظري ، لكنك لست مختلفة عن الأخريات . وعلى هذا الأساس ، فإنه غيريه إذن ؟

— أتوسل الى سيدتي ألا تكرر ذلك .

— لا تخشي شيئاً .

— هل يسعى أن أمل بأن سيدتي ستذكرني ، وأن فرناند سوف تحمل إليّ جواباً حسناً ؟

— سوف أفي بوعدى .

— سيدتي طيبة جداً .

— سببتك مستقيمة ، لا أكثر ولا أقل . أما الآن ، فطاب مساؤك .

— طاب مساؤك ، يا سيدتي .

- ٧ -

أصغت لوقع خطى مدام غروجورج وهي تسلك ممسكى الحديقة الرئيس ، ثم انتظرت هنبهة أمام الشبك الحديدي وكأنها تعتقد أن تلك المرأة القاسية الصلفة سوف تطل بعد نوان معدودات ويدها ملايان بالاوراق النقدية . وهبت ريح صرصر فعقدت أطراف الوشاح الأسود الذي يلف رأسها تحب ذقنها وأستأنفت سيرها نحو المدينة .

قال في نفسها : « لم أش به . الكل يخمن أنه هو الذى هاجمني ، لكنها وعدتني بالا تقول لأحد . »

ومهما تكن درجة ما تكنه من حقد على مدام غروجورج في واقع الأمر ، فإنها تتبين في طبيعتها الباردة والمنيفة ، نفورا من الفدر يبعث الطمانينة في نفسها . لكنها شعرت بالغبطة من ناحية أخرى لأنها لم تقل لها الحقيقة بكافة جوانبها ، ولأنها سكتت عن الأسباب التي منعتها من الإبلاغ عن المعتدى . وهل في العالم روح واحدة قادرة على أن تفهمها ؟ وما همها إن اعتبرتها مدام غروجورج خوافة ؟ بوسع تلك المرأة الفنية الوقحة أن ترغمها على الاجابة عن طريق التهديد بحرمانها من المساعدة ، لكنها غير قادرة مع كل ما تملكه من ذهب على أن تنتزع منها السر الذي تخبئه في صدرها . فانتابها ، رغم اليأس ، شعور بأنها خيبت أمل عدوتها ، فحقق قلبها طربا .

لا ريب في انها قصدت لأن تقابل المسيو غروجورج . كان في نيتها أن ترتمي على قدميه وأن تقبل يده الكريهة . لم يبد لها أي هوان صعبا جدا أمام ضرورة حصولها على المال من أجل أن تهرب فصرها قد نقد في

ذلك المساء . لقد عاشت كل حياتها في لورج . أما الآن فلم تعد تجد في نفسها الفدرة على العيش فيها يوما واحدا . وبدأت تعد الساعات على نحو ما يفعل المرء قبيل سفره وتنزعج من بطء الوقت . من غير المجدي ان تتفكر في مشاريع المستقبل ، فهمها الاساسي ينحصر في مغادرة هذا المكان . لان كل حجر فيه وكل وجه ، يذكرها بمصيبتها . كان بمقدورها ان تفعل اى شيء من أجل ان ترتحل . لقد وعدت مدام لوند بأنها ستستأنف حياتها السابقة . وكانت على استعداد لان تعفر جبينها امامها لو كان ذلك قمين بأن يؤمن لها المبلغ اللازم . فكل ما فعلته الشهور الثلاثة التي امضتها منحوسة في غرفتها ، أنها هدهدت مخاوفها . لقد بقى لديها شيء من الأمل ، طوال بقائها معتكفة بين سريرها ونافضتها ، واذا لم يكن أملا في شفاء تام ، ورؤية وجهها يستعيد حسنه الأولي ، ففد كان على الأقل أملا في ان تكون مبالغة في خوفها من دماستها ، وأن تظل بروق لأعين الناظرين . لذا لجأت رغم ما تحمله الأيام الفارغة من سأم ، الى تأجيل لحظة خروجها حتى الحد النهائي . فتلك هي الوسيلة الوحيدة للحفاظ على وهم هي بحاجة اليه من أجل ان تعيش . وما كانت لتقرر ان تضعه قيد التجربة عن طريق جولة في وضح النهار . لان مرآتها ما كانت لتطمئنها . فاللحم المدمى انفلق من غير أن ترضى الندوب البصاء بالتلاشي . ورغم ان الفسومات لم تتغير فان الحسن فد هجرها . وما الجمال إلا آية يمكن لأي شيء أن يبددها ، ولا ينبغي للمرء ان يتأمله إلا عن بعد . إنه يزول على نحو يصعب تفسيره ، على نحو ما يصعب تفسير وجوده نفسه . ولا يمسه الانسان الا بيد تدنسه . ولقد هرب من وجه أنجيل على نحو ما يهرب من مكان رجس .

نبئت الفتاة الحقيقة . فعبثا منت نفسها بأن أنفها وفمها على حالهما ، وأن الندوب لم تكن عميقة ، لأنها لم تعد تتعرف على حالها . فالوجه الجديد كان بيت في نفسها الفرع كلما رأت في المرآة نظراته القلقة الهرمة . فهل كانت تفرع الآخرين أيضا؟ لقد اعتقدت ذلك بادئ الأمر .

نم ما لبثت أن تمثلت ، تحت تأثير ما أصابها من وهن ، فكرة غريبة تقول إنها قد أخطأت التقدير وإن عزلتها جعلتها ترى الأشياء على نحو مغلوط . وقالت في نفسها إن المرء إذا أطل النظر الى نفسه في المرأة لا يعود يدري ما حقيقة شكله . كان بوسع مدام اوند أن تخبرها بحقيقة الأمر دون مواربة ، لكن من أين لها القوة لتتوجه الى عدوتها بالسؤال ، لتؤكد لها دمار حسننها ؟ ناهيك بأن مدام اوند ما كانت تتسر بأية رغبة في المساس بالخمار الرهيب الأسود الذي يحجب عنها وجه أنجيل ، مثلما يحجب وجه مصرها . فبالمصبتها إذا كان الضرر غير قابل للإصلاح ! لقد فضلت المعلمة مجانية عدم اليقين وقتا طويلا . لذا ترتب عليها أن تستنفد كل مصادر الأمل ، حتى تعلن للفتاة أن أولئك السادة قد قبلوا بأخذها مع ما هي عليه .

ام بخلف ذلك النبأ في نفس أنجيل إلا أنها ضئلا . فقد اكتشفت منذ البداية أن المسألة كذبة ، كما أن موقف فرناند الصغيرة ، حين كشفت لها عن وجهها ، وفزعها وصمتها ودموعها ، قد انتزع منها كل شجاعة . لقد قرأت في عيني الطفلة ، ما باتت مرآتها عاجزة عن أن تقوله لها : إن شكلها لمرعب . لقد طلبت الى بنت صغيرة أن تعانقها . فامتقع لون تلك البنت الصغيرة ، وتراجعت من أمامها . بات عليها منذ الآن أن تتعود على أنها قد فقدت كل شيء . وبدأت حياة جديدة بالنسبة لها ، وهي حياة فتاة دميمة ؛ لكنها دميمة على نحو ينفر الحب . فهي لا تعتقد انها وقد أفزعت طفلة ، يمكن أن تستهوي رجلا . وأدركت في واقع الأمر ، رغم قلة ذكائها ، أن الرغبة تخضع لقوانين عامة تقريبا ، وأن مسادا في الحواس فقط يمكن أن يتيح لامرء ، أن يهوى وجهاً خلف عليه احد القتلة أنارا ظاهرة بمثل تلك الوحشية .

استعادت رباطة جأشها على أثر أزمة اليأس الأولى . فالشهور التي أمضتها في كفاح مع نفسها نبشت من عزميتها . وأفسحت لامبالاتها وفتوتها المجال ، أمام قناعة ملأى بمرارة ، تساعد على تحمل عبء

الايام . وغدت الآن تعرف بمسها على نحو افضل . فكل ما كانت تطلبه من عزلتها ، هو أن تكون في معزل عن الحقيقة . أما الآن فلم يعد ذلك ممكنا . لقد كسفت عن وجهها امام فرناند ، من أجل أن تعرف الأسوأ ، وتطرد من قلبها آخر الأوهام التي كانت متسببة بها . وكان ذلك نسكلا من أشكال التحرر . فما من شيء يعذب المرء ويستعبده ، مثل الأمل في سعادة أرضية . تبين لها ذلك بعد أسابيع طويلة فارغة ، يأتيها فيها كل نهار بالأحزان نفسها . تعلمت وهي قرب نافذة غرفتها العالية ، ورأسها ملفع بخمار ما عاد يفارقها ، كيف تطاوى كبرياءها ، وتخدم لهفة انتظارها . أما الساحة الصغيرة التي كانت تراقبها فيما مضى بعيون نهمة ، فلم تعد تثير فيها أي دافع فضولي ، ولم تعد تلقي نظرة عليها إلا فيما ندر . فهي تعرف أنسجارها المغروسة على شكل مثلث حق المعرفة . وتعرف الحجارة غير المتساوية والمقاعد الخشبية النخرة . وتوحي لها تلك المساحة المحدودة بختبة مسرح ، لا يقدم عليها من عرض أبدا .

كانت وهي منهكة شرقيع الملابس التي تكلفها بها مدام لوند ، ترخي العنان لفكرها ليسلك مساره الطبيعي . فتلك الروح التي اجتاحتها الحسرة على ما فقدت ، ظلت تعرف بهجة بعينها . وهي بجهة غريبة تعتادها أحيانا فتجعلها ترتعد هلما . إنها البهجة في أن ترى أي درك من العمق بلغ بها الانحطاط . هناك شيء كان يتنسب بها ، بل ويروق لها أحيانا ، وسط نزوة القدر المرعبة حيالها ، وفي مصيبتها المباشرة . وكانت تثوق طوبلا حيال فكرة التغير الذي شهدته يطرا على حباتها . فتقارن أسي حرمان الحاضر بأحلام الماضي الشهوانية . وتثوب من نم إلى رشدها على حين غرة ، فيجتأحها الألم اجتياح موجة عارمة . فإين هي ؟ وبم تفكر ؟ وماذا دهاها لتستلطف السناعة ؟ حينئذ تتراءى لها برودة الموت وقد هبطت على كتفها بمحتوتها من كل جانب .

كما تعتادها أحيانا أخرى أفكار مغايرة تماما ، تأتيها متدفقة مثلما تملأ الريح منزلا مفتوح النوافذ . فتنسى بفترة ، بفعل نغمة في ذاكرتها

المرهقة من استعادة الأشياء ذاتها على الدوام ، أنها أضحت مشوهة ويدوم ذلك عدة تواتر . فتجتأحها الرغبة في الحب مجددا ، ويتألق في عينيها غرورها الذي امتن طويلا . ويمنحها التوهم بحسنها شعورا بالغنى والسمو يختطفها من دنياها فنقع الحاجة التي تعمل بها من بين يديها . وترى نفسها ، وسط هذا النوع من الدوران ، معبودة ، ورجلا جاتيا أمامها .

ذلك الرجل هو غريه . وينراى لها على نحو ما شاهدته لأول مرة ، رجلا خجولا ، وذا صوت يسعى جاهدا لتلطيفه . وكلما نظرت إليه غض طرفه . لكنها تباعته من وقت لآخر ، وتعبير وحشي يعطو فسمائه حين يرفع جفنيه ، ليدهسها البريق الذي يسع في مقلتيه . ما كان بوسعها أن تقول ، إن كانت الغلبة للعدوبة أم للوحشية لدى ذلك الرجل لكنها كانت تعرف فقط أنها مسيطرة عليه ، وأنه يربعد وهو أمامها .

وتأتي نهاية تلك الهلوسة على نحو مباغت . فتجد الفتاة التمسعة نفسها في غرفتها . وتتأمل ، والهلع يستولى عليها ، المنتفة التي كانت ترفوها ، وترى ذيل خمارها ، وكل ما يشدها الى الوقت الراهن ، ويعبدها الى عذابها . فتجهد في احياء ذكرى ما فاض به قلبها من حقد ورعب ، وهي ترى ذراع غريه ترتفع لتهوئ على وجهها . لقد أصابها ما يتسبه الاغماء حتى من قبل أن يضربها ، بل انها اعتقدت ان الصرخات الصادرة عن حلقها ، كانت صادرة عن فتاة أخرى ، عن امرأة يغتالونها بالقرب منها ، فكان من المستحيل عليها أن تتخيل أن حياتها معرضة للخطر . لم يكن الموت يتهدهدها هي . بل كان يتهدد تلك المرأة التي تصرح ومع ذلك ، فياهاول ما اتابها وهي تسعر بقبضة ذلك الرجل تسمرها الى الأرض ! ويا للهلع الذي حملته معها تلك الصرخات المتواصلة الفزع ! الهبت الضربة الأولى وجهها من عينها اليسرى حتى شفتها . ونزف الدم حتى حلقها . ثم غابت عن الوعي ، وحين استفاقت بعد قليل أحسن بطعم مالح يلسع لسانها ، لكن ألما جسديا يفوق الاحتمال أعادها الى وعيها : كان ما ينسبه النار بسيل فوق وجهها . ويقطر الدم من رأسها

فيغطي ذراعيها وصدرها . لم يجزؤ واحد من كل المشاهدين ، الذين خفوا لدى سماعهم عويلها ، أن يمسه . واضطرت لأن تتوسل اليهم حتى يعيدوها الى بيتها .

كلائت تلك الذكريات تعتمر قلبها فتضع قبضنيها على أذنيها وتغمض عينيها كأنها تريد أن تطرد من دماغها صورة العذاب الذي تعرضت له ، لكن ذاكرتها المتصلبة ، ما كانت تتساهل معها في بعض اللحظات الا لتقسو عليها في لحظات أخرى . حتى أن الشقبة لم تكن لتتوصل الى استبعاد تلك الرؤيا للدموع التي تدرفها وهي تستعيد ذلك الماضي !

تذكرت ليلة غريبة أمضتها في غمرة ابتهاج عميق . كان ذلك على أثر نزاعها مع مدام لوند . وقد قررت أن لا تعود الى غرفتها في ذلك المساء بل أن تتجه لتنام عند إحدى صديقاتها في شانتيليا . وحرصت على عدم اعلام أحد بالامر ، حتى أنها قامت بهروب . انها تريد الهروب . تريد أن تهرب من مدام لوند والمطعم ، وألئك الزبائن الذين يتنازعونها فيما بينهم . لم يكن في ذهنها آنذاك سوى هذه الفكرة . وتستعيد حالها وهي متكئة على نافذة تطل على جادة البريست . كانت الليلة معتمة هبت فيها الريح . وأخذت حبات المطر تتساقط من وقت لآخر فوق شعرها وزنديتها العاريين . اما الحجرة التي أعطيت لها فكانت من ورائها تطفح بالنور . ام يكن السرير والمنضدة والكزسيان ملكا لها لتذكرها بتيء ما . اما في غرفتها فكل شيء يوحي بالقهر والسأم . أنها هنا حرة . والهواء الذي يداعب محياها ليس نفس الهواء الذي يحرك الاوراق الجافة فوق الساحة الصغيرة ، أمام مطعم لوند . كانت سعيدة فهناك رجل مدله بحبها . وكانت على يقين ، من غير أن تعرف أين هو أو ماذا يفعل ، من أنه يفكر فيها وأنه يتألم بسببها . وكان ذلك يروق لها ملما تروق الشمس للنبته . صحيح أنه لم يكن ينسب المثل الأعلى الذي نسجته أحلامها ، في شيء ، الا أنها كانت تجد من ناحية أخرى كل مشقة في صد متعة الشعور بأنها معشوقة ، فتمنى لو يستمر

ذلك ، وتود أن لا يعرف ذلك الرجل شيئاً عن مغامراتها العديدة مع الآخرين ابداً . ولم يكن في نيتها أن تستسلم له يوماً ، لكنها بدأت تستعذب ذلك الحنان الملبث الذي تلمسته لديه . وتدرج جيداً أن تصرف غريبه سيكون مختلفاً جداً أو اكتشف ما كانت تحاول اخفائه عنه . وغالباً ما تردّد صوته الاجس في ذاكرتها وسمعت كلماته المألّى بالضبط ، وكل ما كان واقعاً خارج نطاق جسده المخلع ووجه الخالي من أية ملاحظة ويديه التقبلتين . لم تكن تنظر إليه حين تلقاه . كانت فقط تصغي إليه وهو يتكلم ، وتنساق على غير ذراية منها نحو ذكرى وجوه اخرى شاهدتها مصادفة وهي على الطريق . لكن ذلك الصوت ، وحرارة ذلك العشق المكبوت ، أسبغاً عليها بهجة لم تنسر بمثلها قط . حتى بدأت تنسوف بها شيئاً فشيئاً . وفي الغد نفسه رأت غريبه في دربها وهي راجعة الى غرفتها . فجراها الى ما وراء الحرج الصغير ، حتى حافة النهر الذي كانت تسمع أحيانا خرير مياهه في هدأة الليالي ، حين يكون نومها مضطرباً . الا كم كان الثمن الذي سدده مقابل السعادة المصيرة والضئيلة التي صورتها أحلامها باهظاً ! ليتها كانت تعرف فقط . لكن الغضب لا يلبث أن يتوالها على أثر هذه الفكرة الأخيرة . فالمرء لا يعرف ابداً متى ستفدربه الحياة . والاعتماد على الغد ، بل حتى على الساعة التالية ، شيء غير مجد . وليس من شيء أكيد الا اللوث .

ذلك ما كان يحول في ذهنها حين تركتها فرناند وولت رافضة منح هذه الفتاة التعيسة قبلة نعيد الطمأنينة الى قلبها . وما نفع البكاء ؟ لن يعمل الا على تورم قسماتها فتصير أكثر قبحاً . ثم نظرت الى نفسها مطولاً للمرة العشرين منذ الصباح ، وهزت رأسها . والاستبد بها على نحو مباغت سخط على نفسها ، وعلى الله الذي يسمح بوقوع مثل تلك المظالم . فالقت بمرآتها على الارض فهشمتها وسحقها بعقب حذاءها .

وتساءلت : « ما العمل حين يكون المرء شقياً حتى هذه الدرجة ؟ »
 أجالت نظرها في قطع الاثاث من حولها ، والجدران التي شهدت عذابها
 الطويل . ثم بدا لها أن عالم الخشب والحجارة ذاك ، قد دبّت فيه
 الحياة فأخذ يتحدث إليها . لم لا تختار الرحيل ؟ لقد تمنّت في مسار
 هذه الحياة أشياء كثيرة . ولم تتعلق بشيء معين . فليس هنا من فكرة
 أو ذكرى لتتعلق بها وتبقىها .

وعلى هذا فحين جاءت مدام لوند وفتحت الباب لتعلمها أن
 الزبائن يرغبون في رؤيتها غداً أجابت « أجل » ، حتى لا تنير جدلاً عقيماً
 لكن مخططها أصبح جاهزاً : ستتوجه الى الميسيو غروجورج لتطلب منه
 مالا ثم تغادر المدينة في أسرع وقت ! لم يساورها الشك في امكان نجاح
 خطتها لحظة واحدة . فغضب الرجل العجوز وغروره كانا في واقع الامر
 بلا حدود . وعلمتها تجربتها الفائدة التي يمكن أن تجنيها من ذلك .
 فهي سوف تتصرّف على نحو يعتقد معه ذلك الرجل أنها ما تزال جميلة
 رغم خمارها . ولطالما انطلت عليه اكاذيب فيما مضى . فهو سيحمل
 رفضها في رفع الخمار ، والكشف عن وجهها ، على محمل من الفنج .
 لقد كان على كل حال في أمس الحاجة للاعتقاد بحسنها ، ليصير خداعه
 ميسوراً جداً . وهي تتذكر ما كان بوقظه حضورها فقط من رغبات
 لديه ، وما يصير اليه مقدار سخائه في تلك الساعة من التلطف . لقد
 سعى الى رؤيتها مرات عديدة من بعد وقوع مصيبتها . فكانت والثقة من
 السيطرة التي يمكن أن تمارسها على ذلك المخلوق التعيس العاطل
 والشهواني . ليس ذهابها لرؤيته بعد انقطاع ثلاثة شهور كفيلاً وحده
 بملء نفسه غبطة ؟ سوف تعدّه بكل ما يريد على أن يعطيها فقط المال
 اللازم لهروبها . ولن تعوزها الاكاذيب في مثل تلك الحال . لقد كانت
 تكن له كل نودراء . وتعتبره سافلاً جداً ، حتى أن خداعه لن يسبب أي
 تأنيب ضمير . حتى كأنّ ندالة ذلك العجوز الشقي تعفيها من السلوك
 القوييم .

وتأتي إحدى نزوات القدر لتهدم ما بنته من مشاريع ، فمدمام
 غروج ، تلك المرأة الفظة القامضة ، والتي لم يقع عليها نظرها غير مرة
 أو مرتين من قبل ، هي التي صادفتها على دربها ومنعتها من رؤية زوجها
 ولم يكن ذلك الأمر ليدهش أنجيل لأنه يتسبه مجرى حياتها . وليس
 في الأمر من صدفة بل هناك دراسة فدرها ، وصروفه الفادرة المعدة
 سلفا وباتفاق لكنها تتخذ لبوسا عارضا لأن كنهها الباطني يتجاوز
 ادراكنا .



- ٨ -

حملت مع كل ذلك وعداً من مدام غروجورج بأنها ستفكر في حالتها .
 الحصلة هريلة . فمسهد كميم الفرو الذي كانت تدفيء به تلك المرأة
 يديها بدا أكثر فتنة . لقد راودت أنجيل الرغبة ، أكثر من مرة أثناء
 الحديث على الطريق ، في اختطاف ذلك الفراء الثمين . الا يحتمل أن
 تكون محفظة ما مخبأة داخله ، وفي المحفظة . . . آه ! لم ينبغي أن يكون
 قلب الغنى على هذه الدرجة من القسوة ؟ وكم سيؤثر التخلي عن مثتي
 فرنك على سير الأمور في دارة « خلوتي » ؟ هل تتدنى من جراء ذلك
 نوعية الطعام ؟ هل سيكون الهواء داخل الحجرات التي تتأجج النيران
 في مواقدنا من الصباح حتى المساء أقل دفاءً ؟ وكيف يقدر الغني أن
 ينام وقلبه طافح بذلك المقدار من الضغائن والالطامع ؟

شدت أطراف شالها فعمقتها تحت ذقنها بقوة وحثت الخطى .
 لم يعد أمامها إلا أن ترجع الى غرفتها وترقد في سريرها ليخف إحساسها
 بالبرد . فهذا النهار الذي أمضته خارجاً ، بعد أشهر من الاعتكاف ،
 جعل التعب يهداها هدأً ، حتى لم تعد تجد في نفسها القدرة على التفكير
 فيما ستفعله غداً . بل فقدت الرغبة في الكفاح . وامتلات نفسها
 بالامبالاة غمرتها تسيئاً فنيئاً حيال السعادة والشقاء . شعرت بشغل
 في رأسها . لو كانت قرب نار لاغفت على الفور .

كانت تمشي على الطريق منذ بعض الوقت حين سمعت وقع ركض
 وراءها . فردت بحركة عفوية طرف خمارها على وجهها واستداوت
 فلم ترَ أحداً . كانت بعض المصاييح الفازية تنشر بعيداً شيئاً من ضوء

شاحب فوق الثلج من غير أن تبدد العتمة تماما . أصابها الخوف على حين غرة . فالوقع كان قريباً الى حد ينبغي معه أن ترى الشخص الذي كان يتبعها . كان الهرب أول ما تبادر الى ذهنها . إلا أن الصمت من حولها كان عميقاً جداً حتى أخذت تتساءل ما إذا كانت مخطئة . لم يكن هناك ما يدعو للخوف على كل حال . فالمسافة التي تفصل بينها وبين أول منازل المدينة لا تتجاوز المئة متر . لكنها تعرف أيضاً أن سكان لورج ما عادوا يغادرون منازلهم بعد غروب الشمس منذ أول الشتاء . فأية صرخات تلك التي ستجعل هؤلاء الجبناء يغامرون بالخروج لنجدتها ؟ وهكذا فإن مخاوفها لم تكد تهدأ إلا وعادتها على نحو أشد .

في تلك اللحظة سمعت من يناديها . ولم يتح لها الوقت حتى ترد . لقد رأت على الفور رجلاً يقنبل باتجاهها من عند حافة الطريق حيث كان مختبئاً . عرفته من منكبیه وعرفته من مشيته : إنه غريه . وصرخت .

فصاح بها بصوت خفيض : « اصمتي . أقسم لك بأنه لا مدعاة لخوفك . »

كان قريباً جداً الى الفتاة حتى كان يوسعها أن تميز قسما وجهه . لقد استولى عليها رعب منعه من أن تأتي بحركة . وتراءى لها أن الدم تدفق من كل أنحاء جسمها نحو قلبها .

وأضاف :

— إنني أخطر بحياتي من أجل أن أراك . لو أوقفوني لكان مصيري السجن المؤبد وربما أسوأ . أما زلت خائفة مني ؟ أجيبني .

فهمست وهي تتراجع خطوة الى الوراء : كلا :

— سمعت شيئاً مما كنت تقولينه لمدام غروجورج قبل قليل . كنت مختبئاً بالقرب من سور الدارة . قبل يومين رأيتها وأنا أطوف

في هذه النواحي ، فهربت لكنها صاحت بي أن أرجع في الغد عند الساعة السابعة . أي هذا المساء . فحضرت ثم داخلني التمسك في اللحظة الأخيرة ، فاختبأت ساعة وصولها . هل صحيح إذن أنك لم تبلي الشرطة عني ؟

ـ أجل .

ـ لكن لا ترتعشي . أقسم لك بأنني لن ألمسك لمساً ما لم تسمح لي أنت بذلك . أنجيل ، أصغي إلي . أنت تزدريني ، اليس كذلك ؟

لم تجرؤ على الإجابة ختسية أن يكون قد قصد الإيقاع بها . لكن ، كم أثار ذلك الصوت من كوامن الحقد داخلها ! لقد كان يكلمها على هذا النحو يوم اقتادها آخر مرة إلى حافة النهر . فأني ضعف ذاك الذي أصابها فيما بعد حتى ضللت جهود الشرطة بإنكارها أنه هو الذي اعتدى عليها ؟

سألها : « هل ستصفحين عني في يوم من الأيام ؟ »

إنها لن تسامحه أبداً . أما العار الذي تشعرون أنه لحق بها ، بسبب ما أحسست به من ميل نحو رجل بلغ ذلك الدرك من التفاهة ، فكان يؤلمها أيضاً أكثر من فقدانها لجمالها . إن كلمات الحب الوحيدة التي قيلت لها في وقت ما ، نطق بها صوت بلا فتوة . وهي تحتقر ذلك الصوت .

أخيراً قالت : « دعني أنصرف . »

فاستأنف يقول : أما وانت لم تبلي عني ، فمعنى ذلك أنك سلمحتني . وما هذا بدافع الخوف ، اليس كذلك ؟

وترقب لحظة أن يسمع الجواب لكن بلا جدوى . ثم سأل على حين غرة :

— لم اقتادتك مدام غروج ناحية المصباح ؟ ما الذي دعاها لأن تنظر إليك ؟ أنجيل ، لا يمكن أن تكون الآثار ما زالت ظاهرة على وجهك . أليس كذلك ؟ أليس كذلك ؟

ترددت هنيهة ، لكن الغلبة كانت لغرورها على ضفينتها ، فقالت :

— كلا ، لا يوجد أي أمر .

وأضافت على الفور وقد تارت في داخلها قوة لا تقاوم :

— فتيات شانتيليا هن اللواتي روتن تلك الأقاويل بدافع الغيرة .

فأمسك بيدها كأنه يريد أن يشكرها .

— ماذا دهاني حتى فعلت ذلك ؟ لأبد أنني قد أصبت بالجنون .
حسب طوال ثلاثة أيام أنك قد مت . وحين قرأت الجريدة ، بدا لي أنني بدات أحيا من جديد . لم أفعل إلا التفكير فيك . ولم يخطر مني على بال غير الرجوع الى هناك .

أما وقد ظلت ساكنة ، لا تسحب يدها ، فقد قال لها بفتة :

— إنني أحبك ، هل تفهمين ؟ كان بوسعي أن أهرب الى الخارج ، لكنني فضلت الاختباء في باريس والمناطق المجاورة ، حتى لا ابتعد كثيراً منك .

أحسنت بلهائه الحار يلفح وجنتها ، فتراجعت أيضاً تحت تأثير ما يسببه لها ذلك الرجل من تقزز . وخشيت أن تسحب يدها مخافة أن تشير غضب غريبه . لكن كلمات الحب هذه ، أثرت فيها رغم كل شيء . وتابع يقول :

— بلغ بي الأمر حد عدم الاكتراث بحريتي . لأبد أن تكون مدام غروج قد أشاعت في كل مكان أنها قد رأيتني أمس . بل قد يكونون

الآن جادين في البحث عني . ومع ذلك فأنت ترين أنني لا أخشى التجوال في المنطقة .

— عليك أن تهرب .

— تريدني التخلص مني . أنجيل ، الديك «مغامرات كثيرة ؟ هل حياتك على المنوال السابق ؟

أبارت هذه الأسئلة في نفسها من الاضطراب أكثر من كل ما قاله لها حتى الآن . كانت تعتدل في داخلها رغبة لم تسع إلى توضيحها لنفسها : كانت تزدرى ذلك الرجل . لكنها لا تقوى على مقاومة الرغبة في أن تروق له . قالت :

— كلا ، لقد انتهى كل ذلك .

أسفت على هذه الكلمات فور التلفظ بها . إذ بدا لها أن الرد بحد ذاته يجعلها ترتبط بمغامرة خطيرة . فبدلاً من أن تهرب فوراً على نحو ما أوعدت به غريزتها ، لبثت واقفة على الطريق تتحدث مع ذلك الرجل . لقد وقعت في المصيدة . قالت بجدة :

— ولم تسألني عن ذلك ؟ أترك يدي ودعني أمضي في سبيلي .

قالت ذلك وهي على الطريق الرئيسة التي تحاذي السوميانت . أي تما ما كان المشهد إياه يوشك أن يتكرر . فخافت من تلك الكلمات التي نطقت بها شفتاها رغماً عنها . بيد أنه كان ممسكاً بها بشدة حتى أنها لم تحاول التخلص .

وبفئة أضاف من غير أن يلقي بالاً إلى ما كانت تقول :

— وماذا لو وجدت المال ؟ هل توافقين على اللحاق بي ؟

وظلت ذاهلة . ها إن أحدهم يعرض ،ليها ما كانت تتوسل للحصول عليه قبل قليل : وسيلة الهرب . لكن القدر قام بتنسيق هذه الهبة على نحو يجعلها غير قادرة على القبول بها . أن تهرب من الرجل الذي تكن له أشد الكراهية ! ما عسى ذلك الرجل أن يفعل حين يراها في وضح النهار ؟ لكنها قررت أن لا تتخلى عن فرصة قد تكون ثمينة . فبوسعها أن تتفكر في الأمر ملياً وهي وحدها . ولما كان الكذب كامناً في أعماق طبيعتها ارتأت أن من الخير القبول بعرض غيره ، إذا كانت ستنجح على ذلك النحو في إبعاده عنها . فسألته :

— كيف ستعتر على هذا المال ؟

— وما همك ؟ قلت لك إنه سيكون في حوزتي من الآن وحتى مساء الغد .

كانت أصابعه الدافئة تشد على معصمها داخل كم فميصها . وملأها ذلك الشد ، الصادر عن قاتل ، رعباً جعل أسنانها تصطك . وخشيت أن تتسرع بالقبول فتثير ظنون غيره . فسألته :

— الى أين سندهب ؟

— الى الخارج . لدي أصدقاء في بلجيكا . وبعد عدة شهور نرجع الى فرنسا .

واحاطها بذراعيه :

— هل تقبلين ؟

فتمتمت :

— أجل . بشرط أن تدعني أمضي في سبيلي . اتركني .

فقال وقد جنّ جنونه من الغبطة :

— اتقبلين ؟ اتقبلين أن تأتي ؟

— أجل ، دعني ، إني أقبل .

فأخذ قبّل يديها . ثم أضاف :

— وعدني مدام غروجورج بأن تساعدني . إنها غنية . سأقابلها .
أتعرفين متى تخرج وإلى أين تذهب ؟

قالت في نفسها : « لو رأها لانتهى أمره . سوف تغدر به . »
أجابت :

— بعد الظهر ، في حدود الساعة الثالثة عادة . صادفتها كثيرا
ناحية سانتييليا ، وأنا ذاهبة أحمل الفسيل . ثم أضافت كأنها تحدث
نفسها : لم تكن تحييني البتة .

— هل تخرج سيرا على الأقدام ؟

— أجل ، حين يكون الطقس صحواً ، وإلا فإنها تأخذ العربة .

— وحدها ؟

— وحدها دائما .

— أضرب لك موعدا هنا غدا مساء بين المصباح الثالث والرابع بدءاً
من المعبر . كم يمكن أن تكون الساعة ؟

— الساعة والنصف .

— إذن في الساعة والنصف . سنتوجه إلى هيريكور سيرا على
الأقدام ، فما من أحد يعرفنا فيها . ومن هناك نركب القطار .

— طيب .

— أقسمي لي إنك سوف تأتيين .

— أجل ، أقسم لك على ذلك .

فقال بضحكة ملأى بالتهديد :

— سوف أعرف دوما أين اعتر عليك .

— سوف أحضر . دعني أنصرف .

— إنزعي هذا الخمار وعانقيني . هل تسمحين ؟

— كلا ، كلا . لكن احذر ، هناك شخص قادم .

فتركها على نحو مباغت وارتمى جانبا وهو ينظر فيما حوله .
فهربت . وبعد بوان معدودات كانت تمر راكضة أمام أول منازل لودج .

لقد أصفى لوقع خطاها تباعد من غير أن يجرؤ على ملاحقتها : لم يكن من أحد فادما على الطريق ، بل لجأت الى تلك الخدمة كي ترغمه على ترك ذراعها . إلا أنه كان متيقنا من أنها ستأتي على الموعد غدا . فالخوف سيأتي بها الى ذلك المكان ، وإلا فهو الحب . وتردد في الانصراف فمشى في اتجاه نم في الاتجاه المعاكس وكان جدرانها غير مرئية تحدد تجوله . كانت قوة خفية تقيده الى تلك البقعة من الأرض التي سيقابلها فيها . سوف تطأ هذه الأرض على نحو ما يفعل هو الآن . ثم حرك برأس قدمه موقع قدم أنجيل فوق الثلج والوحل . هنا ، في منتصف الطريق تقريبا . كانت قبل ثلاث دقائق واقفة أمامه . ولقد تركها تمضي .

بعد بضع دقائق مضى هو بدوره . كان البرد يخترق المعطف الرقيق الذي يستر جسده وبحنت يدها بلا جدوى عن شيء من الدفء في أسفل

جيوبه . ونسأ لديه احساس بأنه عار وسط السمول النبي أخذت تهب
فتجمد الدموع على خديه ، أما قلبه فكان يطفح بشرا .

لقد عاش طوال ثلاثة أشهر ونصف في عزلة تامة ، متخفياً في
الأحراج الصغيرة المجاورة . يتناول طعامه في القرى حيث يعتقد أنه في
أمان . وما لبثت لحيته التي أطلقها أن غطت وجهه فجعلته غير معروف
تقريباً . لم يبق ما ينبي به إلا عينان في حركتهما الدائبة وكتفاه
المحدبتان ، هذا إن خطر بهال أحد أن يدقق النظر فيه ، لكنه ركن الى
ما لدى الناس من ضعف ذاكرة . وخاطر بنفسه ذلاً مساء فوصل الى
شوارع لورج . سلك أول شارع وهو وانق من أنه لن يصادف أحداً
ثم انتقل الى شارع آخر ليصل في نهاية المطاف الى الساحة الصغيرة
أمام مطعم لوند . وتراءى له أن الزمن يعود مجراه ، وأن كل ما عاناه
في الأشهر الأخيرة من غمّ ورعب قد زال دفعة واحدة . قد لا يكون وقع
شيء مطلقاً ، ما دام وافقاً هنا بنفسه وما دام المنزل على حاله والحجارة
أيضاً . هل كان يخاطر بنفسه ، لو أنه ارتكب جريمة حقاً ، فيأتي الى
مكان يمكن لكل من فيه أن يبلغ عنه ؟ كان إهمال نفسه يطمئنه . أما
استمرار عيشه مهدداً بالخطر فجعله يألّف ذلك . ناهيك بأن الصحف
لم تعد تتحدث عليه . وبعد أن خمد ما ثار من اضطراب في الأسابيع
الأولى ، فقدت الشرطة كل أمل في العثور عليه وبدأ النسيان يخيم على
جريمة أضحت الآن في حجم الحوادث اليومية . وكان المجتمع قد
منحه العفو .

أما لقاءه مع مدام غروجورج فقد أعاد إليه الإحساس بالخطر . لقد
عرفته تلك المرأة على الفور رغم لحيته ورغم نيابه الرثة . فهل ستشي
به ؟ إنّه لسؤال سيء طرحه ، بل ينبغي التساؤل : لم لا تني به ؟
ما من شك في أنها قالت له إنها تريد مساعدته ؛ فهل كلمته على ذلك
النحو المفاير حتى توقع به في المصيدة ؟ وما هي الدوافع لديها حتى تهب
لمساعدته ؟ فذكرى نظرة الازدراء التي طالما قراها في عينيها تشير في نفسه

أشدّ المخاوف . فأية نزوة تلك التي جعلت هذه المرأة المتعجرفة تصبح محسنة جداً من بعد أن بالغت في امتنائه ؟

لكن بات عليه أن يتصرف بسرعة ، وإن يقابل أنجيل ، لا سيما أنه جاء من أجل ذلك فقط ، فبسل أن يدقّ ناقوس الخطر . لكن كيف السبيل الى رؤيتها وابن يراها ؟ لقد أطلّ الوقوف على الطريق التي كانت تسلكها فيما مضى وهي عائدة من شانتيلبا في نهاية النهار ، لكن دون جدوى . كان يجهل في الواقع أنها لم تعد تعمل . ثم توجه بعد أن أعيته الحيلة الى المكان الذي حدّثه له مدام غروجورج ووقف ينظر وقد تنازعه الخوف من الوقوع في شرك منصوب له ، والحرص على عدم تفويت فرصة ممكنة . وفي اللحظة التي أوشتك مدام غروجورج أن يظهر فيها ، اسنولى عليه خوف مباغت فاخّتباً في العتمة قريباً من سور دارة « خلوتى » . وساهد تلك المرأة التي رهب جانبها دوماً ، وهي في ذهاب وإياب على الطريق ، وقد ظهرت عليها دلائل صبر نافذ . مرّت من أمامه مرّات عديدة . ما هي الأفكار التي تعتمل في ذهنها ؟ إنها برأسها التسامخ ومشيتها السريعة وطريفتها في التوقف المفاجيء لتدقّ الأرض بقدمها وهي تنظر يمنة ويسره ، قد جدّدت لديه كلّ الانطباعات التي ولدتها في نفسه ، حين كان يأتي لإعطاء دروس للصغير أندريه . يا له من تناغم مدهش بين الروح والحركات ، حتى إن أحد مظاهر الجسم ، كطريقة الاستدارة أو رفع الكتفين ، يمكن أن يكشف عن كلّ ما في القلب من غلظة وفسوه ! لقد أحسّ بآتية يسمع صوتها المقتضب يوجّه إليه أشدّ العبارات وفاحة . وكان في صوتها ، حتى وهي تصيح به : « لا أريد بك سوءاً ، لا تخش شيئاً ! » نبرة سيّدة نبيلة تقرّع أحد الخدم . وها هو قد جاء ينظر منها إحساناً ! لمّ لا يتوجّه الى البلدية طالباً منها العون ؟

ملأه وصول أنجيل غبطة لم يقوْ على احتوائها إلا بدافع الحذر . لم يكن على مقربة كافية من المرأتين ليسمع حديثهما أمام الشبكة الحديدية ، إلاّ إذا رفعتا صوتهما ، وهذا ما حصل حين أمرت مدام غروجورج

جيو به . ونشأ لديه احساس بأنه عار وسط التمول التي أخذت تهب فتجمد الدموع على خديه ، أما قلبه فكان يطفح بشرا .

لقد عاش طوال ثلاثة أشهر ونصف في عزلة تامة ، متخفياً في الأحرار الصغيرة المجاورة . بتناول طعامه في القرى حيث يعتقد أنه في أمان . وما لبث لحيته التي أطلقها أن غطت وجهه فجعلنه غير معروف تقريباً . لم يبق ما يتي به إلا عينان في حركتهما الدائبة وكتفاه المحدثتان ، هذا إن خطر ببال أحد أن يدقق النظر فيه ، لكنه ركن الى ما لدى الناس من ضعف ذاكرة . وخاطر بنفسه ذلاً مساء فوصل الى سوارع لورج . سلك أول شارع وهو وائق من أنه لن يصادف أحداً ثم انتقل الى شارع آخر ليصل في نهاية المطاف الى الساحة الصغيرة أمام مطعم لوند . وتراءى له أن الزمن يعود مجراه ، وأن كل ما عاناه في الأشهر الأخيرة من غم ورعب قد زال دفعة واحدة . قد لا يكون وقع شيء مطلقاً ، ما دام وافقاً هنا بنفسه وما دام المنزل على حاله والحجارة أيضاً . هل كان يخاطر بنفسه ، لو أنه ارتكب جريمة حقاً ، فيأني الى مكان يمكن لكل من فيه أن يبلغ عنه ؟ كان إهمال نفسه يطمئنه . أما استمرار عيشه مهدداً بالخطر فجعله يالف ذلك . ناهيك بأن الصحف لم تعد تتحدث عليه . وبعد أن خمد ما ثار من اضطراب في الأسابيع الأولى ، فقدت الشرطة كل أمل في العثور عليه وبدأ النسيان يخيم على جريمة أضحت الآن في حجم الحوادث اليومية . وكأن المجتمع قد منحه العفو .

أما لقاءه مع مدام غروجورج فقد أعاد إليه الإحساس بالخطر . لقد عرفته تلك المرأة على الفور رغم لحيته ورغم تيباه الرثة . فهل ستشي به ؟ إنه لسؤال أسى طرحه ، بل ينبغي التساؤل : لم لا تتشي به ؟ ما من شك في أنها قالت له إنها تريد مساعدته ، فهل كلمته على ذلك النحو المفاهيم حتى توقع به في المصيدة ؟ وما هي الدوافع لديها حتى تهب لمساعدته ؟ فذكرى نظرة الازدراء التي طالما قرأها في عينيها تثير في نفسه

أشدّ المخاوف . فأية نزوة تلك التي جعلت هذه المرأة المنعجرفة تصبح محسنة جداً من بعد أن بالغت في امتهانه ؟

لكن بات عليه أن يتصرف بسرعة ، وأن يقابل أنجيل ، لا سيّما أنه جاء من أجل ذلك فقط ، فبسل أن بدّق ناقوس الخطر . لكن كيف السبيل إلى رؤيتها وأين يراها ؟ لقد أطال الوقوف على الطريق التي كانت تسلكها فيما مضى وهي عائدة من شانتلبا في نهاية النهار ، لكن دون جدوى . كان بجهل في الواقع أنها لم تعد تعمل . ثم توجه بعد أن أعيته الحيلة إلى المكان الذي حدّثه له مدام غروجورج ووقف ينظر وقد تنازعه الخوف من الوقوع في شرك منصوب له ، والحرص على عدم تفويت فرصة ممكنة . وفي اللحظة التي أوشكت مدام غروجورج أن تظهر فيها ، استولى عليه خوف مباغت فاخْتَبأ في العنمة قريباً من سور دائرة « خلوتى » . وشاهد تلك المرأة التي رهب جانبها دوماً ، وهي في ذهاب وإياب على الطريق ، وقد ظهرت عليها دلائل صبر نافذ . مرّت من أمامه مرّات عديدة . ما هي الأفكار التي تعتمل في ذهنها ؟ إنها برأسها السامخ ومشيتها السريعة وطريفتها في التوقف المفاجيء لتدقّ الأرض بقدمها وهي تنظر يمنة ويسرة ، فد جدّدت لديه كلّ الانطاعات التي ولّدتها في نفسه ، حين كان يأتي لإعطاء دروس للصغير أندريه . يا له من تناغم مدهش بين الروح والحركات ، حتى إنّ أحد مظاهر الجسم ، كطريقة الاستدارة أو رفع الكتفين ، يمكن أن يكشف عن كلّ ما في القلب من غلظة وقسوة ! لقد أحسّ بأنه يسمع صوته المقتضب بوجه إليه أشدّ العبارات وقاحة . وكان في صوته ، حتى وهي تصيح به : « لا أريد بك سوءاً ، لا تخش شيئاً ! » نبرة سيّدة نبيلة تفرّع أحد الخدم . وها هو قد جاء بشتظر منها إحساناً ! لم لا يتوجّه إلى البلديّة طالما منها العون ؟

ملأه وصول أنجيل غبطة لم يقوْ على احتوائها إلا بدافع الحذر . لم يكن على مقربة كافية من المرأتين ليسمع حديثهما أمام الشبكة الحديدية ، إلا إذا رفعتا صوتيهما ، وهذا ما حصل حين أمرت مدام غروجورج

انجيل بأن تريها وجهها . ورغم أن غيرة تأججت لذكرى الرسالة التي قراها المسيو غروجورج عليه ذات يوم ، فقد شكر الظروف التي ساقط انجيل لأن نرى العجوز من جديد .

في الوقت الراهن أضحت امرأتان تعرفان أنه موجود في لورج . واحدة منهما تزدريه ، والأخرى لديها الأسباب الكافية لأن نرهبه وتكرهه ، وعليه أن يكون مخبولا إذا ما اعتقد بأنهما ستكتتمان سرّه . كما بات في يد انجيل أن تثار منه بكل بسر : حسبها أن تبلغ الشرطة عن مكان الموعد ليقع في الفخ الذي يكون قد أعدّه بيده الى حد ما . وقد يكون الإبلاغ حاصلا فيما هو يفكر دون طائل في الاحسان الذي يمكن أن تجود به عدوّتان عليه .

إلا أنه لم يكن يفكر في الهرب . فمسألة بقائه طلباً ، أو تمضية ما تبقى من حياته داخل أسوار المعتقل ، كانت مطروحة عليه في مظاهر مختلفة . فلو تفتحصها عن كتب ، لبدا من الحق التردد بين السجن والحرية ولو تأنية واحدة . ولكي يتفادى إلقاء القبض عليه ، كان يمكن أياها عديدة في حرية بعينها . هذه الطريق تبدو له آمنة أكثر من تلك ، وهذه الساعة أكثر ملاءمة من غيرها . لكنه كان يرى في لحظات أخرى أن الأمور تسير بطريقة مغيرة ، وأن مشاريعه لا تتوافق ومجرى الواقع . فالحساب الأهم هو حساب الزمن ، وليس الزمن أداة طيعة في يد الناس . إن مصيره سوف يتقرر بعد عدد معلوم من الأيام أو السنين . فقد جرى البتّ بقضيبته وغدت نهايته معروفة . وهو أشبه ما يكون بطفل يلهو من غير أن يعرف أن الوقت يمرّ بينما ترى أمّه مسبقاً متى تحين لحظة حمله الى السرير ، وإطفاء النور من حوله لبخلد الى النوم .

تذكر كيف سلك ، ذات مرة في باريس ، زقاقاً ضيقاً كي يتبعد عن درب شرطي ، وكان الوقت مساء ، وقد خطرت بباله فكرة تسليم نفسه بنفسه . فالحرية ، مقابل الجوع والخوف والحزن ، يمكن أن

تكون أصعب من السجن . وقد يكون مكانه آنذاك هو الذي أوحى اليه بتلك الفكرة . حصل ذلك في أحد أماسي تسرين الثاني وقد أقبل الليل ، لكن لم يكن المصاييح قد أضيئ بعد . ففاص في الجرج الأكثر ظلمة من الزقاق ، وكان أشبه بدهليز عبر كتل الأبنية العالية والموحسة التي تحدّ جانباً من شارع سان لازار . بدت امامه وسط الضباب المظلم ، الخافق بين الجدران ، بقعة ساحية نجمت عن لهائه . وما لبثت دقائق قلبه أن هدأت شيئاً فشيئاً . فمضى يتلمس الحجارة بيده . وهبط من بين السطوح بصيص باه من غير أن يصل الى عنده . فبدت خطاه مترددة مثل خطى الأعمى وكانت ساقاه ترتجفان من أثر الجري . وظلّ صخب المدينة يتعالى من حوله كصوت ضخم ملء بالوعيد ، فيرسم له خياله صورة وحس هائل يلاحقه متعتراً في العتمة وهو يزجر .

كان شعوره ذاك ، بوجود صراع غير متكافئ بينه وبين قوة غامضة ومبسوسة ، يداخله في أي ساعة من نهاره ، كلما لاحظ في الشارع عينيّن تحدّقان وجهه أو سمع وراءه وقع خطى أسرع من خطاه بقليل . عندئذ تجتاح جسده حرارة مباغتة ولنصق قبضته بجبهته لما يتصبّب عليها من عرق . كان يمضي من شارع الى شارع يطارده رجال شرطة وهميون ، فيسمى نحو الأجزاء المكتظة من المدينة ويجانب الساحات المقفرة والجادات الطويلة الخالية . إلا أنه يختلط بالجمهور وقد استولى عليه هلع لا يوصف . فكثيره هي الصحف التي نسرت أوصافه . وتكفي نزوة من نزوات الذاكرة لدى أحد المتسكعين ، حتى يتذكر على حين غرة ، بعد أن يراه ، الأوصاف التي فراها قبل أسابيع : قامة طويلة ، تحدّب في الظهر (كان يحاول أن بمسي منتصباً باستعامة لكن دون جدوى) ، بشرة باهتة . . . لا ريب في أن ذلك غير محتمل ، لكنّ الحياة العادية تقوم على أحداث غير محتملة . وحملته رغبته في الاختباء وسط الحشد على التوجّه مراراً صوب المحطات الكبرى لبجد نفسه عالقاً وسط جمهور من المسافرين . فلا يلبث أن يلف اليه الأنظار بسبب نيابه المتسخة والقلق الفاضح على سحنته . عندئذ يتخيّل أن أمره أضحى مكشوفاً

وأنّ أولئك الناس يحاصرونه على هذا النحو عمداً لمنعهم من الهرب .
 وإلا فلم ينظرون إليه بهذه الطريقة ؟ فهل عليه أن يسبق طريقاً له في
 وسطهم أم ينتظر حدوث تحرك يلقي به جانباً فيحرّره ؟ كان يبدو له
 أنّ أيّ سلوك يختاره ينير الشبهات . وأنّه ببقائه ساكناً أيضاً يلفت
 إليه الأنظار . وما يلبث أن يتبع ما ينتابه من ضيق ، فزعّ يمسك
 بخناقه . من نافلة القول أن يقنع نفسه بأنّ هؤلاء الرجال والنساء
 لا يعرفونه واتهم لا يفكرون حتى في النظر إليه . فالرعب من التوقيف
 يجتاحه اجتراح عاصفة هوجاء لا يمكن لشيء أن يخفّف من غلوائها . أمّا
 الأفكار التي تخطر بباله ، في تلك اللحظات من الذعر العقلي ، فغاية في
 الغرابة : أن ينهال ضرباً على المحيطين به ما اسنطاع من قوّة ثم يولي
 هارباً مثل قاتل يجدّون في طلبه ، أو أن ينخرط في الصراخ ويبلغ عن
 نفسه بنفسه معجلاً أمر القبض عليه بعد أن أضحى في نظره مؤكداً .

لم يعد في وسعه أن يسلك سارعاً أو بدخل غرفة من غير أن يتوارد
 إلى ذهنه نفس السؤال : « أكون توفيفي في هذا المكان ؟ هل أنا أميش
 الآن آخر دفينه حرية من حيائي ؟ » وعلى هذا فما من فندق رآه يلج
 بابه ليلنين متتاليتين . فكان يمضي متنقلاً من شارع إلى شارع ، بدافع
 من غريزته التي تدفع به من هنا إلى هناك فتجعل بعض السوارع تجتلبه
 وأخرى تنير فزعه . ووقع ذات مرة فريسة وسأوس جعلته يبتعد طوال
 أسابيع عن قسم كامل من المدينة ، من دون سبب واضح ، وأحياناً عن
 باريس كلها فيهرب إلى الضواحي . ثم تليها مرحلة الطمأنينة أو عدم
 الاكتراث فيعود على أرها إلى العاصمة . أمّا وقد أرهقه التخبّط ضد
 عدوّ يحسب أنّه موجود في كل مكان ، فاتخذ قراراً حاسماً بأن لا يهتمّ
 من بعد بالمخاطر الكبرى التي تهدّد حياته وإن يستمر في العيش مثل
 أي رجل آخر ، بل مثل هؤلاء الناس الذين يصادفهم في طريقه بالمئات .
 عندئذ كان يتدخل عقله ليفقد عليه آيات التشجيع . وهو لم يكن في
 حقيقة الأمر مجرماً كبيراً . فاغتصاب فتاة وضرب رجل عجوز عند زاوية
 أحد الشوارع لا بسندعيان أن تبقى الشرطة جادة في طلبك طوال شهور

وشهور . ولا مناص لها ، بعد عمليات البحث الاولى ، من أن تغض الطرف عنك لتوجه اهتمامها نحو الجناة الذين يستحقون ذلك .

ثم يستبدّ به الرعب على نحو مباغت ، أثناء تناول وجبة طعام ، مثلما يصاب المرء بحمى تفجؤه ، على الرّ شيء فاقد الأهمية ، كان تنقلب المملحة من يده ، أو أن يرمفه بادل بنظرة . عندئذ يتوجّس من حدوث شيء . ويصبح المكان مصدر شؤم . لقد قام أحدهم بالصغير وهو يمرّ من أمام المطعم . عليه أن ينهض فيدفع وينصرف . وأن يجري مسرعاً بكل ما أوتي من قوّة من غير أن يلتفت الى الخلف . لكن فكرة مألوفة تأتي لتطمئنه : « ان يلفى القبض عليّ في مكان أتوقعه . » وبفعل واحد من تناقضات الدماغ البشري يعثر على الطمأنينة داخل قلقه ذاته .

بيد أنّ ذكرى أنجيل ما كانت لتفارقه ، فتجعل كل جهوده للبقاء طليقاً بل ولكسب عيشه ابضاً ، تبدو في نظره باطلة وتافهة . لقد أدّت بساعة الجريمة الى تسوس تام للصور داخل ذهنه في بداية الأمر . فالتقرّز من الدم المراق ومن الصراخ ومن ذلك المراك الشنيع على ضفة النهر ، ذلك الكابوس الذي كانت ذاكرته ترغمه على أن يتعرف فيه على نفسه ، قد شغله على نحو تام ، فكيف أمكن أن يفعل ذلك ، بل لماذا قام بذلك ؟ فكل الاسباب التي يسوقها ، من الشهوة الى الغضب والخوف ، لا تفسر حصول ذلك التحول العميق جداً داخل ذاته ، والذي دام بضع ساعات ، صارت فيها يده أداة للقتل . بل إنه الآن ايضاً ، وبعد أسابيع من التفكير ، لم يتوصل الى إقامة علاقة حقيقية داخل وعيه بين القاتل وبينه . فيتراءى له أنه لو ألقى القبض عليه ، لكان ذلك تكفيراً عن جريمة شخص آخر . حتى كأنه ارتكب جنائية وهو في نوبة سرنمة(١)

الم يكن يتسمر على ذلك بأي تأنيب ضمير . فهذه الكلمة اللطافحة بالمعنى للعديد من المذنبين ، لم تكن تتوافق والمشاعر العديدة التي تعتمل

(١) السير والتكلم أثناء النوم .

في قلبه . تكون النفس مسؤولة على الدوام عما تفعله الذراع وما ينطق به الفم ؟ لم لا تكون هناك أوقات يجري فيها انفصال تام بين أفعال الانسان وقصده ؟ أليس محتملاً أن نكون أحيانا أداة تستخدمها قوى نجهلها فتستغل حالة الفوضى والاضطراب التي نؤول إليها حين تصيبنا سورة الغضب ، لتتلبسنا وتوجه أفعالنا ؟ إن ما كان يذهله على كل حال ، أكثر من أي شيء آخر سواه كلما تفكر في جريمته ، هو طابعها العشي وعدم جدواها . والو أنه استطاع على الأقل ، وهو يفتصب تلك المرأة أن يروي ظمأ هواه ويرتاح منه ، لأمكنه أن يدرك سبب بوائعه . فإله أقيم أن ذلك الرجل المنهك والمتقد لم يكن يبحث عن الحب كواحد يبحث عن سكينه الحواس . بل ما من أحد كان يحترق عبودية الشهوة مثل هذا المتهتك ، حتى إنه لم يتعمر بالازدراء تجاه نفسه بسبب تلك الفسطة المدعورة التي غمرته بها جريمته . وما عثم أن وجد نفسه فيما بعد على نحو ما كان من قبل ، بل أكثر شغفاً دون شك ، بتلك المرأة التي أدماه ، خائفاً كل الخوف من أن يكون فقدتها الى الأبد .

كانت تلك الفكرة تسيطر على كل ما فيه ، وعلى حرصه على حريته ، فالحرية تبقى بلا معنى إلا إذا منحت السعادة . وهناك على الدوام جانب من الهناد في كل هوى قوي ، وهذا رجل ذو طبيعة بائسة ، حريص على عدم امتلاك ما يشتهي ، فيرضخ وهو يرى نواقص صميمه المعبود . لقد تجاوز منذ زمن طويل تلك المرحلة التي يشتهي فيها المرء كائناً بسبب جماله . فليس الجمال إلا نقطة انطلاق . وحاجته الآن الى تلك الفتاة أضحت تختلط بالفريرة التي تدفع به للعيش : إنه يريد لها حتى وهي دمية أو ميتة .

رجع الى لورج وهو على تلك الحالة النفسية ، كما استفاد من أن الاضطراب الذي اثارته جريمته قد هدأ قليلاً . فحياته في باريس أضحت مستحيلة . ناهيك بأن العودة الى نفس البلد الذي وقعت فيه الواقعة هي نوع من التحدي للقدر . مثلما تؤدي عودة ظهور ممثل على خشبة المسرح الى اختتام المسرحية . فأوان الخاتمة قد آن . أليس

اليقين على أية صورة كان بأفضل من حالات التوجس التي تعمل فيه تعديبا ؟ لو عرف أن أنجيل قد ارتحل ، أو أنها لم تعد على قيد الحياة ، لكان عناؤه على طول المدى دون الخشية الدائمة منها . حتى كان يتراءى له في بعض الأيام أن خلاصه النهائي سيكون في لقاء القبض عليه وزجه في السجن . فكثيرا ما تمر بالمرء لحظات لا يود فيها إلا أن يكون محروما من حريته .

أما الآن وهو واقف على الطريق ، إثر حديثه مع أنجيل ، فهو يحس أن الخاتمة باتت قريبة . ولم يعد لديه وقت يضيعه . فقدره أن يتحمل ما تعرض له من عنف ، أما المساهد اللاحقة فقد جرت لأنه أراد لها ذلك . ولا يسمعه أن يرتحل من غير أن يرى أنجيل . سوف يأتي إلى ذلك الموعد الذي ضربه حتى لو كانت حباته هي الثمن . إلا أنه لو سلم بعزمها على اللحاق به ، فلا يسمعه أن يقترح عليها الرحيل معه دون مال . فللقاءه بها قبل قليل تجاوز كل آماله . لقد أظهر شريكه في اللعب كل سخاء تجاهه . لم يبق أمامه إلا أن يخاطر بكل شيء ، إذا كان لا يريد أن يخسر كل ما في حوزته .

وتوقف . لقد قادته أفكاره إلى ما وراء آخر دارات لورج . فإلى أين ينوي أن يذهب هذه الليلة ؟ رفع رأسه ، ونظر فيما حوله ، متل من ينتظر أن تحمل إليه الريح ، وهي تصفر في أذنيه ، إجابة على تساؤله . سند فبضتيه في أعماق جيوبه ولبت ساكنا بضع نوان . ثم عاد ادراجته على حين غرة .



- ٩ -

مرّ أكثر من ربع ساعة على قيام السيد والسيدة غروجورج عن المائدة ، ليواصلأ أمسيتهما كالمعتاد في قاعة الطابق الأرضي الصغيرة . وهى حجرة محصنة تحصينا مدهشا ضد تقلبات الطقس في هذا الفصل . إلا أن الثروة جادت عليها بألوان بدخ مزرية ، على نحو ما فعلته في كافة أرجاء داره « خلوتي » . كان طراز لويس السادس عشر هو المتبع . كل شيء يوحى بمعروضات المخازن الكبرى ، بدءا من السجاده البرنقالية حتى الطنافس بلونها الأزرق الطاوسي ، نزينها أشكال زنايق بيضاء ، وقد تولى نسيقها وتوزيعها رجل متخصص ، لكنه في عجلة من أمره . فالمناضد المزخرفة ذات المضلعات ، والاسكومات الصغيرة التي لا طائل وراءها ، تتنازع مجالا محدودا مع كراس ذات أرجل ضئيلة ومظهر هش ، حتى لبتهبب المرء من الجلوس عليها . لكن كنبتين عميقتين ومريحيتين تحتلان جانبي الموقد ، حيث تلتهب خمس أو ست قطع ضخمة من الحطب . جلست في الأولى مدام غروجورج تقرأ جريدة وعلى الثانية جلس زوجها وسدر في أحلامه .

كان ينفل نظرة ناعمة بين اللوحات الفنية التي تزين جدرانها . فهذه لوحة للفنان فراغونار تتلوها واحدة بريشة بوشيه . أما النور القاسي والكئيب المنهمر من الثريا فيضيء بلا رحمة وجهه المعجوز ، الممتلىء حتى التهدل ، والذي لم تكيفه أية آتار : لا حزنا ولا فرحا . من الواضح أن عينييه البليدين وجبهته الفارغة ، لم تعرف من توقد شع يوما فيها . حتى ان الانفعالات الدنيئة نفسها ، والتي تنجم عن متعة يشترها بماله ، كانت لا تثير اكترائه على قدر ما هي ضرورية له . قد لا يكون الاشتهى شيئا

ما بعنف ولومرة واحدة . وقد لا تكون الحياة جعلته يشعر مرة بالحرمان . وعلى هذا فان التجاعيد التي تحيط بما تهدل من خديه ، وكل الانلام المحتفرة في ذلك القناع اللحمي ، ليست من فعل الهموم أو العناء بل هي من فعل النهم والتقدم في السن . كان دفء الغرفة يسري فيه فيبت في أوصاله نوعاً من الخدر فتتراخي أجفانه النقلة وتهدل شفته المكتنزة فيغرق في إغفاءة قصيرة بين وقت وآخر ، مثل من يخلد للراحة بعد نهار من العمل الطويل .

طوت مدام غروجورج جريدتها بعد فترة طويلة ثم أخذت تراقب قطع الحطب المتوقدة وهي تتأكل شيئاً فشيئاً . فبعد أن تحترق آخر واحدة وتفتت جمراً ، تغادر الصالة هي وزوجها ليتوجه كل منهما الى غرفته . تلك هي الإشارة التي ينتظرانها كلاهما . وعلى ذلك النحو تختتم سهراتهما الشتوية . كانت وهي تتأمل السنة اللهب تشرح بأفكارها بعيداً جداً . وأما النار المتأججة في ذلك الوسط الداخلي ، المثير للسخرية والمشؤوم ، والذي يوحى كل ما فيه بضجالة الحياة البورجوازية ، فكانت تبدو كأنها نقياً وقويا يتعاملون معه باحترام ، مثل وحش مفترس أحكم حوله الطوق داخل عرينه . ويستعينون عليها بأدوات مضحكة من أثاف وملاقط ومساعر . فهي مستعدة على الدوام لأن تثب خارج حبسها فتلتهم السجاد والأثاث والدار المقيتة . فينبغي مراقبتها باستمرار وعدم تركها وحدها في القاعة ، ورد القطع الملتهبة التي تتناثر منها أحياناً فوق الرخام ، ووضع الحواجز في وجه سرارها القاتل . كانت مدام غروجورج مثل تلك النار ، النائرة والعاجزة في قلب الموقد ، تلفظ أنفاسها في مواجهة أشياء خالية من البهاء وأشخاص جنباء ساهرين لا تقدر أن تطالهم أبداً .

خرج المسيو غروجورج من شبه إغفائه بشكل مباغت وقال :

— هيه ؟ ماذا ؟ هل قلت شيئاً ؟

فقلت بصوت حاف ينطق ازدراء : « لا ، بل كنت تحلم » ثم
أضفت :

— سوف أصعد بعد هنيهة .

آه ؟ وأنا أيضا . لقد بدأت أغفو . اعطني المجرف كي أغطي الجمر .

أخذ المجرف النحاسي ، الذي ناولته زوجته إياه بصمت ، وأخذ
يفترق به الرماد ويفرغه بنفس السوية فوق الجمر المتأجج فبدأت
السنته تخبو .

— والآن حانز النار .

وضع اللوح المعدني أمام الموقد بنفس العناية ثم تمطى وقال وهو
يدس يده في إحدى الجيوب الداخلية من سترته :

— تذكرت ، لقد تلقيت من وقت قريب شيئا قد يثير اهتمامك .

— وما هو ؟

— إنه يتعلق بابنك . لقد نال ابنك علامات متدنية جدا في مدرسته .

اسمعي جيدا .

ركز نظارته فوق أنفه وبسط ورقة وأخذ يقرأها بصوت عال :

— مدرسة تيير . النشرة الفصلية . التلميذ أندريه غروجورج .

لم تستطع مدام غروجورج أن تكبت حركة تنم على نفاد صبر وهي
تسمع هذا الاسم فقالت :

— أخبرني بالاسم . هل هو مفصول ؟

— مفصول ، كلا ، لكن يا لهلمن درجات ! إنها لفاجعة . هاك ...
أندريه غروجورج ... السلوك : ستة من عشرة . تقديره وسط
في السلوك . التطبيقات : صفر . أسمع ؟

— بلى ، أسمع .

— اللغة الفرنسية : واحد ، التاريخ : اثنان ، الجغرافيا : اثنان ،
الرياضيات ... أحزري ما هو تقديره في الرياضيات ؟

— وكيف لي أن أحزر ؟ صفر بكل تأكيد .

— كلا . بل أسوأ من ذلك . ليس هناك من تقدير على الإطلاق .
ما دامت لا توجد علامة أدنى من الصفر فأنهم لم يعرفوا كيف
يقدرّون عدم كفاءة ابنك المربعة فتركوا الحقل فارغا . هيه ؟
ما رأيك بهذا ؟

— — أرى أنك كنت ذا رأى مدهش يوم وضعته بين أيدي
أولئك الحمقى .

— كنت تريد أن أدعه هنا ، عاطلا عن كل شيء ؟

— كان ينبغي العنور على معلم من أجله وعدم إرساله إلى باريس .

— معلم ! بعد المنغصات التي أصابتنا مع ذاك !

— ليس المعلمون كلهم على تساكلة ذاك . لقد أخطأنا الاختيار . هذا
كل ما في الأمر . لا أريد على أي حال أن أعاود مناقشة هذه
المسألة . أهذا كل ما لديك لتقوله لي ؟

— هناك أيضا ملاحظات المدير .

- إنني أهزأ بملاحظات المدير .
- فقال المسيو عروج وهو يطوي الورقة ويعيدها الى محفظته :
- يا لك من أم ! من يسمعك يحسب حقا ان هذا الولد ليس لك .
- فقال بضحكة قصيرة :
- يا له من صغير مسكين ! أما الآن ، فأنا صاعدة . طابت ليلتك .
- فقال وهو ينهض بدوره : طابت ليلتك .
- مست بضع خطى نحو الباب ثم توقفت على حين غرة وقالت :
- هل سمعت ؟
- سمعت ماذا ؟
- جرس الباب المشبك . هل أنت أصم ؟ هناك واحد عند الباب المشبك .
- واحد عند الباب المشبك ؟ في مثل هذه الساعة ؟
- عبرت الحجرة بخطوة سريعة وتوجهت الى النافذة فازاحت الستارة ثم بدلت رأيها فعادت الى منتصف الحجرة . وقالت بصبر نافذ :
- لماذا لم تذهب ماريا لترى من الطارق ؟ لقد سمعت بالتأكيد .
- أراهن على أن تلك الحمقاء خائفة .
- فقال زوجها :
- وما بك لتضطربي ؟ قلت لك لم يقرع من أحد .

لم تلق مدام غروج لكلامه من بال فمضت وفتحت باب القاعة وصاحت في البهو :

— ماري . احدهم على الباب . هيا بسرعة .

ثم أغلقت الباب بعنف ورمقت زوجها بنظرة سخط . فقال :

— ماذا ؟

— ماذا ، يا صاحبي ، أليديك ما تفوله لي ؟

— لا شيء أبدا . لكنك تنظرين الي . قالت :

— أتحسب أنني أفكر بك ؟ بل انتظر من يفتح الباب .

سمعا وقع خطى على ممتسى الحصباء فعلما أن ماري قد استجابت أخيراً لنداء سيدتها .

وفي اللحظة ذاتها تقريبا رن الجرس مجددا . فهبت مدام غروج واقفة وهرمت نحو الباب . فقال المسيو غروج :

— هذه المرة سمعت . لكن كم أنت عصبية !

— هيا انظر ما الأمر — ثم أضافت على الفور وقد تبدلت نبرة صوتها :

كلا ، لا تذهب . لا داعي لذلك .

— أنت خائفة ؟

— خائفة ؟ هل جننت ؟

فقال وقد داهمه قلق مباغت :

- قد تتخيلين أنه أحد الجناة ؟
- هل يقوم الجناة مادة بقرع أبواب الدارات ؟
- وسادت فترة صمت . ثم فتحت الوصيعة باب القلعة وقالت :
- سيدتي ، أنه رجل يرغب في التحدث الى سيدتي .
- فسالها المسيو غروجورج :
- رجل ؟ من هو ؟
- لا ادري يا سيدي لم أتمكن من رؤيته .
- فقال مدام غروجورج وهي تأخذ المفتاح من يد الوصيعة :
- طيب ، أنا ذاهبة . اصعدي لتنامي ، يا ماري .
- فقال المسيو غروجورج :
- لن تذهبي الى هناك . اوهزي الى الرجل بان يأتي الى هنا . لكن قبل كل شيء ، ماذا يريد ؟
- فقال ماري :
- طلبت اليه أن يدخل ، لكنه أبى .
- ومرت مدام غروجورج من بينهما وخرجت .
- فصاح زوجها متظاهرا بأنه يهتم بالحقاق بها ؟
- أنت متهورة !

لكنها كانت قد بلغت الدرج الخارجي وتوجهت بسرعة نحو الباب المشبك فمئذ يضع دقائق وقلبها يخفق كفعله لدى الاعلان عن حادث خطير ، حتى أنها لم تشعر بالبرد الذي أحاط بها من كل جانب ونفذ من قماش صدارها الرفيق . كانت تعرف من هو الذي ينتظرها عند مدخل الحديقة . فهرعت نحوه تحذوها الرغبة في الوصول بسرعة ، وبخامرها في ذات الوقت خوف من أن تزول بسرعة عذوبة اللحظة التي تحياها . ما كان يمقدورها أن تمنع قلبها من أن يخفق . وما كان بمقدورها أيضاً أن تجعله لا يتعلل بالأمال . كانت تلك المرأة ، القاسية جداً على نفسها وعلى الآخرين ، شديدة التعلق بالأباطيل حتى لتأول الرنين العادي لجرس نحاسي صغير على أنه نداء بصوت القدر . ولم تحترس ، على الرغم من تحاملها على الحياة ، من الاتكال على المفاجأة ، إذا كان ممكناً جمع تلك الصيغ المتناقضة . وعلى سخاء مفرط من جانب القدر الذي سيفقد عليها بغتة ما كانت تأنف من التوسل في طلبه .

تلك هي الآن تجري بجانب الممشى الموحد مثلما يجري المرء الى موعد مضروب . كان الليل حالكا الظلمة ، لكن مصابيح الطريق صنعت فوق الباب الشبكي شبه هالة ورات خيال غريه وراء القضبان بمنكبیه العريضين ورأسه المطرق بعض الشيء . توقفت فقال :

— مدام غروجوج ؟

— أجل — قالت ذلك وسمعت لان تتحدث بلهجة غير حادة فلم تنجح : فالاسم الذي ناداها به هذا الرجل أغاظها كثيراً — لماذا لم تأت مساء اليوم الى الموضع الذي حددته لك ؟

لم يجب ، مشت يضع خطى أخرى واقتربت من الباب فظهر لها وجهه غريه . فمضت تقول :

— انا سأقوله لك : كنت خائفاً .

ولم تقاوم دافعاً ، تساوت فيه الغبطة والغضب ، فمدت يدها على نحو مباغت عبر العوارض ووضعتها على كتفه . ثم سحبتها على الفور وقالت :

— سأفتح لك فتحتي وراء هذا السياج لأعود وأصطحبك بعد ثلاثة أرباع الساعة ، هل تسمعي ؟ لا تختن شيئاً . أريد أن أساعدك ان كنت بحاجة للمال فسوف تلبي .

دخل من الباب الذي فتحته دون أن ينبس بكلمة .
قالت : اختبي بسرعة .

ثم أغلقت الباب ومالت صوب شجيرات المضاض التي توارى خلفها وقالت له بصوت هائس : بعد ثلاثة أرباع الساعة .

سألها المسيو غروج : من هذا ؟

فردت بسرعة :

— رجل يطلب الاحسان .

— رجل يطلب الاحسان . في الساعة التاسعة . ارجو أن تكوني قد قلت له أن يمضي في سبيله .

— طبعاً .

ثم تبادلوا التحية وصعدا الى غرفتيهما . وحين أمست مدام غروج وحدها جلست على سريرها وانتظرت . لم تعد تأتي بحركة . تنظر امامها فلا ترى شيئاً ، فهي تائهة في تأمل عميق . وتراءى لها أن الأشياء التي تحيط بها أمست بمظهر آخر ، من غير أن تقدر أن تقول بماذا يختلف عن مظهرها السابق ، الذي عرفته حتى الآن . وكان شعورها قريباً لما يحس به المرء حين يعود الى

ببته بعد غياب طويل جداً . فتأخذ الأشياء التي تقع عليها نظره في الساعات الأولى ، طابعاً غامضاً ومألوفاً في آن معاً . ليست هذه أول مرة تشعر فيها أنها غريبة على العالم ، لكن انطباعها في هذا المساء كان على درجة من الشدة والوضوح حتى انتابها ما يتسببه الفرع . وكان قوة لا تقاوم عازمة على انتزاعها من الأرض ومن ذاتها .

قالت في نفسها : « ولكن ما بي ؟ أم هذه حال من يقبل على الموت ؟ »

أعلمها وقع الخطى وصفق الأبواب بتحركات زوجها والخدم . تلك الحياة التي تتحرك من حولها بكل وجوها لا تتسببه حياتها في شيء !
الا كم من هوة بين نفس وأخرى !

لبثت ساكنة تنتظر أن تهدأ الدار تماماً وتطفأ الأنوار . لكن نفسها لم تعرف الاضطراب لنفاد صبرها ، بل شعرت على خلاف ذلك بفطنة في إطالة تلك الساعة الغريبة التي كانت تحياها . وسرى في أوصالها نوع من الخدر . ولم تعد تبلغها أي نائمة . فلم لا تتحرك ؟

أخرجتها دقة ساعة تعلن انتصاف العاشرة من حلم تاهت في أرجائه . فتنهدت تنهيدة امرأة تستيقظ وقامت من غير استعجال . فتحت الباب بحركة هادئة ومطمئنة وأعدت إغلاقه ، وبدأت تهبط الدرج بحذر قطرة وخفتها . ثم رفعت السلسلة وأدارت المفتاح في قفل باب الدخول .

ها هي في الخارج من جديد والرياح نصفج وجهها . واختارت أن تسمي فوق المرج الذي يفصلها عن الباب السبكي ، كي لا يسمعها أحد ، ثم بلغت السياج الذي اختبأ غريبه خلفه . فقام لوصولها . قالت كأنها خمنت الظنون التي شغلت فكر ذلك الرجل :

— هل أنت واثق بي ؟

— لماذا تريدان أن تساعدني ؟

— هذا لا يهمك . هل نوبت أن تتبعني ؟

— الى أين ستأخذيني ؟

— الى بيتي . فتمضي الليل فيه . سوف اعطيك ملابس ومالا .
وغداً ترحل في الثانية عشرة والنصف بينما يكون الجميع على الغداء .
وما اعطيك إياه ، سيكون كافياً لتبلغ به الحدود . ففكر في الأمر .

— ومادا لو غدرت بي ؟

فتوجهت الى الباب ووضعت المفتاح في القفل ففتحته ، ثم قالت
له :

— هيا انصرف .

فلبت ساكناً ، صامتاً ، واقفاً على خطى من مكان وقوفها . وبعد
هنيهة قال :

— سأبقى .

أغلقت الباب من غير أن ترد بكلمة . ومرت من أمامه دون أن تتوقف
فتبعها .

قالت له بصوت هامس وهما يقطعان الممر :

— تسند على الجدار وأنت تصعد الدرج حتى لا يسمع للدرجات
صرير . سوف أقودك من يدك حين نبلغ الطابق الأول . فالممشى طويل
جداً .

— أذكر ذلك .

— هناك قطع اتات يمكن أن ترتطم بها . وإذا ما حصل ذلك ، فيإياك
أن تتحرك .

بلغا الدرج الخارجي وصعدا الدرجات بصمت . وحين أصبحا على
عتبة الباب همست قائلة :

— فكر أيضاً . بوسعك أن تهرب فوراً إذا شئت .

كانا قريبين جداً أحدهما من الآخر حتى تلامس ذراعهما فتراجعت
قليلا . وميزت رغم الظلمة حدود كتفيه اللذين كانا يتجاوزانها ، وشكل
رأسه . وتبينت أن نظره متجه إليها وأنه يسعى بدوره لأن يرى قسمات
وجهها . وهبت ريح جمودية من حولهما . قال :

— (إنني أثق بك .

وصعدا . سمعت في هدأة الليل صوت أنفاسه وصرير الدرجات
الخشبية وهي تثن تحت ثقل ذلك الجسد الكبير . توقفت عدة مرات
واضعة يدها الأمرة على كتف غيره لنوعز إليه بالبقاء سائناً . وجعلتهما
دقات الساعة يجفلان .

حين بلغا الطابق الأول ، قبضت على يده بقوة ، لتقوده خطوة
فخطوة بين خزائن الأواني والصناديق الخشبية والكتبات ، التي دفع
الهوس بالمسيو غروجورج لأن يملأ بها الرواق كله . كانت ماضية كأنها
في حلم ، يملؤها التصميم والرعب في آن معاً . الى جانب غبطة من
شأنها أن تشد من عزيمنها وهي على شفا الهاوية . ومع كل ذلك لم
تكن تجرؤ على أن تتساءل لماذا كان قلبها على تلك الدرجة من الخفة .
فالزمن في نهاية المطاف ، قد علم تلك المرأة العنيدة ، أن مجرد تفحصها
لسبب سعادتها كفيل بالكشف عن هئانستها . كانت تعرف قيمة
التوهم . فأخذت تلك المسيرة وسط الظلمة تداعب خيالها ، حتى باتت
تختسئ ، وهي تتلمس الجدران والأثاث بأصابعها المتباعدة ، حلول

اللحظة التي ينبغي فيها اضاءة المصباح ، وتبادل كلمات من شأنها أن تبدد نشوتها .

بعد ذلك بدقائق أصبحنا في القاعة الصغيرة التي توالى عليها ، وهي فيها ، أعوام عديدة من السأم والعزلة . فأغلقت الباب وتمتعت :

— أنت فوق غرفة زوجتي . لا تحدث ضجيجا حين تمشي . وإذا ما قرع أحدهم الباب فلا برد مهما كان السبب . ثم أضافت :

— سوف أشعل النور . لا تتحرك من مكانك .

وحزر أنها تقطع الغرفة ، لا من وقع خطاها ، لأنها كانت تمشي كمن لا يلقي بوزنه على الأرض ، وإنما من حفيف ثوبها . كان الحفيف يتحرك من حوله عن يمينه وعن شماله ، كصوت امرئ يبحث عن الآخر وسط الظلمة وهو يهمس باسمه . ثم أجفل وهو يسمع احتكاك عود الثياب .

كانت على بعد خطوتين منه فتبدت له صورتها الجانبية الصارمة والرقيقة ، وهي عاكفة على انارة المصباح وتركيب العاكس . بعد قليل غمر النور وجهها كله باستثناء جبهتها . اذ بدا حاجباها السميكان الاسودان المقوسان كالفناطر ، كأنهما يحملانها . انفضت بضغ ثوان بدت أثناءها تلك المرأة جميلة مع أنها على عتبة الشيخوخة . ولو رأيتهما لقلت ان قوى الحياة الاخيرة تجمعت فيها لتضيء تلك النظرة وتكمل تلك القسمات .

ترددت هنيهة واستدارت بفتة نحو غيره ثم قالت وهي تشير ناحية الكنبه من غير أن ترفع نظرها :

— سوف تنام هناك . سأحضر أغطية .

وبدا عليها التردد مجدداً ثم توجهت صوب الباب وقالت بصوت متهدج بعض الشيء كأنها تتكلم قسراً :

— أنت لم تتعنى دون ريب . سأحضر لك ما تأكله .

ما كان ذلك إلا مبرراً لانصرافها ، فقد بدا مستحيلاً عليها البقاء في حضرة ذلك الرجل بعد أن أخذ النور يسطع في الحجرة .

دلفت الى المطبخ مسرعة فوضعت فوق طبق زجاجة من النبيذ وخبزا ولحما مبردا . كانت يداها ترتعشان . ولاحظت ذلك فازداد اضطرابها شدة حتى تراءى لها عدة مرات أنها سترمي الطبق فوق الدرج . وحين بلغت ممشى الطابق الاول ، اضطرت لان تجلس فوق صندوق خشبي لتلتقط أنفاسها التي تقطعت لشدة الانفعال . ولقد افزعها صوت لهاثها : فالسكون المخيم على الدار بدا وكأنه امتلاء بدوي هائل .

حين دخلت كان غريبه جالسا على الكنبه كأن التعب قد هدده ، فاذهلتها ثيابه بمظهرها البائس . كانت آثار وحل الطرق تغطي حذاءه واسفل بنطاله . أما معطفه الممزق في عدة أماكن فينم على استعمال طويل ومستمر .

قام من فوره وأقبل نحوها :

— لِمَ كل هذه الطيبة حيالي ، يا مدام غروجورج ؟

رأت عينيه المتوقدتين تحدقان في عينيها . ولم تجد لديها القدرة على تحمل تلك النظرة . فقالت بشيء من المباغتة :

— لا تدعني مدام غروجورج . خذ هذا الطبق . بينما تتناول عشاءك سأهتم بأمر الاغطية .

كان كل ما فيها من طاقة يفضح أمرها . فبلغت الباب بعناء
وخرجت . كانت بحاجة لأن تفرق في العتمة لتخفي وجهها الملتهب
وتساءلت ان كان غيره قد لاحظ اضطرابها . فكيف السبيل الى دخول
القاعة الصغيرة مجددا والتصدي لفضول ذلك الرجل ؟ وأية أفكار
ستساوره ؟

امسكت المصباح بيديها اللاننتين لتهدئ الى الطابق حيث توجد
الاغطية . أحسب بركبتيها تتراخيان . تلمست الجدران لتعثر على
الخزائن الكبيرة التي تحتوي الشراشف والاغطية ففتحتها دون ضجة
لكن تلك الاغطية لم تبد لها سمكية بما فيه الكفاية . فكرت هنيهة ثم
أخرجت من خزانة أخرى عباءة ثقيلة مبطنة بالفرو ، خاصة بالمسيو
غروجورج . تم صعدت منغلة الذراعين وهي تتعثر بكل خطوة تقريبا.

قالت وهي تسقط العباءة في وسط الحجرة :

— هالك . لن تجعلك هذه تشعر بكثير من البرد .

تحول نظرها فورا الى الطبق فرائ الخبز واللحم على حالهما
والزجاجة لم تمس . فقالت باستياء :

— لم تأكل شيئا .

فهز رأسه قائلا :

— لا أستطيع . اني قلق جدا .

كان بודהا أن تقول شيئا يطمئنه لكن الكلمات أعوزتها . فقسوتها
المعتادة تجاه نفسها وتجاه الآخرين منعتها من الكلام بركة . فتنهدت .
منذ لحظة وسعور غريب يخامرها بأن ما تفعله هو انتقاص لها . لا لانها
ارتكبت عملا طالحا ، لكنها في هذا العمل الصالح لم تعرف نفسها .
قد تكون المرة الاولى في حياتها التي خمن فيها نوع القبضة التي تفعم

النفس الصالحة وهي تفعل الخير . تم ارتد الحزن ليغلف قلبها مثلما
يفمر موج البحر الحصباء . قالت :

— سادعك الان . وغدا صباحا سوف أوعز بأن لا يفتح أحد هذا
الباب قبل العصر . أما اذا قرع أحدهم فلا تجب . اياك أن تحدث
ضجة . سأعود الى هنا في حدود الساعة التاسعة ، بعد أن يكون
الجميع قد نزلوا . وسوف آتيك بالمال والملابس التي وعدتك بها .

بدا عليه التردد هنيهة ثم سألها قائلاً :

— الا ترين من الحكمة أكثر أن أرحل في هذه الليلة ؟

— ماذا تقصد ؟

— حبذا لو تكرمت الان باعطائي المال الذي وعدتني به . . .

— أنت ترتاب بي .

— كلا ، يا سيدتي . لكنني في وضع النهار معرض لان يروني .

أعوزها الجواب فأحست بغضب يستولي عليها فيجعلها الى حد
ما تثوب الى رشدها . هذا الرجل يقاومها فكيف يجروء على ذلك ؟ وعادت
أخيراً تقول :

— أنت ترتاب بي .

— لو أنني أرتاب بك لما كنت هنا .

كان لهائمه مسموعاً مثل وحش يخشى الوقوع في الشرك . ولبث
واقفا يفرك يداً بيد . ما كان عليه أن يخاطب مدام غروجورج بتلك النبرة
ولبثت تنظر اليه بصمت ووجهها في الظل بينما وقعت بقعة كبيرة من

النور على أسفل تنورتها . كانت نظرتها قاسية حتى غص طرفه وأطرق فوقعت عينه على الرأس المدبب لجزمته الصغيرة السوداء ، ووجدته يشبه سلاحا . تم تخيل رغما عنه تلك القدم وهي ترفس كلبا أو تسحق رأس طائر . قالت :

— كان في مقدورك أن تنصرف قبل قليل . لقد فتحت الباب .
لماذا بقيت هنا ؟

— سامحيني يا سيدتي . تكلمت من دون تفكير . انني اسلم
أمري اليك .

وأرغمه دفع الحجرة وما ناله من تعب على الجلوس . فتأملته وفتا من غير أن تتكلم ، ورائته يطرق رأسه ويرفع يديه إلى خديه كأنه ينوي أن يخفي وجهه . فقالت :

— أنت متعب . عليك أن تنام .

نم أضافت بمشقة :

— لا تخش شيئا . لا أريد لك إلا الخير . أقسم على ذلك .

ورفع نظره نحوها لكنها كانت قد استدارت وغادرت الحجرة .



- ١٠ -

ها هي في غرفتها من جديد ، جالسة أمام مكتب صغير وقد فتحت درجا منه . هل تكفيه ثلاث مئة فرنك ؟ ليس في حوزتها غير هذا المبلغ كانت تتمناه مضاعفا مرتين أو ثلاث مرات . كانت تود لو تعطي ذلك البائس خمسة آلاف بل عشرة آلاف فرنك . لكن تلك الأريحية لم تمنحها أي توهم حول ذاتها . فهي تعرف حق المعرفة أنها لو كانت طيبة حقاً ، لقامت على الفور فأعطت تلك الأوراق النقدية الثلاث الى ذلك الرجل التعيس ، الذي سيحرمه الخوف من أن يذوق طعم الرقاد وأضافت الى المبلغ بزة تختلسها من عند زوجها ومعطفا سميكاً ، وافتحت له الباب الشبكي ، بعد أن تكون قد تحدثت اليه وصافحته ، لتبعث الطمأنينة في نفسه وتجعله يشعر أنه ليس وحيداً في هذا العالم . الا أنها بدلا من ذلك ، أبقته عليه أسيراً في بيتها واقترحت عليه أن يهرب غدا في وضح النهار . وحسب أحدهم آنذاك أن يلقي نظرة من النافذة عن غير قصد ، حتى يراه وهو يعبر الحديقة . ولم تجد قبل قليل ما ترد به على غريبه حين طلب اليها أن تدعمه يرتحل .

لم تكن راغبة في أن تدعمه يرتحل . كان يروق لها أن تجد نفسها سيدة مصير ذلك الرجل ، وأن تقوم إلى حد ما بدور القدر . ولايلزمها لو شئت أن يكون طلبها وسعياً ، الا أن تصعد الى القاعة الصغيرة حاملية المال . ولو شئت على النقيض من ذلك وبدافع نزوة عابرة ، ان تراه موقوفاً ، لتحقيق ذلك بكل يسر . ما عليها الا التوجه الى مركز الشرطة .

- ٢٨٥ -

مرت في ذهنها تلك الخواطر فأتارت الاضطراب في نفسها . اذ لم يسبق لها أن أعطيت مثل تلك القدرة قط . مما جعلها تشعر بما ينبغي الفرع ، وكأنها تخشى الكلمات الرهيبة التي يمكن أن يتلفظ بها فمها والحركة التي في وسع يدها أن تقوم بها . وغالبا ما انتابها شعور بأن سعادتها متوقفة على سيادة شخص آخر ، على نحو ما كانت سعادة غيره متوقفة عليها في الساعات العترة أو الاثنتي عشرة التالية . وباتت مقتنعة الآن بأن في ارادتها من الضعف والقسوة والتردد بقدر ما في الارادة التي تتحكم بحياتها .

لكن هل يسعها أن نتخيل لحظة واحدة أنها قد تغدر بذلك الرجل ؟ ان المسألة لا تتعلق بالغدر به وانما بالابقاء عليه بالقرب منها أطول فترة ممكنة . فغدا سوف يمضي الى غير رجعه . وهي تعرف ذلك لكنها ترفض التفكير فيه . لم تكن تريد أن تتفكر فيما ستؤول اليه حياتها بدءا من عصر يوم غد . قد يقع ما ليس في الحسبان أبدا . فيغير مجرى حياتها وينترعها من السأم الرهيب المهيمن على أيامها الفارغة .

ايكون الليل والسكون هما اللذان يوحيان إليها بتلك الافكار ؟ وضعت الأوراق النقدية في مظروف كأنها تتوقع أن تقوم بتصرف حكيم لتعيد الى فكرها كل التوازن . أما وهي راغبة تلك الرغبة الشديدة في بقاء غيره وإيثارها تحت سقف واحد هذه الليلة ، فما الذي يمنعها من أن تصعد لعنده ؟

هذا السؤال جعلها تضحك بصوت عال وأثار غضبها . تراءى لها أن تتمسك بخط السلوك الذي اختارته وأن لا تتبع منحدر أفكارها . وعليها كبدية أن تستلقي وتنام .

نزعت ملابسها بتمهل ونفخت على المصباح فأطفأته ثم اندست تحت الاغطية . كان هواء بارد يدخل من النافذة المفتوحة ويصل إليها . اجتاحتها الرعدة . فجسدها لم يدفع السرير بعد وكانت أسنانها

تصطك . أهو يتسعر فوق بالدفع ؟ قد تكون خطرت بباله فكرة حسنة بأن يزيح الأريكة ليضعها بين النافذتين . لكن ضجيج احتكاكها بالأرض قد يوقظ زوجها . قد ينام إذن والنوافذ مغلقة . كم بدا في هيئة متعبة وهو يتهالك فوق الكنبة ! هل سيفكر على الأقل في خلع ثيابه ؟

انقلبت على الجانب الأيسر عليها بذلك نجد النوم الذي جافاها على الجانب الأيمن . فهي راغبة في أن تنام . لكن الظلمة عامرة بصور تسعى لأن تزيحها دون جدوى . كان هناك شيء يرغبها إرغاماً على أن تعيش الساعة المنصرمة دقيقة بدقيقة ، على نحو مايقوم به ممثل أثناء التدريب حين يجد نفسه مرغماً على إعادة مشهد أسوء تقديمه . الواقع أنها كانت تجري تعديلات طفيفة على الحركات التي تعيد تنفيذها في فكرها ، فيحل ماكانت تنوي أن تقوم به محل الذكرى الدقيقة لما قامت به . وهكذا وجدت نفسها تحضر الحافاً إلى غريه وتساعد على إزاحة الأريكة .

بعد أن دخلت في صراع مع نفسها بعض الوقت ، استسلمت للانسحاق مع اللعبة التي اقترحها عليها دماغها . فهي الآن تبتسم لذلك الرجل وتخطبه من غير شدة . أية دفقة حنان دفعت بها لأن تمسك بيده ؟ لقد انحنى أمامها انحناء تنم على الخضوع والعرفان ، بينما وضعت أمامه ، وقد أفعم قلبها غبطة لفعل الخير ، طبقاً مثقلاً بالأطعمة الشهية . عندئذ اكتفى بقدر من النبذ كرمه دفعة واحدة .

كانت قد حرصت على أن تضع في ذلك النبذ ، الذي شاهدته وهو يشربه بنهم ، مسحوقاً ذا مفعول أكيد ينوم على الفور . أن تنوم غريه ؟ وماذا ستجني من تنويمه ؟ جلست في سريرها . كانت أعطيها تثقل عليها بدفعتها : فكفاها وقدمها دبة من العرق ، عليها أن تنهض لتضيء المصباح وتطلق النافذة مادامت لا تستطيع النوم ولا تقوى على عدم الانسحاق وراء الأحلام .

انزاحت الأغشية جانباً بعد تردد بسيط وأسرعت فأغلقت النافذة . أحكم البرد قبضته على ساقيها وصدرها فأخذت ترتعد . ولقيت

بعض العناء في العثور على علبة الثقاب . وحين لمع النور أخيراً في الغرفة، ورائت قطع الأثاث الممهودة من حولها ، والنوافذ والستائر وكل الأشياء التي تحدثها عن حياتها ، ونذكرها من هي ، استولى عليها الخجل وهي تتذكر الأفكار التي راودتها ، فاحمرّ وجهها .

دقت الساعة العاشرة . أمامها ليل طويل شبيه بدرب ينبغي أن تقطعه بمشقة لتصل إلى الفجر . فحين تبيض السماء وراء أشجار الحديقة في الدقائق الأولى من الصباح ، وحين يتسرب شيء من البهاء من بين شقوق المصاريع الخشبية ، ستكون ، كما يتراءى لها ، أقل اضطراباً وأكثر سعادة . فمعاناتها القصوى تتمثل في الجمود الذي يحكم به الليل عليها . أما النهار فينجدها بالسعي في البرية . ناهيك بأن الدار عامرة بعدد لا يحصى من المشاغل ، وإصدار الأوامر للخدم ، ومراقبة عمل كل واحد منهم . وتذكرت أن صاحبة المصيفة سترسل إليها القسييل النظيف في صباح الغد ، وأن عليها أن تدفع قيمة الحساب فمن أين تأتي بالمال إن كانت ستعطي الأوراق النقدية الثلاث إلى غيره؟ وإذا طلبت من المسيو غرو جورج فسوف يطالبها بإيضاحات . لا يهم ! ستقول للصغيرة فرناند إنها ستسدد الحساب في الأسبوع القادم .

لم تنسَ أيضاً ماتوارد على ذاكرتها ، فقد وعدت أنجيل بأن تكلف فرناند لتسلمها شيئاً خاصاً بها . لقد تواردت المنفصات دفعة واحدة ! فتلك الفتاة أيضاً تطلب شيئاً من المال . لكن لايسع مدام غرو جورج أن تتردد نانية واحدة ما بين طلب أنجيل وحاجة غيره .

أما الآن وهي وحيدة مع ذاتها ، تقوم بسبر أغوار قلبها ، ذلك القلب الغامض الذي حرسته الحياة من كل سرور ، فقد فهمت ماكان يشير سخطها على أنجيل . لقد غمرتها غبطة خفية ، وهي ترى على ضوء الغاز ، ذلك الوجه الحزين وأثار الضرب على اللحم الذي أدمي . فالتقدر ثار لها في النهاية ولن يسبب لها ذلك الجمال من ضيق بعد اليوم أبداً .

نهضت من على سريرها حيث كانت جالسة وعبرت الغرفة . لا بد أنها فقدت صوابها حقاً حتى تتخيل تلك الأشياء ! فما إن لبثت لحظة من غير حركة حتى يتسرع خيالها يعمل فمشت بضع خطى أخرى وهي مترددة قلقة ، كأنها تخشى من حدث وخيم يوشك أن يوقع . وبغثة دقت بقبضتيها على صدرها . لقد بخرت داخل متاهة مظلمة حتى تكشفت لها الحقيقة : ما تخيلته هو عين الحقيقة . انها تحقد على أنجيل يقدر ما تحقد امرأة على غريمتها . سوف تمنع غريبه من الرحيل لانها باتت متعلقة به تعلق الجوارح بفريستها . فكان بודהا أن تنومه وأن تدس له مخدراً وأن تفعل كل ما صورته لها أحلامها الساعية . لقد رفضت طوال شهور أن تفهم ما كان يعمل داخلها لانها كانت خائفة . لقد خافت من الحياة على الدوام . لو لم تكن خائفة لكانت أقل قسوة حيال الآخرين . لكن حذرها الطبيعى حملها على أن ترى كل الذين يقاربونها أعداء لها وهي بينهم . وما زالت تعتقد وهي في الخامسة والاربعين ، أن المرء يستطيع أن يتخلص من أهوائه اذا لم يفكر بها ، كفعل القاضي الذي يبعث بمجرم الى جبل المستنقة ثم يتوجه ليتناول غداءه . فيا للكارثة المروعة التي تفوس فيها الآن ! انها تحتجز رجلاً في بيتها وعليها أن تطلق سراحه بعد بضع ساعات . فكيف ستكون حياتها من بعد ؟

أعاد وضح ذلك السؤال الذي طرحته على نفسها شيئاً من الهدوء الى روعها . فحياتها لن تتغير بكل تأكيد . والايام سوف تكون سببية بما عرفتته من أيام . مواعيد الطعام لن تتبدل ابداً ، وكل شيء سيظل يتبع خطا لا محيد عنه . وهي سوف تتألم كما في الماضي وربما أكثر وقد يحمل لها السن ، على النقيض من ذلك السلام والطمأنينة . لكن ذلك ما تفكر به ، انما همها ما ستقوم به على الفور . فالساعة التي تمر بها الآن لم تكن مثل غيرها ، بل هي ساعة استثنائية تحتل مكانة

خاصة بها ضمن سنين من السأم ، وعليها أن تدرك هذا الامر وأن تحقق منه الفائدة . فهي في هذه اللحظة موضوع نعمة من قدرها الذي منّ عليها بشيء ما ، ولا يسعها أن تقبل به . والا فماذا كانت تأمل من ارغام غيريه على مبيت الليلة في الدارة ؟ لقد توفقت عند منتصف الطريق من خطة لم تصرح بها لنفسها ، وكانت تعوّل دون شك على ظرف خارق للعادة ، كأن مسألة قدرتها على اخفاء رجل في القاعة الصغيرة لم يكن شيئاً خارقاً أكثر مما عداه .

خطرت ببالها فكرة الصعود الى ذلك الرجل واعطائه المال واخلاء سبيله على نحو ما كان في نيّتها أن يفعله بإدء الامر . فوجود غيريه في المنزل جعلها غاية في الشقاء . لقد طلب هو نفسه أن ينصرف . ستقوده اذن الى الباب الشبكي وتقول له وداماً ، لتكون تعزيتها على الاقل وسط ما يغمرها من يأس ، أنه سيكون مدينا لها بقدرته على مغادرة البلاد .

الا أنها لا تستطيع ذلك . فمظهر تلك المرأة ، من رباطة الجاش والحزم ، يخفي تحته الكثير من الوجّل والكثير من الضعف . على حين غرة شعرت أنها مرهقة ، مرهقة من الحياة ومن ذلك الصراع الدائم في قلبها . ودقت الساعة معلنة العاشرة والرّبع . لا ريب في أنه ينام الآن نوما عميقا . فكيف السبيل الى ايقاظه والطلب اليه بأن ينصرف ؟ كان ينبغي فعل ذلك قبل قليل . كان عليها أن تقول وأن تتصرف . أما الآن فقد فات الأوان وأمسى الوقت متأخراً .

عادت ففتحت النافذة وأطفأت المصباح وأوت الى سريرها . اذا لم يكن في وسعها أن ننام ، فان بمقدورها على الاقل أن ترقد ساكنة مغمضة العينين . وقد يأتيها النوم مخدوعاً بذلك المظهر . وهكذا حاولت أن تبدد الساعات بعد أن انتظرت قدومها بنفاد صبر بلغ حد اليأس . عبء ثقيل ينوء به صدرها فتمجز عن الالتقاط أنفاسها . ونشأ لديها

انطباع بأنها بلغت حدود الالم وأنها على وشك أن تموت . كانت الظلمة
 ملأى بالدوي . وجعلتها الهلوسة تسمع ساعة الطابق الارضي تدق بلا
 انقطاع . كان الدم في عروقها يجري بسرعة فصى بينما تصفع ريح
 جمودية وجهها من غير أن تنعم عليها ببرودة منعشة . واضطرت لان
 تنهض مجددا لتغلق النافذه . وحين طلع الفجر وجدها وقد أغفت
 أخيرا في سريرها وبقربها المصباح الذي لم تجد الجراة على أظفائه .



- ١١ -

كانت تجلس في سريرها متلغعة بمبذل من الراحية^(١) ، تراقب الخادمة وهي تسعل النار . وبدأت السنّة صغيرة من اللهب تجري تحت الحطبات الكبرى وقد فاح في جو الغرفة أريج خشب بشكل خفيف .

قالت مدام غروجورج :

- كيف حال الطقس اليوم ؟
- أسد برداً من الأمس ، يا سيدتي .
- هل النار مشتعلة في غرفة الطعام ؟
- أجل ، يا سيدي . منذ نصف ساعة .
- طيب . سأنزل بعد لحظة . وتتولين ترتيب الغرفة أثناء غيابي .
- سيدتي لن تتناول فطورها في السرير ؟
- كلا . إذهي إلى لويـز وقولي لها بأن تحمله إلى غرفة الطعام .
- ونهضت فعبّرت الغرفة وقبل أن تدخل حجرة الهندام قالت :
- تذكرت : لا ضرورة لأن ترتبي القاعة الصغيرة .

(١) قماش ناعم من الصوف .

فاستدارت الخادمة نحو سيدتها وقالت وقد بدت عليها علائم
الدهشة :

— ماذا يا سيدتي ؟

— ماذا ؟ ألم نفهمي ؟ لأبأس . بعد انتهائك من ترتيب غرفتي يمكنك
أن تخرجي . فأنا أملك إجازة طوال الفترة الصباحية . أما الحجرات
الأخرى فتقومين بترتيبها بعد العصر .

أغلقت على نفسها باب حجرة الهندام وجلست أمام منضدة الزينة .
كانت خلصتان رماديتان طويلتان محيطتان بصديها . إنها تقوم في العادة
بإخفائهما ساعة تستيقظ داخل كتلة شعرها الأسود ، حتى لا تراهما
من بعد حين تنظر في المرآة . لكنها سمعت هذا الصباح بالرضى المرير
وهي تتحقق من وجودهما . فهما تضيفان على عمرها خمسة أعوام
أو ستة . ومع ذلك فقد بدا لها أن هاتين الخصلتين اللتين تزيدانها
شيخوخة على ذلك النحو ، تسفان على وجهها عذوبة لم تعرفها البتة
من قبل . وتنهدت وهي تفكر بأن تلك العذوبة ناجمة ، من دون شك ،
عن مظهر الاحباط الذي شاهده في أعماق عينيها . سيتوجب عليها
حتى موتها أن تستيقظ صباحاً ، وتواصل الحياة من حيث تركتها . ولن
تعفى من تلك المهمة يوماً واحداً . أما الليل والأحلام الفريدة التي تراهها
أحياناً فإنها تزيد رتابة ساعات اليقظة حدة . فقبل خمس دقائق كانت
ما تزال غارقة في أحلام لم يعد بوسعها أن تتذكرها ، فكانت تشعر أنها
عائدة من بلد بعيد ، ليس للكآبة من مكان فيه ، بلد يناصب دروب
الآلام العدماء .

مشطت شعرها وغسلت وجهها بماء الورد ثم دلفت الى قاعة
الطعام . أما زوجها الذي كانت تسمعه يتحرك في الطابق الأول ، فلم
ينزل بعد ، رغم أن الساعة قاربت الثامنة . وأسعدها ذلك الوضع .
فقد بدا لها الحديث مع المسيو غروج ، في الحالة النفسية التي

كانت عليها ، أمراً مستحيلاً في الواقع . فالعذاب كان ينهكها مثلما تنهك المريض الحمى . ولم يبق لديها إلا القوة الضرورية للسير في الخطة التي وضعتها حتى النهاية . كانت ترتعد خوفاً من أن تتضافر جهود الأشخاص مع الأشياء ، لتزيد عبئاً اضافياً على مهمة ، تستعر سلفاً أنها غاية في الثقل .

حين انتهت من شرب القهوة صعدت الى غرفتها ثانياً فوجدتها مرتبة فارادت ملابسها بسرعة . وانقضى أكثر من ربع ساعة قبل أن تسمع المسبو غروج جورج ينزل أيضاً على طريقته البطيئة الثقيلة ، التي كانت تمقتها ، وفي هذه اللحظة بشكل خاص ، أكثر من أي شيء في العالم . كان قلبها يطرق بعنف . فهي تخشى اللحظة التي يتوجب عليها أن تقوم فيها بالمبادرة وتعلم حق العلم أنها قد دنت . وتأكدت بدافع من الحذر أن الوصفة في المطبخ فصعدت الدرج المؤدي الى الطابق الاول .

حين صارت امام باب القاعة الصفرى ، قرعت ، ناسية أنها اوصت غيريه بأن لا يرد على نداء من هذا النوع ، وفي ذات اللحظة وضعت المفتاح في القفل وفتحت .

لم تستطع في بداية الامر أن تتبين شيئاً ، فقد بوغتت بتعميم لم تتوقعه ، ثم رأت غيريه على حين غرة ، واقفاً في وسط الحجرة . قالت بصوت هامس :

— سأفتح المصاريع الخشبية . لا تقترب من النافذة . يمكن أن يروك من الحديقة .

تلفظت بتلك الكلمات على عجل كأنها تريد إخفاء ما انتابها من اضطراب . وعبرت القاعة واتجهت الى المصاريع ففتحتها . أما غيريه فمشى بضع خطى صوب الباب وبقي يحدق في مدام غر جورج صامتاً .

ثم أضافت وهي تستدير صوبه :

— لقد أوعزت بأن لا يأتي أحد الى هنا هذا الصباح . فليس هناك ما تخشاه ابداً .

لكنها كانت ترتجف من سدة الانفعال فاضطرت للقعود . لقد أحست بالدم يهرب من وجنبيها ، وغضت الطرف لعجزها عن تحمل النظرة التي سلطها ذلك الرجل عليها . قالت :

— تعال اقعد . كلا ، ليس قرب النافذة . بل هنا .

وأشارت الى كنبه غير بعيدة عن مكان جلوسها . فقطع الحجرة بخطى متعثرة كخطى الأعمى ، ثم وقف أمامها وتساءل على نحو مباغت:

— هل يمكن أن تقسمي لي بأنك في الوضع النفسي ذاته ، مثل أمس مساء ، يا سيدتي ؟ ما إن جاءها صوته الأجنس حتى أجفلت . لكنها سيطرت على اضطرابها وقالت دون أن تتحرك :

— أنت لا تزال خائفاً . لو كان في نيتي توقفك لأرسلت في طلب الشرطة أمس مساء .

سمعتة يلهث ورات بطرف عينها أنه يضع يديه على صدره كمن يجد صعوبة في التنفس . وظلت ساكنة رغم قلقها . بعد برهة ، وحين تفدو أكثر هدوءاً ، ستنهض وتغادر هذا الرجل حتى ساعة هروبه . أخيراً قال :

— سامحيني . فأنت لا تدريين ما اللبلة التي أمضيته .

كيف ؟ أنت لم تنم ؟

— استيقظت قبل الحادية عشرة بقليل ولم اعد أقوى على الرقاد مجدداً . إن وقع الخطي هو الذي أيقظني .

— كنت تحلم .

— اعتقدت وقتنا طويلا بوجود شخصي يمضي حقاً في الممر ، بل
اتنين ، ثلاثة أشخاص يصعدون الدرج . ثم تراءى لي أنني أسمع
طرقاً على الباب ، بين دقيقة وأخرى ، طوال الليل .

— يا لها من مناسع صبيانية ! كان عليك أن تتعقل ، وترغم نفسك
على الرقاد .

— انتابتنني الحمى .

تذكرت كيف امضت ايلتها هي نفسها وجعلتها ذكرى آلامها تنسر
بالشفقة على عذاب ذلك الرجل . لكن شيئاً ما حال بينها وبين
الانصراف الى تنفيذ الخطة التي وضعتها . أضاف قائلاً :

— ان المرء الذي يمس متخفياً وحيداً ، على نحو ما فعلت طوال
شهور ، يصبح عرضة لكافة اشكال الهلع . وعليه فاني لا قسم بأن
رجالا كانوا يروحون ويفدون في الحديقة تحت هذه النوافذ . وقلت في
نفسي لعل خادما سمعني صدفة وأنا داخل مساء أمس . وأن الدار
مطلوقة .

فقاطعته بصوت عاد الحزم يتجلى فيه . وبدأ لها أن ضعف ذلك
الرجل يثار لها من ذلك التخاذل البسيط الذي وجدت عليه نفسها
بالأمس ، ويثار لها من دموعها . فقالت :

— الا تحمرّ خجلاً وأنت تسرد لي قصة مخاوفك ؟ الى أين
سيؤدي بك كل ذلك ؟ الا أنني لا أستطيع منعك من أن ترتعد اذا ماكنت
خائفا مذعورا .

— سيدتي . أريد أن انصرف . انتابني الخوف . أجل . ولا أزال
خائفا . لكنني أريد أن انصرف . حتى وإن لم توافقي على منحني ذلك
المبلغ ...

كان جوابها الوحيد أن نهضت وأخرجت من نطاقها المظروف
الذي أعدته من قبل . أن ما رأيته على غيابه من قلق جعله مستضعفا
في نظرها ، فهنأت نفسها لأنها لم تنم على المساعر التي أحست بها نحوه .
قالت وهي تناوله المال : « هاك » . ثم أضافت تقول في نفسها :
« خذ يا جبان ! »

— لم تفعلين ذلك ؟

هذا شأني . هيا ، خذ هذا المال .

فرضخ ووضع المظروف في جيبه . ثم حوّل نظرة مستفسرة
فاستقرت عليها وقال على شبه مضض : « شكرا » . قالت وهي تقعد
مجددا :

— لا فائدة من التفكير في الانصراف الآن ، ينبغي أن تنتظر حتى
الثانية عشرة والنصف .

— طيب ، يا سيدتي .

— سوف أتركك حين يغادر زوجي الدار . فلو خطر على باله
أن يأتي الى هنا ...
— ماذا تفعلين ؟

— أطمئن . لن افتح ، لكنني سأكون هنا على الاقل حتى أرد على
ندائه . تذكر على كل حال ، اذا قرع أحدهم وأنت في الغرفة وحدك
فلا تجيب .

ـ طيّب يا سيدتي .

قامت فمرت من أمامه دون أن تنظر اليه ومضت لتقف حيال
النافذة . وتمتعت :

ـ لماذا لم يخرج بعد ؟ مع أن الطقس حسن .

جعلها نفاذ الصبر تُعْمِلْ اظايرها في طرف الستارة التي تقف
حيالها . كانت تعرف أن غيره يتفحصها بعينه ويتابع حركاتها واحدة
فواحدة . سوف تنقضي السنون لكنها ستظل تتذكر هذا الوقت دقيقة
بدقيقة ، وتتذكر الحديقة الميئة ، ووحل الماشي وقد جمده البرد ،
ودفع الغرفة التي تقف فيها ولهات ذلك الرجل الخائف .

سألته دون ان تتحرك :

ـ ماذا كنت تفعل في باريس ؟ كيف كنت تؤمن معيشتك ؟

ـ كان معي شيء من المال يوم هربت .

ورغبت في أن تسأله من أين جاء بذلك المال لكنها اثرت الصمت ،
وقد تحرك فيها الحياء على نحو مباغت . لقد اراثت بدافع من غرورها
أن تتصنع اللامبالاة وأن تتكتم على كل الاسئلة التي كانت تحرق شوقا
ل طرحها على ذلك الرجل ، لكن قلبها انقبض فزعا وهي ترقب انقضاء
ساعة لن تجود عليها الحياة بتمثلها أبدا . فما الذي أبقاها ساكنة على
ذلك النحو قرب النافذة : رباطة الجأش أم الحيق ؟ ما همها أن تكون
قوية أم ضعيفة ؟ كانت تتعذب . لو انها غادرت القاعة الصغرى قبل
بضع دقائق لتفادت الاغراء العنيف في التحدث الى غيره . أما الان فهي
لا تتمنى شيئا بقدر رؤيته وهو ينصرف . سينتهي كل شيء في الثانية
عشرة والنصف . سوف تستعبد هدوء روعها وسط القنوط ، لكنها
لن تقوى على التقاط أنفاسها مادام هناك . فقبل قليل كانت تزدرية .

وتهللت بسبب ما اكتشفته من جبن لدى هذا الرجل لان ذلك الجبن يفصلها عنه حسبا رأت . أما الان فلم تعد تدري ما الذي انتابها على وجه الدقة . فبقاؤها مع غيره في نفس الحجرة أضحى غير مقبول ، لكنها كانت متيقنة من جهة أخرى من انها لن تنصرف ما لم تكن مرغمة على ذلك . فالمرر الذي قدمته الى غيره كان بمثابة زوغان من وجه الحقيقة فها هو زوجها يعبر الحديقة ليخرج . الا انها لم تنس لذلك . بل املت ان لا يسمع صرير الباب وهو يفتح ثم يغلق وراء المسيو غروجورج . وقررت فيما اذا سمع الصوت أن تقول انه أحد الخدم وليس زوجها . وسعت لتحويل انتباهه من وقع الخطى فوق حصباء المشى فعادت تقول مجددا :

— كان معك قليل من المال .

واستدارت صوبه فاعتقد أنها تستجوبه ، فأطرق رأسه وقال :

— أكثر من مئة فرنك بقليل . وبعد انفاق ذلك المبلغ بعث ساعتى
ثم بعث خاتما .

وسأله بشيء من الفظاظة :

— ألم تسول لك نفسك يوما أن تسرق ؟

— كلا .

في الاسفل عند طرف الحديقة فتح المسيو غروجورج الباب
الشبكي وخرج .

— لكنك ارتكبت جريمة قتل ، أليس حريا بك أن تكون قد سرقت ؟

نطقت بتلك الكلمات على نحو من العنف لم تقو أن تسيطر عليه
واجتازت القاعة حتى مكان غيره . انه لم يسمع الباب الشبكي ينفتح

وينطلق ، وهو يحسب أن المسيو غروجورج مايزال في الدارة . فبوسعها
أن تبقى .

قالت وقد تضايقت من هيئته المرتبكة : أجب .

فهز رأسه وأجاب : لم أسرق . أقسم لك على أنني لم أسرق قط .

وفكرت قائلة : « ماذا يعني من ذلك ؟ انه مرتحل » . ثم تحولت
بغثة من موقف الى موقف آخر ، وحدقت في وجهه فأرغمته على أن
يغض من بصره . قالت :

— لم تصرفت على ذلك النجو ؟ لماذا قتلت ذلك الرجل ؟

وقالت في نفسها مجددا : « وماذا يعني ان كان قتله ؟ ليس هذا
ما اريد أن أعرفه . » سمعت صوتها هي ، الحازم والقاسي جدا ،
فبوغت للنبرة الهادئة التي تتكلم بها ، بينما تولاهما احساس بالدوار
فتشبنت بزاوية خزانة . وتمتم ممتقع الوجه :

— لم أقتل ذلك الرجل .

فمضت تقول : وماذا عن تلك الفتاة اذن ؟ لن تقول إنك ... لم
توشك أن تقتلها ..

رأت وجهه يتسنىج كمن تلقى ضربة . لكنه لم يجب . هل أتيح
لها أن تلاحظ من قبل تلك الغضون تحت أجفانه وفي طرفي عينيه ، وأن
تدقق النظر في حدقتيه بلونهما الاصهب الغريب ؟ لقد تهيأ لها أنها لم
تنأمل قسمايه قط حتى ذلك النهار وتلك الدقيقة . وتساءلت عن
مبعث القوة التي جاءتها لتقف أمامه وتستجوبه . أخيرا قال لها بتنهيده،

— لم تطرحين علي كل هذه الاسئلة ؟

وقالت في نفسها : « أجل ، لم ؟ » لكنها رغم ذلك مضت تقول :

— تلك الفتاه ، أنجيل ... لقد عذبتها ، اليس كذلك ؟ عند ضفة
النهر . لقد أخبروني .

نراى لها وهى في تلك الحجرة الصغيرة المحكمة الاغلاق أن الصمت
يحاول اخماد وقع كلامها ، فقد كان صوتها خافنا وغير واضح تقريبا .
وفهمت من نظرة غريبه أنه أدرك اضطرابها فاحمرت خجلا . وكان بودها
لو تصرخ . ثم أضافت :

— بلى . لقد أخبروني بكل شيء . والصحف روت كل شيء . لم
كنت حاقدا عليها لتسيء معاملتها على ذلك النحو ؟ لقد أوشكت أن تموت
لماذا كنت تكرهها ؟

وهز رأسه نفيا :

— لم أكن أكرهها .

شعرت أن غضبا مباغتاً قد استبد بها فخبطت بقبضتها ظهر
الكنبة .

— لم تكن تكرهها ؟ لم تكذب عليّ ؟ هل أنت خائف مني ؟ أنا لست
قاضي تحقيق . هيا ، قل لي !

— قلت لك الحقيقة . كنت ساخطا عليها ، لكنني لم أكن أكرهها ،
بل على العكس . كان بودي ...

ثم توقف بفتة ووضع يده على صدره . فتراجعت قليلا . وبادرت
بحركة كأنها تريد أن تمنعه من مواصلة الكلام . فصارت خائفة مما
سيقوله وندمت على اسئلتها ، لكنها لم تدع أمامه من سبيل قال :

— لو كان بوسع المرء أن يكره ما يعبد ...

فقاطعته على الفور وهي تغمغم :

— ذلك مستحيل . فاما هذا وإما ذاك .

فواصل وهو يرفع صوته ، اذ بدا أنه نسي منذ بعض الوقت
كل حذر :

— لقد انتابني الغيرة . كنت أعرف أن الجميع يعطونها مالا . إلا أن
المال يعوزني فكانت تهزأ بي . وذات يوم ، اختلست مالا مما وفرته
زوجتي وقلت في نفسي إنني سأعطيه لأنجيل . من ثم ، حين وقعت
عيني على أنجيل في ذلك الصباح ، بدا لي أنني قد فقدت صوابي .
فضربتها ، ضربتها ...

— أجل ، إخرس . أنا لم أسالك ...

والصقت كفا بكف ولبثت ساكنة . قال :

— لا يسمعك أن تعرفي كم تألمت بسبب تلك المراز . مكثت بعيدا عنها
طوال ما استطعت . وفي غضون شهرين صرت مرغما على العودة
إلى هنا .

لم تفهم فحوى كلامه بادية الأمر ثم اتضح لها المعنى بغتة فاعتقدت
أن من المستحيل أن تكون أحسنت سمعا . وتشبثت يداها الواحدة
بالأخرى كأنها تريد سنداً من وراء ذلك .

— عدت إلى هنا بسببها ؟

— بكل تأكيد ، لقد قلت لك ...

سعرت بشيء يمسك بخناقها . فقال بمسقة :

— ظننت أنك عدت انتطلب مني أن أساعدك .

واسفت من فورها على قول بدا لها مضحكا ، لكنها لو لم نتكلم
لأنفجرت بالبكاء .

ولاحظ اضطرابها فقال بنبرة مغايرة وشبه مستندلة :

— لم أجسر على الاعتماد على سخائك .

هزت يدها نحوه مسيرة ألا يضيف شيئا ومشت صوب الباب
بخطى متصلبة وبطيئة كأنسان آلى . وحين مرت من أمامه دون أن تلتفت
ناحيته تمنى أن يرتمي على قدميها متوسلا لكي ينصرف ، لكنه خشي أن
يستثير غضبها إذا ما أبدى لها أنه حذر منها . وساورته ظنون رهيبة
على حين غرة : هذه المرأة ستقدر به .

— سيدتي ...

حين وصلت الباب استدارت صوبه وحدقت في وجهه ، فرأى أن
عينيه قد أضحتا بلا حياة في وجهها الشاحب ، وانتابه شعور بأنها لم
تكن تراه . قالت بصوت مخنوق :

— يجب أن أقول لك . لقد رأيت أنجيل . وهي تكرهك .

وأجفل .

وأضافت باندفاع :

— إنها تكرهك . إنها بخشاك . أجل ، أنت تخيفها ، تخيفها ...

فتمتم :

— هذا غير صحيح . أنا أعرف ...

فأومات بحركة متسججة من رأسها كمن يريد أن يقول لا ،
وخرجت . وسمع المفتاح يتحرك داخل القفل .

- ١٢ -

عبرت الممر مل من يمّتي وهو نائم وجاءت لتجلس فوق صندوق خشبي يشغل الحيز بين بايين . كان يسود المنزل صمت مطلق . فالطاهية الآن في السوق بشكل مؤكد . ثم تذكرت أنها أذنت للوصيفة بالخروج . كان النور يتسرب من قبة المنور الذي يضيء الدرج . إنها تعرف هذا النور حق المعرفة وتعرف أيضا شكل قطع الاثاث كلها وشكل الدرجات ، في صباح يوم شتوي . كما تعرف ظل المقاعد فوق الجدران وكيف ينعكس النور عن القضبان النحاسية اللامعة التي تحمل الستائر فيسقط فوق السجادة الحمراء . وبدأ لها ، وهي على وضعها ذاك غارقة في حلم موجع ، إن تلك الأشياء كلها تؤلف من حولها عالما ، ترى أنها توشك أن تغادره ، بينما هو يتمسك بها . حين كانت قبل قليل بصحبة ذلك الرجل ، لم يكن أي شيء ينسابه ما عرفته من قبل . قاضتها الصغيرة تغيرت على نحو لا يمكن تفسيره . وتراءى لها طوال نصف ساعة أنها ليست في بيتها ، بين قطع اثاث يقع نظرها عليها يوميا ، ومنذ ثلاثين عاما . هذا الشعور كان مألوا لديها . ففي ساعات الألم الشديد أو في ساعات السأم المضني ، ينتابها الاحساس بأنها غريبة عن هذا العالم . ويكون إحساسها على درجة من القوة تفقد معه الأشياء الأرضية على نحو مباغت كل أهمية لها مدة بضع دقائق . شعرت بذلك هنيهة وهي حيال النافذة ثم جاءت كلمات غريبه فأعادتها الى ذاتها . والآن تجد نفسها ضمن مجرى الحياة .

قالت في نفسها : « كيف يقاسي الانسان كل هذا العذاب ولا يموت ؟ » لم يكن بوسعها أن تفكر في غريبه من غير أن يتولاها إحساس بالعار ، فيحمر وجهها خجلا ، لأنها أضحت مقتنعة بأنها انساقَت لتصير هزاة في عين ذلك الرجل ، وهذا ما يتسبب لها بأشد العذاب . فأي اضطراب

عقلي أصابها حتى حسبت أنه رجع من أجل أن يطلب منها العون ؟ ما من شيء يمكن أن يدفع به للسبر على درب مغامرة خطيرة خطورة الرجوع الى لورج غير الهوى ، لكن ذلك الهوى ليس يقصدها ، لبس لها من نصيب في ذلك الحب الطاغى الذى قاد ذلك الرجل نحو امرأة . كل دورها في تلك القصة لا يعدو دور امرأة على منحدر السيخوخة تتدخل في ما ليس من شأنها . وهو ما رأيته ؟ لقد أضحت بكرهه بغتة ، بسبب ما يحمله من أفكار . ماذا اوتخيل أنها واقعة في هواه ؟ لكن ، أليست تلكا هي الحقيقة ؟ خبات وجهها بيديها . فالعبارات والكلمات التي تحدثت الى نفسها بها وصاغت بها هواها ، بدت لها مثيرة للهزء الى درجة غير مقبولة ، فيما كانت تسلم بوجود ذلك الحب الذي كان يفتك بأحشائها . كانت تخشي ان تغرب من التعابير الدقيقة التي ينبغي استخدامها لوصف حالتها النفسية ، وتفضل بصورة عامة أن ترمي بهواها وسط فوضى من المشاعر غير المباح بها . أما الآن فقد التهرب من وقائع الحياة مستحجلا عليها . وفي هذه الساعة عينها ، وهي تجلس فوق هذا الصندوق الخشبي عند ذلك الدرج ، كان مصيرها ينجز . وكانت على دراية بذلك . كانت تتمنى بينها وبين نفسها ، بفزع مرعب ، أن لا يكون غريبه وراء باب القاعة الصغرى قد تبين أفكارها : « أنا واقعة في هوى ذلك الرجل وهو يعشق امرأة غيري . »

لم تجرؤ على أن تدير نظرها ناحية الباب الذي أغلقته لتوها . ليته لا يشك بشيء ! إن حظها لسعيد ، إذ لم تدعه للنزول الى غرفتها أمس مساء ، على نحو ماخطر ببالها لحظة . فلو تعرضت للاذلال عن طريق الصد البشع ، لالهب دماغها بطلقة مسدس . لأن حياتها ستغدو مستحيلة . وتفجرت بالدمع مآقيها لفكرة موتها ، بعد أن عجز الانفعال العنيف الذي اجتاحتها قبل قليل عن انتزاع دمعة واحدة .

سمعت على حين غرة صوتا صبيانيا يناديها ، فجففت مآقيها وقامت فنزلت . كانت فرناند تنتظرها في الطابق الأرضي وقد وضعت

امامها سلة غسيل كبرى . لقد نسيت مدام غروج جورج أنها ستأتي . وهل
يسع المرء في ساعات الآلام القصوى أن يفكر في تسديد حساب الغسيل ؟

إلا انها الحياة العابثة بجراحنا . وها هي ترغمها على تفحص
القمصان والمناديل بينما قلبها ينزف دما . خطر ببالها أن تطلب من
الوصيفة القيام بتعداد القطع بدلا عنها ، لكنها تذكرت أنها قد أجازتها .
بيد أن الاهتمام بالغسيل سوف يمنحها في نهاية المطاف من الاستغراق
في التفكير ، فيساهم في إنقاص دقائق من ذلك الصباح المقيت .

— نعم صباحك ، يا سيدتي .

— نعم صباحك ، يا صغيرتي . فرى سلتك من المنصدة . أين دفتر
الحسابات ؟

كم بدت تلك البنية على درجة من البراءة ، بساقيها المحمرتين من
شدة البرد ، ويديها المتسقتين وشالها الصوفي الأسود التستيع وقد
عقدت أطرافه فوق صدرها !

— ها هو ، يا سيدتي .

— إذهي بعد قليل واطلبي أن يعطوك طاسة فهوة بالحليب من المطبخ .
فأنت تشعرين بالبرد بسبب ساقيك العاريتين . ما هذا الشال
الذي اتشحت به ؟ ينبغي على أمك أن تشتري لك معطفا وقفازات
صوفية .

(من أين جاءتها دفقة الحنان تلك على حين غرة ؟ لقد وقعت عيناها
عشرات المرات على تلك البنية من قبل ، من غير أن تلقي بالا لتيابها مرة
واحدة . أما الآن فتحدوها رغبة غامضة في تقبيل هاتين الوجنتين
الحمراوين ، والقبض على هاتين الكفين لتدفئتهما داخل يديها . وأخذت
ركبتها تصطكان فاضطرت لأن تقعد .)

— لن أقوم اليوم بإحصاء عدد قطع الفسيل يا فرناند . قولي لمدام
برود : إذا نفص شيء فسوف ندونه على الدفتر في الأسبوع القادم .
اسألي الطاهية عن الثياب المتسخة .

— طيب يا سيدتي . لك هنا رسالة داخل الدفتر .

— رسالة ! ممن ؟

واخرجت من بين أوراق الدفتر رسالة وقرأتها :

« أتوسل الى سيدتي أن تتذكر أنها وعدتني بأن تساعدني . أما
إذا ما تكرمت سيدتي وأخبرتني بما ننوي القيام به نحوي فسوف أكون
ممتنة لسيدتي . ليس على سيدتي غير تسليم كلمة الى فرناند —
أنجيل » .

أنجيل ! أرخت مدام غروج الرسالة فسقطت عند قدميها ،
وكررت في ذهنها ذلك الاسم الذي تكرهه . ما هي النية المختبئة وراء
مصادفات الحياة لو تفكرنا في الأمر لما كان مدهشاً أن نسلم إليها تلك
الرسالة . لكن اسم أنجيل بدا كأنما جاء بشكل خاص ليزيد اسم
مدام غروج حدة ، وهي في حالتها النفسية تلك . فلبثت ساكنة
لحظة ثم انتزعت ورقة بيضاء وأخذت القلم الموضوع في دفتر الحسابات
وقالت بصوت قاس وهي تلهث :

— سلمني أنجيل هذه .

ريد أنها لم تكتب شيئاً . فقد استقر نظرها على البنية . فقالت
لها بغتة :

— أليس هذا الذي تتلفعين به هو شالها ؟

— أجل ، يا سيدتي . أنجيل أمارتني إياه .

قالت في نفسها : « لا ادري ان كان يعرف انها مشوهة . سأذهب
لاخبره بذلك » .

وقامت بحركة عنيفة من يدها . كلا ، لن نذهب لتقول له ، لن
نذهب لتنازع على ذلك الرجل احدى بنات الشوارع . ومهما تكن
الافكار التي تتنازعها وهي وحدها ، فانها تسعر الآن بزوها كلسه
يستعيدها ، لأن أمامها كائنا بشريا ينظر اليها . وعاد اليها ازدراؤها
للعالم ، فقد بدا لها أن العالم كله ينظر اليها ويحكم على سلوكها من
خلال عيني تلك البنت . وانتابها الخجل من نفسها . فباي حق تزدرى
البشرية ؟ اليسست ضعيفة مثل أية امرأة أخرى ؟ لو أتيح لاحد أن يراها
في الليلة الفاتئة ، وأن يسبر أغوار قلبها ، ليرأها وهي تحلم بذر المخدر
وبآلاف الاشياء المستحيلة ، لما تعرف فيها على المرأة المتفطرة الباردة
التي يراها في النهار . ومهما بدت على درجة من الكبرياء ، فان رجلا قد
انف منها وأشاح بوجهه عنها هي ، لاعت تلك الفتاة التي تزدرىها .

— ما بك يا سيدتي ؟ ألسنت على ما يرام ؟

لكن مدام غروجورج أبعدت البنت التي أقتربت منها . وامتنع
لون وجهها ويديها ومألت صدرها ضربات كبرى خافتة . لو تحطم
شيء داخلها في هذه اللحظة لبدا لها الموت مقبولا . لكن الحياة واصلت
مسيرتها داخل ذلك الجسد الذي حطمه العذاب النفسي . لا يعلم ما
ينبغي لقتل انسان الا الله .

— قولي الك . . أنجيل .

ومألت قلبها السخط على العشرات التي أوقعها فيها القدر .
النساء الأخريات سعيدات ، أما هي فلن تعرف السعادة أبدا . وإذا
صح أن الانسان يولد على الارض ليستمتع بالحياة ، لكان من الخير
الا تولد البتة . واستبدت بروحها على نحو مباغت ضغينة جنونية ،
فسولت لها نفسها مدة نوان أن تضرب تلك البنت ، التي كان وجهها

قريباً منها حتى كاد يلامس يديها . فعبعه الآلام الثقيلة التي رزحت تحتها ، حثها على «الحاق الأذى بغيرها حتى تهناً نفسها قليلاً . أضحمت حياتها خاسرة خسارة أبدية ومن الخير لها أن تتخلى عنها . فهذه المعذبة بنفسها ، تنحرف العواطف لديها منذ البداية حتى يتخذ الحب نفسه لبوس الحقد . أما الرجل الذي سلمها إياه القدر ، فتكرهه مثلما تكره المرأة التي وقع في هواها . ولم تصمد أمام الأغراء في وضع مصير أحدهما في يد الآخر . فدونت على ورقة بيضاء ، وكأنها تنتحسر ، الكلمات التالية ١

« غيريه مختبئ هنا . هيا ابلي الشربة » .

قالت للبننت الصغيرة وهي تكرر على أسنانها :

— دعي سلتك هنا ، وخذي هذه الرسالة إلى انجيل . امضي بأقصى سرعة . المسألة هامة جداً .

* * *

- ١٣ -

انقضت ساعة بحالها ومدام لوند جالسة قرب المدفأة في قاعة الطعام ، تحيك نسالا من 'لصوف الاسود وتكلم نفسها . لكن ينبغي أن يتمتع المرء بسمع مرعف ليدرك ما كانت تقوله ، فالصوت الخارج من بين شفثيها أشبه بلخط مشوش تختلط الكلمات فيه . لقد وضعت كسبة القس التي تجلس عليها بين المدفأة ومكتبها ، حرصا منها دون ريب على أن لا تقع عليها عيون المنزهين الفضوليين . وما نجمت حاجتها للتواري عن الاعين الا لانها كانت تضع نظارتها . فهذه المرأة الصائرة الى الموت ما تزال لديها رواسب صغيرة من وسائل الاغراء تبلغ في تفاهتها حد النسؤم . واذا كان الاغراء يخضع للرغبة في نيل الاعجاب ، فمن هو الذي ستحظى باعجابه مدام لوند وقد ربت أعوامها على خمسة وخمسين؟ ولو رايتها وهي مجللة بالسواد ، ضخمة الجثة ، مقوسة الظهر ، لقلت انها تحدث النار التي ترد عليها بأنينها . كان رأسها يميل من وقت لآخر مؤديا تلك الحركة التي يقوم بها المسنون كأنهم يجيبون : « كلا » حين يدعوهم القبر . وتستقر يداها بهدوء على ركبتيها فينزلق الشال ويسقط على الارض . عندئذ يخرجها من اغفاءها القصيرة صوت ارتطام الصنارتين العظيمتين بالارض ، فتجبل نظرها فيما حولها بهيئة ذاهلة ، فتثبت نظارتها فوق انفها الكبير المكرب ، ثم تنطوي نصفين وهي تئن وتحرك يدها كالمجذاف الى أن نعثر على شالها .

انفتح باب المطعم على حين غره ودخل احدهم الى القاعة الكبرى ركضا . انها فرناند . لم تقع صنبها على مدام لوند . وحين أوشكت أن تمر من أمامها ، أوقفها صوت المعلمة في مكانها :

— الى أين أنت ذاهبة ، يا صغيرة ؟

فصدرت عن الصغيرة صرخة فزع :

— لم أكن أعرف أنك هنا . يا مدام لوند .

— أولا ، قل لي يا خالني . وانت ، من بعد ، في عجلة من أمرك .
لقد سألتك الى أين أنت ذاهبة . فهل ستجيبين ؟ لم عدت في هذه
الساعة المبكرة ؟ أين سلتك ؟

— عند مدام غروجورج .

— تركت سلتك عند مدام غروجورج ؟ قل لي ، هل جننت ؟ هيا ،
مابك ؟ تعالي حدثيني .

وقبص عليها من يدها وأرغمتها على الاقتراب منها .

— دعيني أذهب ، يا مدام لوند .

— مدام لوند ستوجه اليك صفة اذا لم تقولي لها يا خالتي . أما
بعد ، فلا تبكي . أهنالك نبيء ؟ ما هو ، قل لي ؟

وسدت على الطفلة بركبتها وقبضت على مرفقيها بحزم .

— ليم عدت راكضة ، بعد أن تركت سلتك عند مدام غروجورج ؟

— مدام غروجورج حملتني توصية الى الجيل .

— آه ، أبة توصية ؟

— لا أدري .

— هل تريدن صفقة ؟

— انها مكتوبة على ورقة ؟

— اذن أعطني تلك الورقة .

— لن يروق ذلك لمدام غروجورج . ائد قالت ان هذه لانجيل .

— انا سأتولى الامر . أين الورقة ؟

أخرجت البنت الورقة من تحت مريلتها السوداء وأعطتها للمعلمة
ففتكت هذه أسر فرناند وقالت لها : « اجلسي هناك » مسيرة بيدها الى
أحد الكراسي البعيدة عن المكتب .

ما ان ابتعدت الصغيرة ، حتى أعادت مدام لوند تشيب نظارتها
وفطبت حاجبيها وهي تنظر الى الورقة . فكتابة مدام غروجورج أشبه
بما تخطه رينسة المرجاف^(١) . لكن بضع دقائق من الجهد مكنتها من
تفكيك الكلمات الاولى ، فلم تفو على كتم صرخة . وقالت وهي تهتز في
كتبتها :

— هذا غير ممكن !

عاد نبض حياة جديد ليدفع بالدم الى قلبها مما جعل ضرباته
تشدد . فهذا الرجل تسبب بمصائب عديدة ، أرعبت المدينة وحملت
الولايات الى مطعمها هي . ثم جاءت عدالة السماء لتضعه بين يديها .

لم تفكر حتى في مواصلة قراءة الورقة التي شدت عليها بقبضة
يدها . ثم لبثت بضع نوان عاجزة عن الاتيان بحركة من شدة الانفعال
لم تعمل في نفسها غير فكرة واحدة :

١ — آلة لتسجيل درجات الزلازل .

أن تستعجل ، لكنها لم تتحرك . هناك شيء يسمرها فوق مقعدها
فيما تتجمع كل القوى المسنة في داخلها متحفزة للوتبة الكبرى التي
ستضعها على الطريق . لبنت فاعرة كالأها ، ثم انطلقت من بين ثفتيها
صرخة على نحو مباغت .

— يا فرناند ! قبعتي !

لكن ما من جواب .

— أين هي ؟ يا الهي . لا بأس ، سامضي بلا قبعة ، بلا ...

وتحررت بفتة ، فقامت منتصبة فوق ساقها بجهد شاركت فيه
عضلاتها كلها . ثم أجالت الطرف فيما حولها ، وهي واقفة ، كمن أصيب
بدوار . فقد غربت عيناها وراء نظارتها تحت تأثير الغبطة والمفاجأة .
وتنهدت بعمق وقالت :

— لا بأس .

كأنت تبحث دون شك عن ثوب تضعه على كتفيها ، فالبرد قارس .
وكلمة « لا بأس » تلك ، التي نطقت بها بكل إجلال ، كانت ذات طابع بطولي
مثل العبارات التي يتفوه بها الجنود قبل خوض المعركة : كان بمقدورها
أن تصعد الى غرفتها لأخذ معطف أو عباءة ، لكنها فضلت أن تضحي
براحتها الشخصية ، وتعرض نفسها في الشارع لنزلة برد ، كي تمضي
بسرعة نحو واجبها الهائل .

وبينما هي تدفع بالكنبة جانبا لتتوجه نحو الباب ، أزعجت جرذا
طرده البرد من مسكنه في القبو ، فجاء يبحث عن الدفء والراحة تحت
نياب تلك المرأة التي كانت تجهل وجوده .

في تلك الاثناء صعدت فرناند الى غرفة أنجيل . كانت الفتاة ،
رغم الوقت المتأخر ، ما تزال في سريرها ، ووجهها الى الجدار والأغطية

الى فوق اذنيها . ربما كانت غافية حين دفعت الصغيرة الباب وقالت بصوت مسموع :

— أنجيل . انهضي !

— هذه أنت يا فرناند ؟ لم عدت باكراً هكذا ؟

— لديّ نأ هام أحمله اليك . ينبغي أن تنهضي وتلبسي ثيابك بسرعة .

— لكنني لا أستطيع ، فطوال الليل لم يغمض أبى جفن . إنني مريضة .
ما المسألة ؟

— حملتني مدام غرو جورج توصبة اليك . لقد أعطتني ورقة ، لكن مدام لوند أخذتها مني قبل قليل .

— وماذا في تلك الورقة ؟ هيا قل لي .

— لقد قرأتها وأنا في الطريق . كتبت مدام غرو جورج : « غربه مختبئ هنا . هيا أبلغني الشرطة » .

جلست أنجيل في سريرها وأطلقت صرخة .

— مدام لوند قرأت الورقة ؟ ؟ ماذا قالت ؟

— سمعتها تناديني وأنا أصعد الدرج . كانت تريد قبعتها .

— ذلك كي تذهب الى السراي ! ينبغي منعها من ذلك ، يا فرناند الحقني بها . نأديها .

يا الهي !

— لقد خرجت . سمعت لتوي الباب يفتح ويغلق . عليك أن تنهضي وتسرعني الى مدام غرو جورج .

- ان أجد الوقت الكافي حتى أرتدي ثيابي . فالسراي على خطوتين من هنا . أسرعى الى الدارة واطلبي مقابلة غريه .
- من المؤكد ان مدام غرو جورج ليست راغبة في ان أراه .
- في أية حجرة يقيم ؟
- لا ادري .
- ناديه من الحديقة . قللي له ان يهرب . هيا بسرعة ، بافرناند !

* * *

- ١٤ -

حين وجد غيريه نفسه محتجزاً في قاعة مدام غروجورج الصغرى ،
 حصر اهتمامه الأول في البحث عن كيفية الهرب من ذلك السجن ، لأنه
 غداً وانقأ منذ بعض الوقت من أنها ستوقع به ، وأن رجال الشرطة
 سيدخلون الدارة قبل انقضاء ساعة ، بل قبل خمس عشرة دقيقة ،
 ويوقفونه . وسوف يقع ما يرهبه أكثر مما يرهب الموت : سيضعون
 القيد في يديه ، ويقتادونه إلى السراي ثم ينقلونه من هناك بعد بضعة أيام
 إلى السجن الرئيسي في المقاطعة . لقد قامر وخسر . راهن على كل شيء
 وخسر كل شيء . خسر أولاً حريته ومعها أنجيل . لقد انتهت تصفية
 حساب سعادته على الأرض ؛ لم يبق أمامه إلا سنوات من الاختناق في
 زنزانة ضيقة أو العيش المضمني لمحكوم بالاشغال الشاقة المؤبدة .

خاطر بأن يراه أحد ففتح النافذة ونظر : المسافة التي تفصله عن
 الأرض تتجاوز ثمانية أمتار . يستحيل عليه الانزلاق على الجدار ،
 فالحجارة خالية من أي نتوء . أما القفز فيعني الانتحار .

الباب الذي أدار قبضته حتى لوى محورها ، صمد أمام قوة يديه
 الجبارتين . عندئذ حاول انتزاع بزازات القفل بمديّة صغيرة . لكن نصليها
 انكسرا من غير أن يقوى على إدارة واحد من البزازات الأربعة نصف دورة .
 وزاد الفتل من اضطرابه فحصر همه في العمل على اقلاع القفل بأي
 نم من أجل فتح الباب ، وبحث في الغرفة عسى أن يجد ما يساعده على
 تحقيق هدفه . فعثر على مقص صغير في جزار خزانة ، لكنه انكسر وهو
 يحاول اعماله بأصابعه الخرقاء : لا بد من الوقت والمهارة وهدهود

الاعصاب ، من أجل تحريك الرؤوس الحديدية الصغيرة التي استشارها من دون فائدة .

بفتة تخطى عن مسروعه وهرع الى النافذة مجدداً ففتحها . وبينما كان ينحني خارجا ، جففت الريح الجهودية العرق عن جبينه وجددت طاقته . لو تسببت بيديه بحرف النافذة وترك جسده يتدلى لأنقص المسافة بينه وبين الأرض بشكل ملحوظ ولأمكنه أن يقفز . فهو طويل القامة ، ويصل طوله ، وذراعه ممدودتان ، الى مترين . لكن كيف السبيل الى القفز من علو ستة أمتار ؟ سوف يسقط الى الخلف ، فتنتهي السقطة بكسور في ظهره . لو لم يكن يخشى الموت لقبل بفرصة الخلاص المهيأة له . لكن الخوف في تلك الساعة كان مسيطرا عليه .

ابتعد عن النافذة من غير أن يفلقها ، وكأن الاحتكاك بالهواء الداخل بحرية الى جو القاعة قد حمل شيئا مطمئنا . أما خارجا ، فالأشجار على مقربة منه تهتر بمشيئة الريح ، وصدى العربات البعيدة على الطريق جاء ليطلق مسمعه . فالتناس يتوجهون الى حيث يطيب لهم ، بلا مبالاة مطلقة . أمام الفم المسيطر عليه فليس موضع اهتمام أحد . رزح طوال توان مدة تحت عبء الشعور بالعزلة التامة . فاجتاحته رغبة عنيفة في أن يهرع نحو الجمهور ليلتقي بالإنسانية التي أرغم على الهروب منها .

اجال نظره وهو واقف وسط الغرفة في كل ناحية . كان الباب مغلقا بالمفتاح والنافذة مفتوحة على الموت . لم يبق إلا المدخنة . لقد قرأ قصص هروب كثيرة قام فيها الرجال بالهرب عن السطوح التي صعدوا إليها من داخل المدخنة . لكن ما هو ممكن في المدينة التي تتلاصق أبنيتها بدا مستحيلا في الوضع الراهن : سترقى به الحال درجة الى الاعلى ليجد نفسه يتجول على اثني عشر مترا عن الأرض ، وهو الممتلىء خوفا من علو ثمانية . ثمانية أمتار : بعض البهلوانيين يقدفون بأنفسهم من ارتفاع أعلى .

قعد وفكر . ربما كانت تمر الآن أتمن دقائق في حياته ، بينما لا يقوم بأي تصرف . ويركن الى السكون فيما تحيك امرأة الدسائس للعمل على توقيفه . فمند قليل رأى خادمة تخرج . الى أين هي ذاهبة ؟ تلك لم تكن الطاهية التي يعرفها مثلما يعرف جميع الخدم في المنزل . إنها الوصيصة التي تحدثت إليه بالأمس عند باب الحديقة . واستعاد في ذهنه بغثة عشرات التفاصيل . لم تتعرف تلك المرأة عليه وهو في الظلمة ، لكن كيف استطاع هو ان يتعرف عليها ؟ من صوتها . من يدري إن كانت هي أيضا قد عرفته من صوته ؟ ضم يديه في كمرته فأحس أنهما متجمدتان . وفتح باب الحديقة في تلك اللحظة ، ثم أغلق لكنه لم يسمعه . لقد بدا معزولاً عن العالم الخارجي لاستغراقه في تأمل الخطر الذي تهدده . ففي تلك اللحظة تغلب كل ما نديه من جانب حالم ومنخاذل على الحاجة للاضطراب الناجم عن التوجس الشديد . لكن الخوف عاوده على الفور تقريباً . إنه الخوف من ان يعتقل الى الأبد في سجن حقيقي ليس فيه من نافذة مفتوحة أو باب يمكن خله .

فهرع مجدداً الى الباب وأمسك قبضة القفل بعنف وشد عليها بكلتا يديه كأنه يريد بغثة أن يقتلع القفل . لقد بدا له مستحيل أن تقوى تلك التركيبة من القطع الحديدية الصغيرة على احتجاز رجل في مثل قوته . وتولاه الفيض بعد دقائق من الجهد فوجه ضربة بمنكه الى الباب .

بدأ يلهث من النعب فتوقف ، ثم تقوس نصفين وظهره الى الجدار وأجال فيما حوله نظرة غيظ ويأس . أثار مشهد تلك الحجرة حقداً في نفسه بلغ حد التفكير في احراق الستائر ، لكن فكرة الانتقام من الاشياء الجامدة بدت صبيانية ، فتحول بفكرة نحو مدام غر وجورج . ما الدافع لديها كي تغدر به ؟ لم ذلك الجمود في صوتها وذلك الشحوب الذي اعتراها حين حدثتها عن أنجيل ؟ انها معتوهة دون شك . انها مهووسة بالحق الاذى بالآخرين وتعذيبهم . لقد استمتعت بأحياء آمال واهنة في نفسه لتسلمه الى الشرطة من بعد . كان عليه أن يتبين نوع الفرائز التي تتحكم بها مذ أن رآها نصفع ابنها بمزيج من البرود والوجد .

خطرت بباليه فكرة خلع الباب فحاول زحزحته من جديد ، لكنهم لم ييخلوا عليه بخشب السنديان أيام البناء ، فبقي القالب ثابتا لا يتزحزح .

شعر أنه اذا ما بقي ربع ساعة اخرى في تلك الحجرة فسوف يقفز من النافذة ، لا ليهرب ، بل ليضع حدا نهائيا لعذابه . وبدت له الارض قريبة جدا من مكان وقوفه . لكن الامر وهم فقط . فما أن يقترب من النافذة وينحني حتى يبرز أمامه علو ثمانية أمتار ، يتحداه أن يفلت من غير أن يموت .

الا أنه توجه صوب النافذة ، ليتأكد مرة أخيرة ، من أن كل فرصة أمامه للنجاة عن هذه الطريق مستحيلة . لكنه توقف . لقد لمح شخصا خارجا . انها في الواقع فرناند . كان يستطيع أن يراها تركض على الطريق المؤدية الى الدارة . لم يعرفها في البداية . ثم ما لبث أن تذكر انه صادفها ذات يوم وهي تخرج من المصبغة برفقة أنجيل . وأطلق لتلك الذكرى زفرة ألم . ليته كان يعرف آنذاك أن سعادة المرء تتمثل في أن لا يكون أسيرا .

لامست يده إحدى الستائر فتراى له بغتة بصيص أمل . الستائر ! كيف لم يفكر بها ؟ لكن ذلك القماش السميك الثقيل كان محكم التشبيث على الجدار . لا بد من وقت وأناة طويلين لانتزاعه وحقده وصنع جبل منه . لكنه أين سيربطه ؟ كيف السبيل الى العثور على فتحة كافية لتدمير ستارة من قلب الخزاف الحديدية الدقيقة التي تحيط بالنافذة ؟

ارتد ناحية الباب ووجه ضربة بقبضته الى القالب . وسمع في ذات اللحظة تقريبا من يصعد الدرج بسرعة فتراجع الى داخل الغرفة .

دار المفتاح في القفل ودخلت مدام غر وجورج . كان ينوي أن يندفع ناحيتها ليخرج لكن مظهر تلك المرأة أصابه بالدهشة فتوقف .

كانت على درجة من النحوب ، ونظرتها على درجة من القسوة والجمود حتى بدت أشبه بامرأة ميتة ، نسوا أن يغمضوا عينيها .

تمت من غير أن تنظر اليه :

— جئت اليك عليك سؤالاً .

— ماذا ؟

فأغلقت الباب وهي تمد يدها وراءها .

— قلت لي أنك عدت الى لورج بسبب أنجيل . فهل تعتقد أنها تحبك ؟

لبت محتاراً لحظة .

— أجل ، اعتقد ذلك .

— مصيرك يتقرر في هذه الساعة . انظر الى ما يجري في الحديقة .

هرع الى النافذة وانحنى خارجاً . فاستغلت الفرصة وارتحت الباب مرتين .

وقبل أن يجد الوقت لاستدراك ما حصل ، عبرت القاعة ورمت بالمفتاح من النافذة . فاطلق صيحة .

— ماذا فعلت ؟

— مثلما رأيت . ألقيت بمفتاح هذا الباب من النافذة . ينبغي أن يعود زوجي في حدود الثانية عشرة والنصف . سأناديه ليأتي بالمفتاح ويفتح الباب . سوف تختبئ خلف تلك الستائر كي لا يراك . ثم تنصرف بينما نكون نحن على مائدة الغداء .

— لماذا رميت بالمفتاح من النافذة .

فاستدارت ونظرت اليه .

— أنجيل تعرف أنك هنا . ليس ما يدعوك لان يقلق ، لا سيما أنك تقول إنها تحبك . أما اذا جاؤوا يقبضون عليك ، فاعلم أنها ابلغت الشرطة . ويكون ذلك برهانا على أنها تكرهك .

لبث جامداً يحدق في مدام غروجورج ، كأنما يحاول أن يقرأ في ذلك الوجه المتشنج معنى الكلمات التي سمعها . ثم قال بفتة :

— لو أوقفوني ... لكن هذا مستحيل ، يا سيدتي . أنت لن تغدري بي .

— من قال هذا ؟ إن غدر بك من أحد ، فأنجيل هي التي ستفعل ذلك .

— كيف عرفت أنني هنا ؟

— أنا بعثت أقول لها .

— لماذا ؟

— ذاك ليس من شأنك .

— سيدتي ، دعيني أمضي في سبيلي . استدعي من يأتيك بالمفتاح .

— أنت تخشى إذن أن تغدري بك تلك المرأة ؟ كنت أحسب أنها تحبك كثيراً .

— أريد أن أخرج من هنا . إن لم تستدعي أحداً ، اخلع الباب .

— عندئذ أنادي كي يوقفوك . في الدار الآن رجلان : البستاني والوصيف . كما أنني مطمئنة . بوسعك أن تتعامل مع الباب إذا ما طاب لك ، فهو متين .

فخبط الأرض بقدمه صائحاً :

— وماذا لو قتلك أنت ؟ ماذا لو خنقتك ؟

فهزت كتفيها كأن رعدة اعترتها ، لكنها لم تحول نظرها عن ذلك الرجل الذي انتابه السخط بفتة . وقالت وهي تقعد ، لخور في ركبتها :

— لست خائفة منك . أظنني كنت أجيء الى هنا لو أنني أخاف منك ؟

— إحذري يا سيدتي ! أقسم لك إنني سأقتلك لو جاؤوا للقبض عليّ .

— سوف نرى . على كل حال ، أنا لا أخشى الموت .

كانت تتكلم بنوع من الهدوء سبب ذهوله . ربما كانت تلك المرأة الغامضة تنعم ، في تلك الساعة من القلق الذي لا يقوى إنسان على احتماله ، بهدوء لم تعرف مثيلاً له من قبل . وبعد بضع نوان بدت خلالها وهي تجهد لاستجماع فواها ، نهضت وعبرت القاعة لتجلس أمام مكتب موضوع في إحدى الزوايا . لم يحول غيظه نظره عنها فراها تفتح أحد أدراج المكتب .

فسألها قائلاً :

— ماذا تفعلين ؟

أجابت وهي تغلق الدرج :

— أبحث عن ريشة لأكتب رسالة .

— لمن ؟

— لأول من يعثر عليها .

فقدم ليقف وراءها واضعاً يده على ظهر الكرسي . وقال بصوت متوعد :

— سوف تذهبين الى النافذة لتنادي على الخادم . ينبغي أن يفتح هذا الباب في غضون خمس دقائق . إنهضي .

— كلا .

— أنذرك بأن حياتك في خطر .

فردت عليه من غير أن تتحرك .

— سوف نجني على نفسك بسرعة حين تقتلني . لأنني لن أقدم لك من نفع وأنا ميتة ، أما وأنا على قيد الحياة ، فبوسعي أن أوعز بفتح هذا الباب ، إن شئت .

— سيدتي ، ارحميني . أتوسل اليك أن تستدعي أحداً .

— دعني أكتب هذه الرسالة .

— بماذا أسأت إليك ؟ لماذا تكرهيني ؟

ولم تجب . فسألها مجدداً :

— لماذا تكرهيني ؟

— هذا شائي .

— هل أسأت إليك من غير قصد ؟ لماذا احتجزتني هنا ؟

— قلت لك أن تدعني أكتب .

— ألا تعلمين أن حياتي في خطر ، إذا ما قبضوا عليّ ؟

ولم تجب . فارتمى عند قدميها :

— أتوسل إليك ، يا سيدي . فكري فيما ستشعرين به من تأنيب
الضمير ، فيما بعد ، إذا ما حكم علي بالإعدام . فأنت لا ترغبين في
إرسالني إلى المشنقة ...

أما وهو يرى إلى ذلك الوجه الذي لم يتوصل إلى اجتذاب
نظره ، فقد خامره الشك في أن تكون كلماته مسموعة . فهب واقفا
وصاح :

— كان عليّ أن أرتاب في أنك ستفدرين بي . فقد يضربون عنق
ابنك من غير أن تهتزّي قيد أنملة . أنت لست امرأة ، أنت وحش مرعب
وان كنت قد جئت إلى هنا فذلك لكي تستمتعي باستغاثتي . أنت
تكرهيني . لكن حقدك لا يساوي شيئا مما أحمله نحوك من حقد في هذه
اللحظة . هل تسمعينني ؟ ليتك لا تعرفين طعما للراحة بعد اليوم وأن
تعاني من العذاب يوما مثل ما أعاني منه الآن .

لم تتحرك . فحقد في لحظة وود لو ينهال عليها ضربا ، لكنه
لم يجرؤ بسبب ما تجلّى في سكون تلك المرأة من قوة . عندئذ ، هرع
بحركة سخط نحو الباب محاولا أن يخلعه .

وبدا كأن مدام غروجورج كانت تترقب تلك اللحظة لتفتح الجرار لكن لا لتأخذ ريشة بل مسدساً صغيراً مرصعاً بالصدف ، قدسته في نطاقها قرب الساعة المربوطة بسلسلة طويلة .

وسمعا صوتاً قادمًا من الحديقة فأجفلا معا . انها فرناند تنادي غريه . فهرع الى النافذة . ونهضت مدام غروجورج .

صاح غريه وهو يرى الفتاة : « ماذا هناك ؟ » فردت فرناند قائلة :

— أهرب . لقد تم ابلاغ الشرطة . سوف يوقفونك .

فاستدار يائساً نحو مدام غروجورج . فقال بصوت متقطع :

— أنت ترى جيداً انها لم تكن نحبك .

ورآها تمنى نحو طرف القاعة مثل من يسير وهو نائم ، فعاد الى النافذة مجدداً وصاح بالفتاة :

— المفتاح ! التقطى المفتاح وانسي به ، انه هناك فوق الممنى .
ابحثي عنه ، في ...

ودوى صوت طلقة من ورائه . لم يفهم شيئاً بادىء الامر ، ونظر الى الفتاة فرآها تنطلق في الحديقة هاربة ، ثم ارتد الى داخل الحجرة كأن يدا قد أمسكت به من طوقه .

كانت مدام غروجورج جاثية فوق السجادة منطوية نصفين وذراعها تحتها . وفهم من الأنين المنطلق من بين شفيتها هذه الكلمات : « أجهز عليّ . لا أريد أن أعيش . »

* * *

- ١٥ -

— ماذا يقلن ، يا فرناند ؟ انهن يتحدثن جميعهن في وقت واحد .
سأنزل الدرج لحظة لاسمعهن . اعطيني قميصي .

مسحت البنت الصغيرة بكفها على ذراع أنجيل وقالت لها بتوسل:

— اهدئي . هذه مدام لوند تكرر دوما حديثها ذاته . الجو بارد
عند الدرج وانت غارقة في العرق . تدثري ، يا أنجيل .

لكن الفتاة قاومت جهود فرناند وهي تريد أن ترغمها على التمدد
كانت جالسة في سريرها ، نسبه عارية ، دونما خوف من برودة جليدية
تسود ما حولها . ثم قالت بحماس :

— ان كنت لا تريدين ابي أن انهض ، فاهبطي الدرج وافتحي باب
القاعة قلبلا حتى أتمكن من سماع ما يقلنه .

استلقت أنجيل في سريرها ، لتضمن طاعة البنت الصغيرة بسرعة
وسحبت الاغطية على صدرها . لكن ما أن غادرت فرناند الغرفة حتى
أزاحتها مجددا وهي تلهت من الحمى . كان العرق يسيل من أطرافها .
وبغثة ضاقت ذرعا بتلك اللزوجة التي ألصقت قميصها بجسدها ،
فأخذت منديلا مسحت به عنقها وكتفها وجنبها .

سمعت بعد هنيهة فرناند ، التي أضحت عند أسفل الدرج ، وهي
تفتح بتأن باب قاعة الطعام ، ومنلما يتدفق الماء من فتحة في سد ، اندفع
لفظ الاصوات الصارخة نحو الفتاة .

قالت مدام كوز : « لن تغيرن رأبي أنه كان يريد أن يقتلها . »

فردت مدام كوب ، بائعة الخردوات قائلة : « لكنها لم تقل ذلك » .

فعقبت مدام لوند ، السي بدا دورها منحصرًا على الدوام في احتواء مخاوف مدام كوز ، ومنعها من الساعة الدعر فيما حولها :

— هذا صحيح . فهل سخيّلين أنها خافت أن تقول لرجال الشرطة : « هذا الرجل اطلق علي رصاصة من مسدس ؟ » لاسيما وأنهم اوقفوه على كل حال ...

فردت طاهية آل غروجورج بعناد :

— لماذا لم تقل إذن ، إنها نوت أن تقتل نفسها ؟

أجابت مدام لوند التي وجه السؤال إليها ، وقد بدا عليها شيء من التبرم :

— لأنها لم ترغب في ذلك .

ساد الصمت فترة قصيرة دلالة على ما قوبل به رأي المعلمة من تقدير . إلا أن مدام كوز أعادت الكرة بسؤالها مجدداً :

— أوليم لا ترغب في قول ذلك ؟

أما مدام بيلاتان ، بائعة اللحوم ، وهي امرأة وفحة ، تستقبلها مدام لوند لأنها مدينة لها بمبلغ من المال ، فقد كررت السؤال ذاته قائلة :

— أجل ، لماذا ؟

فقالت المعلمة : « أنا أعرف . »

وترددت بعض الوقت لتعثر على شيء داخل رأسها الهرم المرهق من أحداث النهار . وقالت أخيراً بوحى إلهام مباغت :

— كان ذلك الرجل ينوي الاعتداء على شرف مدام غروج .

وعلت ضحكة حادة على أثر تلك العبارة . فمن الواضح أن مدام كوز ومدام بيلتان لا تعتقدان بذلك التفسير للواقعة المأساوية . لكن صوت مدام لوند علا مجدداً حين سألت مغتظة :

— ماذا دهاكن لتضحكن . أنا أعرف ما أقوله . تذكرن كيف تصرف حيال أنجيل .

أمسك أنجيل ، لدى سماعها تلك الكلمات ، بيد البنت الصغيرة النبي عادت الى القرب منها . وقالت :

— لماذا يتحدثن عني ؟ ماذا يقلن يافرناند ؟

— لا أدري . هل تريدن أن أمضي لأغلاق الباب الآن ؟

— أجل . كلا . أريد أن أصفي قليلاً أيضاً ، إنهن يتكلمن بصوت عال فلا يفهم من كلامهن شيء .

لم يكن يفهم شيء من الكلام في الواقع لأن أولئك السيدات شرمن ينكلمن كلهن في ذات الوقت . ولم يكن الحديث يدور حول أنجيل الآن بل حول حال مدام غروج .

صاحت مدام كروب بالطاهية :

— أقول لك إنها ستخرج سالمة .

— والرصاصة التي في جسمها ؟ هـ ! هـ !

فهتفت مدام لوند مغتازة ، كأن مدام كوز تبعث بها هي الى العالم
الآخر :

— تلك الرصاصية سوف يستأصلونها . أما أنت فلا تتفوهين
إلا بالحماقات . كما يجن جنونك إذا لم تري الأمور تسير نحو
الأسوأ .

ولم يصدر عن مدام كوز الجالسة أمام الباب المفتوح قليلا غير
العطاس الشديد . ثم تأوهت قائلة :

— هنا تيار هواء . لقد أصبت .

فقالت مدام لوند وقد سرها أن تثير الفزع في قلب تلك الخوافة :

— إحترسي . فقد تبدئين بالعطاس وفي غضون اسبوع يمضون بك الى
الكنيسة وقدماءك في المقدمة .

وقامت واحدة فأغلقت الباب .

وسألت انجيل قائلة :

— فرناند ، لماذا لم اعد اسمع شيئا ؟

— لانهن أغلقن الباب . لقد بدأت مدام كوز تعطس بسبب تيار الهواء .
الم تفهمي ما كانت تقوله ؟

ولم تجب انجيل . ففكرها الذي أمسى أكثر نشاطا بسبب الحمى ،
تاه على دروب أخرى . لقد خيم الليل منذ ساعة . ولم تعد الغرفة
مضاءة إلا ببهاء مصابيح الساحة ، لكن بشكل باهت لا يميز المرء فيه غير
أغطية السرير .

قالت الفتاة على حين غرة :

— دعيني الآن ، يا فرناند . أريد أن أنام .

لم يكن ذلك صحيحا . لم يكن بوسعها أن تنام . فالصيحات التي تتردد في أذنيها أكثر من أن تحصى . والكواكب التي تسطع في الظلمة أكثر من أن تسمح للنوم بإغماض عينيها . لكنها كانت تريد البقاء وحدها من أجل أن تنهض وترتدي ثيابها . فتلك الفكرة التي شقت طريقها في ذهنها ببطء ، منذ أن غاب النهار ، ظلت تتعاضد حتى لانت أمامها الإرادة . لقد بدأت بالنسبة لها حياة غريبة ، فلا هي من عالم اليقظة ولا من عالم الأحلام . لكنها تستعبر عناصرها من العالمين ونقوم بمزجها . فكل ما عرفته في العالم قد بدل اتجاهه . ما كان مسنجلا أضحى حقيقيا ولم يعد الزمن يفرض استبداده على الأفعال البشرية .

إنها الآن وحيدة ، تتلمس ماحولها بحثاً عن ثيابها فترتديها قطعة قطعة . فالساعة تقترب . ليس عليها أن تتلصق ، بل ينبغي لها أن تستفيد من تلك الفرصة القصيرة المتاحة لتفادر غرفتها وتترك البيت لتصل الى الطريق . سوف تمر من المطبخ . وإذا مارأها أحد وسألها عن حالها فسوف تجيب إنها بخير . وإن البابونج الذي أرغموها على شربه قبل قليل قد شفاها . كانت تردد ذلك لنفسها مع أشياء أخرى كثيرة ، وهي تتحرك في غرفتها ونصطدم بقطع الأثاث ، مثل امرأة أفرطت في الشراب ولم تعد تعرف أين الباب .

أما الوهن الكبير الذي أرغمها على أن تستند الى الجدار ، فقد أثار استغرابها . لاسيما أنها تشعر الآن بحاجة كبرى للنشاط ، بينما كانت قبل قليل تشعر بعجز شديد ، حتى أن التقاط نفسها تطلب منها كبير عناء . كان بودها أن تجري ، أن تثب فوق درجات السلم وهي تهبط ، على نحو ما كانت تفعله فما مضى .

لم يكن في المطبخ غير النادل جالساً يقرأ جريدته ويدخن . فنظر إليها وهم بالنهوض لكنها مرت من أمامه ، وقد تقززت من رائحة المطبخ ودفعته ، ثم خرجت .

لم تكد تغلق الباب وراءها حتى أوشكت أن تقع على العتبة الخارجية . فالهواء المتجمد صفعها ونفذ إليها من قمها المفتر . كانت تلهث دائخة ، ويدأها ممدودنان الى أمام ، كأنها تبحث عن شيء تتمسك به وتتكىء عليه .

مشيت في الشوارع المقفرة بخطى مضطربة متنقلة من جانب الى جانب ومن جادة لأخرى حتى بلغت الشارع الرئيس . كان قصدها ان تتوجه الى هناك ، تنفيذاً لذلك الامر الغامض الذي يتردد داخلها منذ ساعات . إذا كان للسعادة من وجود فعلية أن تبحث عنها على هذا الطريق ، لا في تلك المدينة التي تغادرها الى الأبد . لقد أسعدها أخيراً ، بعد شهور من الغم ، أنها سترتحل . لن ترى مدام لوند من بعد ولا زبائنهن الذين تسببوا في عذابها . هناك من ينتظرها على الطريق . هناك من وعدها بأن ينتظرها . كانت الظلمة حالكة حتى لم يعد الوقت بعيداً عن الساعة والنصف . قيل لها في الساعة والنصف بين المصباحين الثالث والرابع بعد المعبر . وهاهي ذي في الموعد المضروب .

• • • • •

بائع اللبن هو الذي تولى نقلها في عربته . لقد أوشك حصانه أن يطأها بسنابكه ، لأنها كانت مرمية على الأرض بلا حراك . كان هم مدام لوند الأول أن تمدها في السرير وتعمل في غرفتها نار حطب صغيرة . كانت تلك أول مرة تنعكس فيها ألسنة اللهب على حجارة ذلك الموقد ، لكن عناء مدام لوند كان بلا طائل .

بلا طائل أن يشع النور في تلك الغرفة أو يعمّ الظلام ، وأن يكون قلب المرء قاسياً أو عامراً بالإحسان . فالعالم يتلاشى مثل حلم مزعج . ولم يبق من هذه الحياة غير الألم ، وجسدها مازال يحمل آثاره . لكن ذلك الألم نفسه أصبح ضئيلاً جداً ، فالروابط الأخيرة تقطعت . أما الاختلاط الأقصى الذي عمّ كل الأشياء على الأرض ، فلم يعد يصل منه إلى تلك المرأة ، غير أصداء أصوات إنسانية خافتة من غير أن تلتفت معناتها . لقد شخصت ميناها إلى الرؤيا التي يتأملها الموتى على نحو أبدي .

كانون الثاني ١٩٢٨ - كانون الثاني ١٩٢٩

* * *

۱۹۹۷/۱/ ۱ ب ۲۵۰۰

(اللويثان) المقابل الشرقي القديم
لـ (الغول) في الأساطير العربية، رمز لكل ما يتسلط
على الإنسان ويسحقه أو يهدده في وجوده.
ويستخدم هنا جوليان غرين الروائي الفرنسي
المعاصر المعروف، عضو الاكاديمية الفرنسية لتقديم
صورة كاملة عن حياة بلدة ريفية صغيرة في مكان
ما من العالم، حيث يراقب فيها الناس بعضهم
البعض، فالحياة فيها عبء لا يطاق:

هذا، مصيبتة الملل، لا يدري كيف يسلي ذاته،
ذاك، الوسواس يحاول صاحبه ابعاده بمراقبة الناس
والتلذذ بالتشهير بهم. ثالث يختار حببية، فإذا بها
في نظر أهل القرية مجمع للعهر، تنشأ عنه
تعارضات يعجز (الحبيب) عن تجاوزها فتصيبه
نوبات هستيرية تشبه الجنون. مع ذلك، فالناس
الذين ألفوا هذه الحال صاروا يحبونها، لا يرضوا
عنها بديلاً، كما يحب الإنسان مرضه عندما يصير
جزءاً لا يتجزأ من حياته اليومية.

هذا الإطار يستخدمه الروائي لتحليل
سيكولوجي غني بالمفارقات والتلوينات.

إن رواية اللويثان هي من صميم واقع نهاية
هذا القرن، وواحدة من عيون أدبه. الترجمة جيدة
تؤدي بأمانة المواقف الأكثر دقة في الأصل
وأسلوب المترجم يجمع بين الأسلوب المشرق
والمتين والتقيد بالنص الفرنسي.

طبع في مطابع وزارة الثقافة

دمشق ١٩٩٧

في الاقطار العربية كما يماثل

٤٠٠ ل.س

سعر النسخة داخل القطر

٢٠٠ ل.س